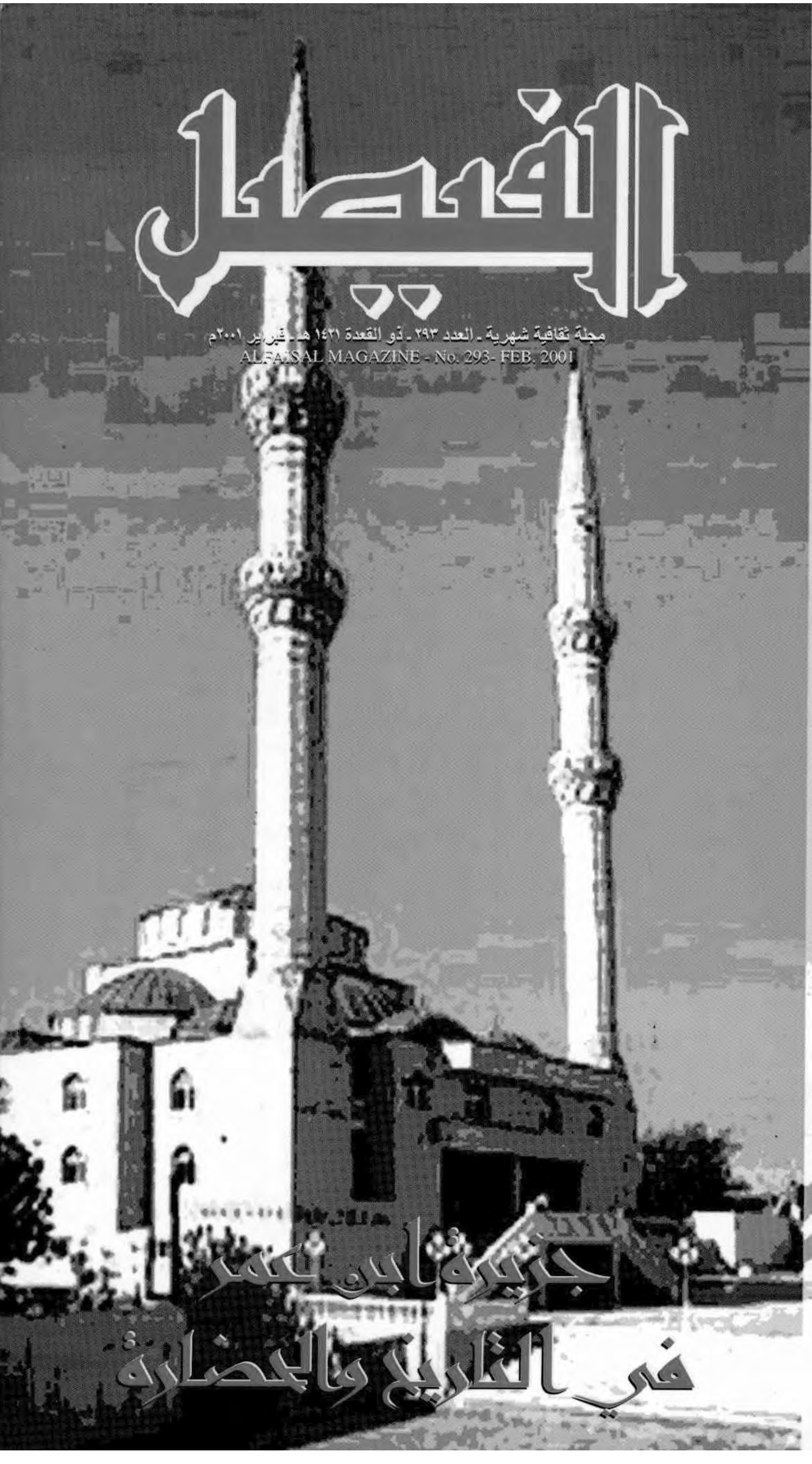
الفيصل

مجلة ثقافية شهرية - العدد ٢٩٣ - ذو القعدة ١٤٢١ هـ - فبراير ٢٠٠١م
ALFAISAL MAGAZINE - No. 293- FEB. 2001



- حرائق الغابات: من الضرورة إلى الكارثة
- تجارب فنية تبحث عن التفرد
- الحكايات العربية وحكايات عرب وسط آسيا
- ابن خلدون والأطر الاجتماعية للفلسفة
- أسرار البيات الشتوي والهجرة في عالم الحيوانات
- كيف يثار الابتكار لدى الصغار والكبار؟
- محمد خانجيتش: حياته ومؤلفاته

جزيرة ابن عمر في التاريخ والحضارة

Mngool Com

الفيصل
الناشر: دار الفيصل الثقافية

المحتويات

ضوابط النشر

- يفضل طباعة المادة المرسلة على الحاسب الآلي، وإرسال نسخة على قرص مرن إن أمكن، أو كتابتها بخط مقروء على ورق A4 جيد، مع إرفاق سيرة ذاتية، وصورة ملونة حديثة.
- لا تفضل المجلة نشر المقالات الانطباعية التي تخلو من المعلومات.
- يرجى إرفاق صور أصلية ملونة جيدة مع الاستطلاعات والموضوعات الملونة، ولا تقبل الصور المأخوذة من الصحف والمجلات.
- في حال إرسال قصة مترجمة، يرجى إرفاق الأصل المترجم.
- لا تنشر المجلة الموضوعات المترجمة مباشرة من مجلات أجنبية، إلا إذا كان هناك إذن مسبق منها، وإن كان لا مانع من اتخاذها مصدراً من مصادر الموضوع، مع توضيح مواضع الاقتباسات بشكل علمي.
- المواد التي يعتذر من عدم نشرها لا تعني بالضرورة ضعف مستواها، ولكن قد تكون هناك مواد كثيرة في الموضوع نفسه سبق نشرها، أو تنتظر النشر. ولا ترد المقالات إلى أصحابها بأي حال من الأحوال.
- يرجى إرفاق صورة غلاف الكتاب الذي يتم عرضه في باب «قراءات» مع بيانات وافية عن الكتاب المعروض يشمل: عنوانه واسم مؤلفه ودار النشر ومقرها، وسنة النشر، وعدد الصفحات.
- الموضوعات التي مضى عليها وقت طويل ولم تنشر في المجلة سيتم الرد على الكتّاب بعد إعادة تقويمها بغض النظر عن أنها قد أجيزت من قبل للنشر.
- لا تمنح مكافآت على ما ينشر في بابي « رسائلكم» و«ردود وتعقيبات».
- يرجى الاهتمام بالتوثيق، ومن أهم ما ينبغي مراعاته:
  - يفضل تخريج الآيات القرآنية من القرآن الكريم مع تشكيلها، وذلك بذكر اسم السورة ووضع نقطتين بعدها ورقم الآية.
  - يفضل تخريج الأحاديث الشريفة من كتب الحديث مع ذكر طبعة الكتاب.
  - التثبت من النقول التي تنقل من الكتب، ولاسيما المصادر والمراجع التراثية القديمة مع ذكر طبعة الكتاب.
  - تشكيل الشعر ما أمكن، وخصوصاً القديم منه.
  - ضبط أسماء الأعلام والشعراء والأماكن والأشياء غير المعروفة والكلمات غير المألوفة بالشكل الصحيح، والتأكد من أن أسماء الأعلام الأجانب مطابقة لما هو متداول في لغاتهم إن أمكن.

الموضوعات التي تنشر في المجلة تعبر عن آراء كتّابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

السعر الإفرادي

السعودية ٨ ريالات ـ الكويت ٦٥٠ فلس ـ الإمارات ٧ دراهم ـ قطر ٧ ريالات ـ البحرين ٧٥٠ فلس ـ عُمان ٧٥٠ بيسة ـ الأردن ٥٠٠ فلس ـ اليمن ٦٠ ريالاً ـ مصر جنيهان ـ السودان ٧٠ ديناراً ـ المغرب ٨ دراهم ـ تونس دينار واحد ـ الجزائر ٨٠ ديناراً ـ العراق ٤٠٠ فلس ـ سورية ٣٠ ليرة ـ ليبيا ٨٠٠ درهم ـ موريتانيا ١٠٠ أوقية ـ الصومال ٢٠٠٠ شلن ـ جيبوتي ١٥٠ فرنك ـ لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية ـ الباكستان ٢٠ روبية ـ المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

الموزعون

السعودية ـ الشركة السعودية للتوزيع ـ هاتف ٦٥٣٠٩٠٩(٠٢)، فاكس ٦٥٣٣١٩١(٠٢). مصر ـ مؤسسة توزيع الأهرام ـ شارع الجلاء هاتف: ٣٣٩١٠٩٥ ـ فاكس ٣٣٩١٠٩٦ ـ ٢٠٢٠٠، سورية ـ المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات ص.ب ١٢٠٣٥ هاتف ٢١٢٨٢٤٨ـ فاكس ٢١٢٢٥٣٢ ـ ١١ـ ٠٠٩٦٣، تونس ـ الشركة التونسية للصحافة ـ ٣نهج المغرب ـ فاكس ٣٢٣٠٠٤/ هاتف ٣٢٢٤٩٩ ـ ١ ـ ٠٠٢١٦، قطر ـ دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع ـ ص.ب ٣٤٨٨ هاتف ٤٦٦١٢٨٢ ـ فاكس ٤٦٦١٨٦٥ ـ ٠٠٩٧٤، الأردن ـ شركة وكالة التوزيع الأردنية ـ ص.ب ٣٧٥ هاتف ٤٦٣٠١٩١ ـ فاكس ٤٦٣٥١٥٢ ـ ٦ـ ٠٠٩٦٢، البحرين ـ مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ص.ب ٢٢٤ هاتف ٢٩٤٠٠٠ ـ فاكس ٥٣١٢٨١ ـ ٠٠٩٧٣، الإمارات العربية المتحدة ـ مكتبة دار الحكمة ص.ب ٢٠٠٧ هاتف ٢٦٦٥٣٩٤ ـ فاكس ٢٦٦٩٨٢٧ ـ ٤ ـ ٠٠٩٧١، الجزائر ـ مؤسسة E.B.D. PRESSE لتوزيع الصحافة. ت ٤٨٦١٥٥٥ فاكس ٤٨٦٢٤١٥ ـ ٠٠٢١٣، الكويت ـ شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع ص.ب ٢٩١٢٦ ت ٢٤١٧٨١٠/١١/١٢ ـ فاكس ٢٤١٧٨٠٩ ـ ٠٠٩٦٥، السودان شركة النحوي للتجارة والتوزيع ص.ب ١٠٣٧١ ت: ٧٧١٥٤٧/٢٧ فاكس ٧٧٤٣٣٦، المغرب MOROCO ـ SOCHPRESS - CASABLANCA - TEL:2400223, Fax:00212-2404041/32، باكستان PAKISTAN
PARADIS BOOKS & DISTRIBUTORS- KARACHI 75400, TEL:4314981/2 FAX: 0092-21-4554410.
الجمهورية اليمنية ـ القائد للنشر والتوزيع ت: ٢١٨٦١٥ ـ ٣ ـ ٩٦٧ فاكس ٢٢٢٣٢٨

الشركة السعودية للتوزيع
Saudi Distribution Co.



جزيرة ابن عمر في التاريخ والحضارة

جزيرة ابن عمر في أقصى جنوب شرق تركيا من الحواضر الإسلامية، وقد اكتسبت أهميتها من موقعها الجغرافي المتميز؛ لكونها حلقة وصل بين العراق والأناضول، ويقال إنها أنشئت على أيدي أولاد نوح عليه السلام، ومنذ دخولها في الإسلام انتعشت فيها الثقافة الإسلامية، حتى أصبحت مقصداً لطلاب العلم. فما أهم مدارسها، ومن أشهر علمائها، وكيف صار حالها اليوم؟

إدارة التحرير:
رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد
مدير التحرير: عبدالله يوسف الكويليت
المراسلات للتحرير والإدارة:
ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ ـ
المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ٤٦٥٢٢٥٥
ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١
الاشتراك السنوي:
١٥٠ ريال سعودي للأفراد، ٢٥٠ ريال سعودي للمؤسسات،
أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.
الإعلانات:
هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١
رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤/٠٥٤٢
ردمد ١١٤٠ ـ ٠٢٥٨

رسائل

ظاهرة طيبة

نورد فيما يأتي نص رسالة من الأستاذ الدكتور عباس بن صالح طاشكندي أستاذ المكتبات والمعلومات، وعميد شؤون المكتبات في جامعة الملك عبدالعزيز بجدة وأحد الأعلام البارزين على المستوى العربي في ميدان المكتبات وصناعة المعلومات.

أكتب لسعادتكم مشيدًا بما يتحقق لمجلة الفيصل من نقلة نوعية في مادتها الموضوعية وفي شكل إخراجها، فالملاحظ أن اتجاه المجلة ينمو نحو نشر الدراسات العلمية المنهجية، إذ تطغى الدراسات حاليًا على مواد المجلة بحيث تشكل نسبة كبيرة من موادها، وهذه ظاهرة طيبة تسمو بالأهداف الثقافية للمجلة نحو المنهجية والدراسات الرصينة، ومن ثم تنعكس على القارئ المثقف للمجلة إيجابًا في تكوينه العام.

بيد أنني ألاحظ في قائمة المحتويات اتجاهكم لتصنيف محتويات المجلة موضوعيًا حسب مواد كل عدد (رمضان، مكتبات، فكر إسلامي، صحافة، علوم...إلخ) فتدخل تحت كل موضوع مواده المختلفة. وكنت أتمنى لو أدخلت محتويات العدد بأوجهها الشكلية، كأن تكون الأوجه الشكلية على نحو الدراسات والأبحاث، والاستطلاعات، والمواد الإبداعية، كالشعر والقصص، والمقالات العامة، والتحقيقات، والمقابلات..إلخ. وهذا مجرد اجتهاد واقتراح ربما ترون خلافه، والرأي الأمثل لكم.

راجيًا أن تتقبلوا خالص تحياتي وتمنياتي بالتوفيق لكم ولأسرة المجلة.

عباس صالح طاشكندي

التحرير:

نعتز كثيرًا بأن يصدر هذا الرأي في المجلة من أستاذ قدير له مكانته العلمية المرموقة، وإسهامه الفني في ميدانه، مما يحملنا مسؤولية كبيرة للحفاظ على ما يراه هو وغيره من الإخوة القراء في المجلة من نقلة نوعية في مادتها وفي شكل إخراجها، وهذا ما يستدعي الاستنارة بآرائهم السديدة، وطلب المشاركة الفاعلة منهم بالمقالات والبحوث والاستطلاعات في رفع مستوى المجلة بما لهم من علم وخبرة في ميادين تخصصهم، ليتحقق بذلك تنوع المواد وتكاملها بما يحقق الفائدة للقراء على اختلاف اهتماماتهم.

ونشكر لكم ما أبديتموه من رأي في تصنيف محتويات المجلة، وسوف نسعى إلى بحث سبيل تطبيقه، علمًا بأن التصنيف الموضوعي قصدنا به ضمان تنوع مواد المجلة ولفت الانتباه إلى ذلك، ونكرر لكم الشكر والامتنان لاهتمامكم بمتابعة المجلة والحرص على تقويمها وإبداء الرأي فيما ينشر فيها.

حارثة بن النعمان
أم حارثة بن سراقة؟

يسعدني المشاركة في حل مسابقة «الفيصل»، واسمحوا لي بأن أبدي هذا التنويه والتصحيح للخطأ الذي ورد (دون قصد بالطبع) في هذه المسابقة التي تحمل الرقم ٢٩١ ومفاده أن المقصود ليس هو حارثة بن النعمان، ولكن المقصود هو حارثة بن سراقة، وفيما يلي الدليل على ذلك:

المصدر الأول: الطبقات الكبرى، الجزء الثاني ص١٧. شهد حارثة بن سراقة بدرا وقتله حبان بن العرقة الذي رماه بسهم وهو يشرب من الحوض، فأصاب حنجرته فمات. أمه الربيع بنت النضر التي أتت النبي عليه الصلاة والسلام فقالت: يا نبي الله تحدثني عن حارثة وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غرب. فإن كان في الجنة صبرت وأحسنت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أم حارثة، جنان في الجنة وان ابنك أصاب الفردوس الأعلى.

المصدر الثاني: الإصابة، الجزء الثاني ص١٩٩.

شهد بدرًا ثلاثة حارثة هم:

- حارثة بن سراقة: استشهد وكان أول قتيل في بدر من الأنصار.
- حارثة بن النعمان: شهد بدرا وعاش إلى خلافة معاوية.
- حارثة بن مالك بن ضب: شهد بدرا واستشهد في أحد.

المصدر الثالث: «غزوات الرسول» للشيخ محمد متولي الشعراوي: تحت عنوان «شهداء بدر» ص٤٧.

يقول النص: (واستشهد) من الأنصار ثمانية نفر: خمسة من الأوس: سعد بن خيثمة، ومبشر بن عبدالمنذر من بني عمرو بن عوف، ويزيد بن الحارث الذي يقال له: ابن فشحم من بني الحارث بن الخزرج، وعمير بن الحمام من بني سلمة، ورافع بن المعلى من بني جشم.

وثلاثة من الخزرج من بني النجار وهم: حارثة بن سراقة، وعوذ ومعوذ ابنا الحارثة بن رفاعة، وهما ابنا عفراء، رحمة الله على جميعهم ورضوانه.

ملاحظة: لم يذكر المرجع هنا اسم: حارثة بن النعمان، اللهم إلا إذا كان حارثة بن النعمان هو حارثة بن سراقة!! والله أعلم.

برجاء الرد وتزويدنا بالمعلومة الصحيحة مع جزيل الشكر والامتنان.

منى محمد أحمد شقير
٣٠ ش جعفر ـ الدور الثاني
حلوان الحمامات ـ القاهرة ـ مصر.

التحرير:

نشكر لك هذا التصحيح والمعلومات القيمة الواردة في رسالتك، ونفيد الإخوة القراء أنه قد حدث خطأ طباعي في السؤال المشار إليه، فقد جاء السؤال عن أول من استشهد من الأنصار يوم بدر، بينما كان المقصود من السؤال أول من أصيب من الأنصار يوم بدر. ولا يخفى على القراء الكرام أن الجواب الصحيح هو الحارثة بن النعمان، ولتجنب ما قد يحدثه مثل هذا الخطأ من تشويش للإخوة القرّاء فإنه تقرر إلغاء السؤال الخامس من المسابقة والاكتفاء بالأسئلة الأربعة الباقية. مع الاعتذار لقرائنا الأفاضل.

سمو وليس عنصرية!!

لقد جاء في العدد (٢٩١) في باب رسائلكم رسالة عنوانها «عنصرية» فاسمحوا لي أيها الأعزاء الكرام بالرد عليها.

أولا ـ أشك في أن الأخ الباعث بالرسالة من قراء المجلة الغراء.. فهو يأخذ بقشور الأشياء دون ألبابها.. فقد قال في رسالته «هذا دليل على عنصرية واحتقار وسخرية من الأفارقة»، أي دليل هذا الذي يؤكد صحة هذه الصفات. فهل سيتغير الموقف إذا لم تكن هذه المرأة سوداء؟! أليسوا جميعًا بشراً؟!! فكلمة عنصرية هي بعيدة كل البعد عن الحقيقة التي تظهرها الصورة التي تعبر عن المعاناة لتلك المناطق من ظروف بيئية، وليس فيها ما يوحي بالاحتقار والسخرية، أم أنه استوحى هذه العنصرية المزعومة من كون المرأة تحمل دلواً على رأسها؟! إن بعض البلدان العربية كاليمن مثلاً نجد في ريفها كثيراً من تلك الصور، من غير أن يدعو ذلك إلى الاحتقار أو السخرية، لأن الظروف القهرية هي التي تجبرهم على هذه الحالة. والاحتقار والسخرية لا يأتيان إلا ممن يحملون الضعف في داخلهم.

حقًا أنني آسفة جدًا للفكر الاستعماري وآثاره الذي مازال يطبع بصماته على إخواننا الأفارقة، وماذاقوه من ظلم الاستعماريين.

أيها الأخ الباعث بالرسالة لا تخلط الأشياء وتضعها في غير موضعها ـ وليس زعماً أن المجلة تعطي ثقافة إسلامية بل إنه في الواقع الذي نلمسه، والمكتسب من عقيدتنا السمحة وقيمنا الإنسانية العالية وإنني أشبه هذه المجلة بالشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء. وفي الأخير أذكر الأخ الباعث بتلك الرسالة بقول الله تعالى: *يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم*. **الحجرات**:١٢.

وشكراً للمجلة لاتساع صدرها لي وللجميع.

فايزة حسن باحسن
الحديدة ـ اليمن ـ ص.ب ٤٧٣٤

التحرير:

نشكر لك هذا الرد الوافي وما أبديتيه من اعتزاز بمجلتك، ونأمل أن نكون عند حسن ظن أمثالك من الإخوة القراء، ونؤكد لهم جميعًا ترحيبنا بأي رأي أو نقد بناء؛ لأن التطور المنشود لا يتحقق إلا بالحوار، وتبادل الآراء بروح أخوية سمحة.

دليل «الفيصل»

لا شك في أن مجلة الفيصل تحقق نجاحات متتابعة، وكما هو معلوم فإن الاحتفاظ بمستويات النجاح يعد الأكثر أهمية، وهو في الوقت نفسه أمر صعب فضلاً عن التقويم الموضوعي المستمر، والأخذ بالرأي الجيد الذي يقدمه كل قارئ حريص على مستوى مجلته. وحتى لا أطيل أنقل هذه الملاحظات لطفًا:

أولا: ونحن في عالم الإلكترونيات والبرمجة، أرجو إصدار دليل موضوعات الفيصل على أقراص دسكات حاسب، وأقراص ضوئية CD - ROM بشكل مطور وصيغة أفضل، ولكوني أتابع مجلة الفيصل وأحرص على اقتنائها منذ نحو أربع سنوات أقترح إصدار كل مجموعة من أعداد الفيصل كل سنة أو سنتين على أقراص ضوئية.

ثانيًا: آمل الاهتمام أكثر بالإنترنت وبث موضوعات المجلة من خلاله، ولا سيما الموضوعات الإسلامية وكل ما يهم المسلمين في هذا المجال.

أرجو أن ينال هذان الاقتراحان استحسانكم وقبول القراء.

رائد أحمد عبدالله الملكاوي
عمّان ص.ب ١٨٤٢٣٧ ـ الرمز البريدي ١١١١٨
المملكة الأردنية الهاشمية.

التحرير:

نشكر لك هذين الاقتراحين، وسوف ننظر فيهما بما يحقق الفائدة إن شاء الله ـ ونعمل الآن على أن يكون هناك موقع للمجلة على الإنترنت.

ردود سريعة

الإخوة الزبير مهداد ـ المغرب، وجدي الأهدل ـ الرياض، د. عبد الله عبدالرازق إبراهيم ـ القاهرة:

لقد تعذر إرسال مكافآتكم لعدم وجود عناوينكم الصحيحة، لذا نرجو منكم موافاتنا بعنوانكم كاملاً، كما نأمل أن يقوم الإخوة الذين لم تصل إليهم مكافآت عن مقالات أو أعمال إبداعية نشرت لهم أن يوافونا بعناوينهم الصحيحة؛ لأن هناك رسائل أعيدت لعدم صحة العنوان.

كما نأمل من الإخوة الكتّاب الذين يراسلون المجلة من خارج المملكة العربية السعودية كتابة أسمائهم بالحرف اللاتيني.

الأخ عبدالغفار إسحق (نيجيري) ـ جامعة دمشق ـ سورية:

نشكر لك إشادتك باهتمام المجلة بنشر استطلاعات مصورة عن مدن العالم، وإذ تحرص المجلة على التعريف بالمدن العربية والإسلامية، نأمل أن تستطيع موافاتنا باستطلاع مصور عن إحدى المدن النيجيرية المعروفة بطابعها العربي والإسلامي.

الأخ ابن عيسى مسعودة ـ القرارة (غرداية) ـ الجزائر:

تم حل مشكلة التوزيع في الجزائر، وفي كثير من البلدان العربية، ونأمل أن تستطيع المشاركة في المسابقة في المرات القادمة، متمنين لك حظًا سعيداً.

الأخ أنس محمد مرعي جراد ـ إدلب ـ سورية:

نرحب بك صديقًا للمجلة، وما أرسلته من مواد سيتم عرضه على الجهات المختصة لتحديد مدى صلاحيته للنشر، كما نرحب بقصصك ورواياتك وقصائدك ومقالاتك، وسوف تخضع للتقويم لتحديد إمكان نشرها. وعموماً عليك الاستمرار في القراءة العميقة والكتابة من أجل اكتساب مزيد من الخبرة وامتلاك ناصية التعبير، والتمنيات لك بمستقبل زاهر إن شاء الله.

حرائق الغابات
من الضرورة إلى الكارثة

أحمد إبراهيم البوق
الطائف - السعودية

كان عمود من الدخان يربط بين الأرض والسماء، في نهار صيف قائظ، حين هاتفني زميل على الجوّال أن حريقًا يلتهم غابات الدار الحمراء، بمنطقة بني سعد جنوب الطائف. تأبطت بعض الأوراق والخرائط، وحملت الكاميرا وجهاز تحديد المواقع، واصطحبت الرفاق، ويممت وجهي صوب النار، كان عمود الدخان يبدو أكثر وضوحًا واتساعًا كلما اقتربنا من الموقع الذي يبعد ٨٠ كيلاً عن مركز الأبحاث، من كانت النار دليله فليس في حاجة إلى دليل، وحين وصلنا إلى قمة سروية على حدود (جهنّم) أرضية كان صهريج ماء وحيد وعشرات من الإطفائيين يقاومون - عبثًا - ألسنة اللهب التي تلتف كالأفاعي على قمم أشجار العرعر والزيتون البري والطلح، تلك التي تسود في قمم السروات. استشطت غضبًا إذ رأيت النار تسير بسرعة أرنب فزع وعمليات الإطفاء تسير بسرعة سلحفاة هانئة، كان العشب الجاف والريح وبطء المقاومة طابوراً خامسًا عزّز قدرة النار لتقضم أربعة كيلو مترات مربعة من غابات السروات.

ولكن ما الذي حدث فيما بعد عندما اندلعت نيران أخرى في منطقة عسير والباحة وقضمت عشرات الكيلومترات، واستخدمت في مكافحتها الطائرات العامودية؟. لقد استمر بعضها أكثر من عشرة أيام، والتهمت في غضون خمسة أشهر من حرائق متناثرة نحو ١٠٠كم٢ من غابات السروات. فما الفرق إذًا أن تتسلح بالتقنية أو تتسلح بالصبر في مقاومة (السعير) ما لم يرحم الله الأشجار بغيمة عابرة؟! بعدها صرت أكثر حكمة وأنا أردد مقولة توماس بوكانان: «إن لم يحفظ الله المدينة فعبثًا يسهر الحراس».

تاريخ النار وحرائق الغابات على الأرض

في البدء كان البرق والبركان عاملين طبيعيين لإضرام النار في الغابات، وجاءت فترات الجفاف التي مرت على الأرض لتشكل ثالثة الأثافي في مثلث النار العجيب، وقد جاءت تقنية استخدام الكربون المشع في عام ١٩٥٠م لتؤكد بالدليل القاطع أن حرائق الغابات - على سبيل المثال - في أمريكا الجنوبية، وتحديداً في غابات الأراضي المنخفضة المدارية الاستوائية في فنزويلا، ترجع إلى قبل ٦٢٠٠ عام في الوقت الذي كان فيه الحضور



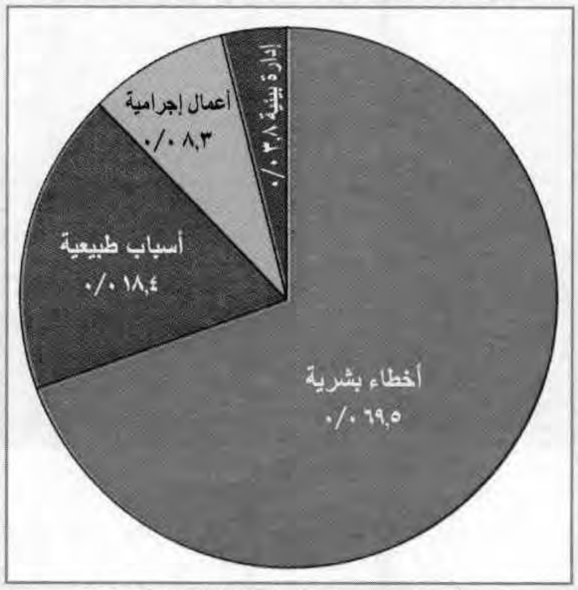
من حرائق الغابات في عسير

البشري في تلك المنطقة يرجع إلى قبل ٣٧٥٠ عاماً. وعندما خرج الإنسان من الكهوف وسيطر على النار حاول أن يحاكي الطبيعة فاستخدمها بدءاً في الصيد الجماعي ثم لتطهير الأرض واستصلاحها للزراعة قبل أن تنشأ الحضارة ويدوّن التاريخ. وقد دلت الدراسات على استخدام السكان الأصليين في أستراليا Aboriginal النار لتلك الأغراض. فقد تدفق الإنسان الأول على القارة الأسترالية قبل ٤٠ ألف سنة؛ وذلك قبل أن تُسكن أمريكا الشمالية والجنوبية، وقد جاء من جنوب شرق آسيا. في ذلك التاريخ السحيق كان العصر الجليدي الثاني ما قبل الأخير مسيطراً على مناخ الأرض، وكان منسوب الثلوج في القطبين ضخماً بسبب البرودة، ومستوى مياه المحيط أخفض من وضعها الحالي بـ ١٢٠ - ١٨٠ متراً مما مكن العبور للقارة، واستمر تدفق البشر المهاجرين الأوائل إلى أستراليا إلى قبل عشرة آلاف عام عندما كان العصر الجليدي الأخير في نهايته، ودخلت الأرض بعدها في الفترة الدافئة المستمرة حتى الوقت الحاضر. ونتيجة لارتفاع درجات الحرارة ذاب معظم الثلج في القطبين، وارتفع منسوب ماء البحر إلى وضعه الحالي. ولكن هذه الحرارة كانت عاملاً معززاً للجفاف في مناطق الغابات وانخفاض معدلات الرطوبة مما جعلها أرضا بكراً لأن تحبل بالنار وترمي بشرر كالقصر في مشهد لجهنم الأرض. وقد دلت دراسات مماثلة على الهنود الحمر في أمريكا الشمالية الذين استوطنوا الأرض الجديدة قبل اثني عشر ألف عام - على استخدامهم النار لمطاردة قطعان ثيران البيسون، الثور الأمريكي في البراري

الأمريكية، واستخدامها لاستصلاح الأرض للزراعة، وعندما اكتشف كرستوفر كولومبس القارة الجديدة وتدفق من بعده البرابرة البيض من غرب أوربا إليها كان فيها ما بين ٩٠ - ١١٢ مليوناً من الهنود الحمر - قبل أن يباد معظمهم بالأسلحة الحديثة، وينصهر من بقي منهم في محرقة المجتمع الحديث - ورث الأمريكي الحديث أسلوب استخدام النار لاستصلاح الأرض عن الهنود الحمر. والتاريخ القديم للقارة الأسترالية والأمريكيتين يعني أن إفريقية وآسيا كانتا المعلّم الأول لخطيئة الإنسان تجاه الأرض بإشعال الغابات. فقد قدّرت الدراسات حرائق الأحراج في العالم بخمسة آلاف حريق في السنة أوائل القرن التاسع عشر. وكانت روسيا الأوربية - على سبيل المثال - مغطاة بالغابات بنسبة ٥٣٪ من مساحة أراضيها في عام ١٧٢٥م وبنسبة ٤٥٪ في عام ١٧٩٦م وبنسبة ٣٥٪ في عام ١٩١٤م. وربما لا يوجد حالياً في أوربا أي أرض مشجرة بكر على الإطلاق. وفي الولايات المتحدة الأمريكية تكفي الإشارة إلى أنه في عام ١٧٩٠م كان يغطي الجنوب الشرقي منها ٩٢ مليون فدان من غابات الصنوبر تبقّى منها ٣ ملايين فقط تدار حالياً بالحرائق. بينما مازالت الغابات الاستوائية الناضجة في العالم موجودة وتغطي نحو ٩٠٠ مليون هكتار - الإحصائية في السبعينيات - من أصل ٥ر١ - ٦ر١ مليار هكتار كانت قائمة ذات يوم. إذ يتم القضاء كل عام على ٦ر٧ - ١٠ ملايين هكتار، ويسود الاضطراب مالا يقل عن ١٠ ملايين هكتار أخرى بشكل صارخ. وفي الوقت الذي تغطي فيه الغابات الرطبة الاستوائية نحو ٥٪ من سطح الكرة اليابس مقابلة بـ ١٢٪ قبل قرن يقطع كل سنة أو يحرق منها ما يفوق مساحة إنجلترا أو ١٥٠ ألف كم٢، فإنها تعول ما لا يقل عن نصف أنواع الأرض التي يبلغ مجموعها خمسة ملايين نوع في الحد الأدنى، ولكنه يمكن أن يبلغ ٣٠ مليون نوع، ويمكن أن تحوي هذه الغابات ٩٠٪ من كل الأنواع أو ما يزيد، وهي تمثل رئة الأرض التي بدأت بالضمور.

أسباب اشتعال النار في الغابات

إذا كانت الأسباب الطبيعية كالبروق والصواعق والبراكين قد رافقت الغابات منذ الأزل، فإن الجفاف وارتفاع درجات الحرارة الطارئة على مناخ الأرض جعلا من الصيف كابوساً على الغابات، فقد اندلعت المئات منها خلال صيف عام ٢٠٠٠م في غرب الولايات المتحدة الأمريكية، وفي إسبانيا واليونان، وأنحاء متفرقة من أوربا وأستراليا، ويقاوم آلاف من رجال الإطفاء تلك النار الأسطورية، كمن يحاول أن يوقف الطوفان بكومة رمل.



نسب أسباب حرائق الغابات في منطقة عسير (١٤٢٠هـ)
ملاحظة: تتوافر معلومات ثلاثة أشهر فقط من عام ١٤٢٠هـ

وقد تسببت البروق في كندا - على سبيل المثال في عام ١٩٩٨م - بنسبة ٤٢٪ من ٩٥٠٠ حريق اندلعت في الغابات في ذلك العام، وقدّرت دراسة محلية أجرتها الهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية وإنمائها في المملكة العربية السعودية - في منطقة عسير - جنوب غرب المملكة تسبب البروق في ٥ر١٨٪ من حرائق الغابات خلال العقد الأخير من مجمل ٧٩ حريقاً سجلت في تلك السنوات.

ولكن الإنسان هو الشرارة القابلة للاشتعال في كل زمان منذ أن دَبَّ على سطح الأرض، وهو المتسبب في معظم حرائق الغابات منذ محاكاته للطبيعة حتى



الطائرات من أهم آليات مكافحة حرائق الغابات

أصبح وجوده من أخمص أقدام الجبال إلى أعلى هاماتها أمراً لا مفر منه. فقد قُدّر عدد سكان الأرض عام ١٨٠٠م بنحو ٩٥٧ مليون نسمة، بينما احتفلت الأمم المتحدة قبل أشهر ببلوغ عدد سكان الأرض ستة مليارات نسمة. أي أنه خلال قرنين تضاعف عدد السكان أكثر من ست مرات. ومنذ التاريخ القديم للاستيطان البشري والإنسان سبب في الكوارث البيئية، فقد انقرض قبل ١٢ ألف سنة إلى ١٠ آلاف سنة نحو مئتي جنس من العواشب الثديية التي يبلغ وزن كبارها خمسين كيلو جراماً أو يزيد، وتعرف بعبارة Megafauna، وسجلت أغلبها في أمريكا الشمالية حيث اختفى ثلثا الثديات الكبيرة من سجل الحفريات. وحديثاً يتسبب الإنسان في ٥٨٪ من حرائق الغابات الكندية بسبب أخطاء بشرية يمكن تلافيها، وبسبب الإهمال وعدم المبالاة، وهي نسبة مرتفعة في مجتمع صناعي على درجة عالية من التعليم والوعي، موازنة بـ ٦٩٫٥٪ في منطقة عسير جنوب غرب المملكة العربية. والأخطاء غير المقصودة سبب في جزء من حرائق الغابات التي وراءها الإنسان، إضافة إلى تلك التي يتم إشعالها عمداً لأسباب جنائية ولأغراض الإدارة البيئية، أو بسبب التمديدات الكهربائية وسط الغابات، أو لأي أسباب بشرية أخرى.

أضرار وفوائد

ولكن هل كل حرائق الغابات لا تبقي ولا تذر، أم أن بعضها برد وسلام على الأشجار؟

خلال العقدين المنصرمين تم الالتفات إلى استخدام النار في الإدارة البيئية وتحديداً في الولايات المتحدة



الحرائق تؤدي إلى انقراض أنواع كثيرة من الحيوانات والنباتات

الأمريكية وكندا كأسلوب (ناري) لإدارة بعض المتنزهات الطبيعية، وهو أسلوب متوارث من السكان الأصليين من الهنود الحمر عندما استخدموا النار لتسيير قطعان الأيائل وثيران البيسون، والحفاظ على الأراضي العشبية، ومنذ السبعينيات أصبحت النار أسلوباً إدارياً ساخناً، وهناك نحو مليون ميل مربّع من السهول الأمريكية الشمالية ذات الأعشاب الطويلة تحرق إما بواسطة السكان المحليين وإما بواسطة البرق، بينما يعمد حالياً هنود الأباتشي في محميتهم في نيومكسيكو - التي مساحتها ١٠ آلاف فدان - للحرق كل سنة، وذلك لصيانتها، وتقدر أكثر من ٧٠٪ من الحرائق الموصوفة Prescribed Fires لإدارة الأراضي في الولايات المتحدة الجنوبية الشرقية، وفي فلوريدا وحدها يوجد ٨٥٠ ألف فدان من الغابات ونحو ٢ر١ مليون فدان من أراض عشبية تم إحراقها في عام ١٩٩٥م ضمن خطط الإدارة البيئية. وفي كندا أحرقت في عام ١٩٩٨م ١٦٠٠٠ هكتار من غابات المتنزهات الوطنية لإدارتها بيئياً. الحرائق الصحية للغابات هي تلك التي تمر سريعاً ولا تصل إلى قمم الأشجار، وتستطيع الغابة في أغلب الأحيان السيطرة عليها بشكل طبيعي إما بالأمطار، وإما بارتفاع معدل الرطوبة وإما بانتهاء الأعشاب الجافة.



الحرائق الصحيحة للغابات هي التي لا تصل إلى قمم الأشجار



الحرائق تؤدي إلى موت الأشجار المعمرة

المؤيدون لهذا الأسلوب يعتقدون أن للنار منافع في تطهير أرض الغابة من الأوراق والأغصان الميتة وإتاحة الفرصة لنباتات حديثة للنمو، وكذلك اكتشاف اعتماد بعض الأشجار مثل البوندروزا والصنوبر على النار لتفتيح مخاريطها لإطلاق البذور التي تحتاج إلى ١٢٠ درجة مئوية لكي تتفتح، وتهيئة أرض الغابة لنموها. وأكبر عقبة تعترض هذا الأسلوب في الإدارة البيئية هو صعوبة السيطرة على النار. وهناك تجربة مريرة في عام ١٩٨٩م في محمية يلوستون بالولايات المتحدة الأمريكية حيث أتت النيران على ممتلكات قُدرت بـ ١٢٠ مليون دولار. وأدّت حرائق جبال روكي الهائلة في الوسط الأمريكي في عام ١٩١٠م إلى قتل ٧٩ من رجال الإطفاء.

إذا كان للنار في الغابات كل تلك المنافع فما أضرارها؟

إنها تؤدي إلى موت الأشجار المعمرة، وجرف التربة بعد هطول الأمطار وتعريتها، وتلويث الهواء بالأدخنة، وتعريض المزارع والمنازل القريبة من الغابات لمخاطر الاحتراق، ففي عام ١٩٩٧م ضرب الجزر الأندونيسية حريق غابات ضخم، وتحديداً في جزيرة كلمنتان وسومطرة وأريان جايا، وأرجعت أسبابه إلى زيادة عدد السكان، وتغير طبيعة استخدام الأرض، وسوء الأحوال الجوية. وقد تكررت الحرائق الكبيرة في الجزر الأندونيسية بين عامي ١٩٨٢ و١٩٩٨م تسع مرات خلال تسع سنوات منفصلة. ففي عامي ١٩٨٢ و ١٩٨٣م أتت النيران على ٣ر٦ ملايين هكتار من أراضي الشجيرات

والغابات في كلمنتان أدت إلى انقراض بعض أنواع النباتات والحيوانات البرية المحلية، وخسائر في اقتصاد الغابات قدرت بـ ٩ بلايين دولار. وأثرت حرائق عام ١٩٩٧م في ٥ ملايين هكتار، وأدت الأدخنة التي غطت أجواء جنوب شرق آسيا إلى التأثير في صحة ٧٠ مليون إنسان، وقُدرت الخسائر في ميزانيات أندونيسيا وماليزيا وسنغافورة بـ ٤٫٤ مليارات دولار، وتضررت بكثرة المحميات الطبيعية والحدائق الوطنية والتنوع الحيوي فيها. وقد أدت حرائق عام ١٩٩٧م إلى تدمير ١٧ من محميات أندونيسيا الطبيعية ومتنزهاتها الوطنية، واستمرت النار قرابة شهرين. بينما تسجل حرائق لآلاف الكيلومترات من غابات الأمازون في أمريكا الجنوبية



استخدام أنظمة حاسوبية متطورة ضرورة لتقليل حجم خسائر حرائق الغابات

كل عام. وفي البرازيل غالبًا ما يتسرب الحريق من المزارع المجاورة للغابات خلال موسم الجفاف؛ إذ تضعف قدرة الغابات على مقاومة الحرائق. ففي مطلع عام ١٩٨٨م احترق ١٠٠٠كم٢ من غابات الأمازون، بينما أدى حريق روريما Roraima في عامي ١٩٩٧ و ١٩٩٨م إلى إحراق ٣٣ ألف كم٢ من الغابات الاستوائية المطيرة، ويعدّ ذلك خسارة عالمية ضخمة للتنوع الحيوي لم يقدر حجم كلفته بعد.

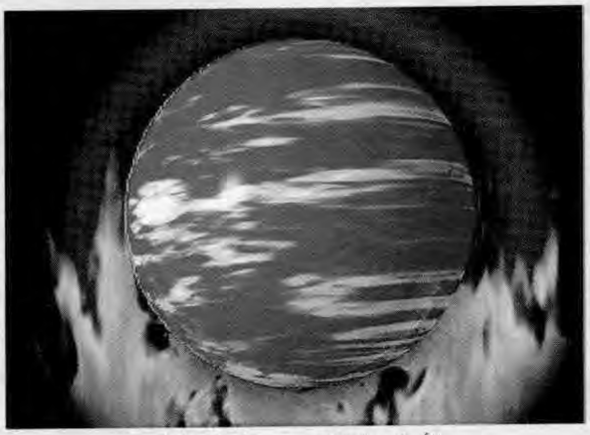
وتُقدّر سرعة انتشار النار في بعض حرائق الأمازون بين ١٠٠ و١٥٠م في اليوم. ويمكن أن تستمر أيامًا أو أشهرًا اعتمادًا على سرعة الرياح، وتوافر حطام الأشجار وكمية الدُبال، بينما تأتي حرائق الغابات على نحو ٢٠٠٠كم٢ في كندا التي يُقدر حجم غاباتها بـ ٤٥٣٫٠٠٠كم٢.

ما الحل؟

إذا كانت حرائق الغابات في العالم قد تحولت من ضرورة إلى كارثة فما الحل، وكيف تتم مقاومتها؟

توخّي النار أفضل من مقاومتها، هكذا تنص القاعدة الذهبية؛ لأن الوقاية خير من العلاج. فقد تم تطوير تقنيات حديثة في الدول التي تتعرض لخطر حرائق الغابات، ووضع على أساسها إستراتيجيات وطنية استخدمت فيها المعطيات الضرورية كافة، مثل صور الأقمار الاصطناعية، واستخدام أنظمة حاسوبية مطورة تدمج فيها بيانات عن موقع الغابات في كل منطقة، والطرق الرئيسة والفرعية المحيطة بها أو المؤدية إليها، ومواقع جلب الماء، ومعدّل هطول الأمطار في تلك المناطق ودورات هطولها، ومعدل الماء في التربة والتبخر، إضافة إلى تسجيل الحرائق السابقة، واستخدام أجهزة تحديد مواقع البرق، وربطها بخدمة الاستشعار عن بعد بالأقمار الاصطناعية ويتم - بناء على كل تلك المعطيات - توقع حاسوبي لحدوث الحرائق مستقبلاً، واستناداً لهذه البيانات يتم توزيع جهود الحماية مسبقًا. ففي البرازيل مثلاً قُدرت المناطق المعرضة للحريق بـ ٢٠٠ ألف كم٢، وهي نسبة تعادل ١٠٪ من غابات الأمازون توزّع عليها جهود المكافحة للحد من هدر الطاقات. ويستعان كذلك في كندا بالخطط الإستراتيجية المسبقة لمكافحة حرائق الغابات، وتقدير حجم الخسائر ماديًا من أجل الصرف على هذه الخطط لأن واحدًا من كل ١٧

كنديًا يعملون في مصانع مرتبطة بالغابات في صناعاتها، ويُقدّر دخلها السنوي بـ ٨ بلايين دولار. ولأن الإنسان وجهله أو إهماله أو الأخطاء غير المقصودة سبب أول في حرائق الغابات لذلك فإن برامج خاصة للتوعية يتم تصميمها وبثها عبر مختلف وسائط الإعلام، إضافة إلى رفع درجة الاستعداد لدى الأهالي المحيطين بالغابات خلال الصيف، وذلك بتقديم النصح بإزالة المواد القابلة للاشتعال من أسطح المنازل وخزن الماء بكمية تصل إلى ٢٥٠٠ جالون لكل منزل لاستخدام الطوارئ؛ وذلك في المنازل حول الغابات في الولايات المتحدة الأمريكية، وتوضيح اللوحات الدالة على مواقع الغابات وتجديدها إن لزم الأمر واستخدام حزام العزل من النار Fire belt Preparation، وفي هذه الطريقة تتم إزالة الأعشاب الجافة دوريًا من محيط المنازل والطرق القريبة من الغابات. وتعد هذه الطريقة من أكثر الطرائق فاعلية لاتقاء حرائق الغابات في المنازل والمزارع، وتستخدم هذه الطريقة في جنوب إفريقية وكندا والولايات المتحدة الأمريكية. ففي جنوب إفريقية يُعمل حزام عرضه ٢٠م بين الغابات والمزارع المحيطة بها، وفي بعض المواقع أكثر أو أقل من ذلك اعتمادًا على طبغرافية المنطقة، ويزال محيط ٥م من الأعشاب الجافة حول طرق الغابات لحمايتها وحزام ٨م كل جانب على الطرق السريعة المارة بالغابات. وفي الولايات المتحدة الأمريكية يزال ١٠ أمتار من الأعشاب الجافة المحيطة بالمنازل القريبة من الغابة لحمايتها من الحرائق، كما يتم تطويق الحرائق وعزلها عن المناطق المحيطة لضمان عدم انتشار النار وحصرها. ويعدّ الاهتمام بنظافة الغابات ضروريًا لتفادي أخطار الحرائق؛ إذ تؤدي النفايات الزجاجية دورًا في تركيز أشعة الشمس وإشعال النار في العشب الجاف، لذلك تحظر معظم الدول استخدام الغابات كمرامي نفايات، وتضع عقوبات صارمة لذلك. وتعمد بعض الدول، مثل كندا إنشاء شبكة من أبراج المراقبة داخل الغابات للمساهمة في تحديد موقع النار إن حدثت، والمساهمة في عمليات الإطفاء. كما أن إعادة تأهيل المنطقة المحروقة بالأنواع النباتية نفسها مسألة مهمة في المكافحة؛ إذ من المعروف تردد النار في المنطقة المحروقة نفسها بشكل أكبر؛ وذلك لتعرضها للدمار وانخفاض رطوبة التربة. ويساعد إنشاء مشاتل للنباتات المحلية وإعادة استزراعها في المناطق المحروقة على الحد من تكرار الحرائق في المنطقة نفسها وسرعة معالجة المشكلات الناجمة عن الحريق.



الأرض وارتفاع مستمر في الحرارة



من طرائق مكافحة الحرائق تأهيل المناطق المحروقة بالأنواع النباتية نفسها

وفي حال اشتعال الحرائق تستخدم جملة من الآليات والتقنيات للسيطرة عليها، مثل استخدام طائرات الهيلوكبتر العامودية. ففي كندا أُسست وحدة جوية لمكافحة حرائق الغابات منذ عام ١٩٢٤م بواسطة ١٣ طائرة. وفي جنوب إفريقية هناك جمعية



انحسار الغابات من أخطر المشكلات البيئية في العالم

حرائق الغابات Forest Fire Association (FFA) مهمتها التحكم الجوي في الحرائق، ولها مركز رئيس لخدمة كامل البلاد، ولها فروع في المناطق. كما تستخدم أكياس بلاستيكية لحمل الماء بالطائرات العمودية تفتح فوق المناطق المحترقة للمساهمة في عمليات الإطفاء إضافة إلى استخدام كور بلاستيكية تنفجر في موقع الحريق وتقلل نسبة الأوكسجين مما يساهم في إطفاء النار. وفي كندا تستخدم مضخات متنقلة على الظهر يخلط فيها الماء بمواد كيماوية تزيد من فعالية مقاومته للنار. وتستخدم أجهزة ماسحة بالأشعة فوق الحمراء كمؤشر لوجود النار تحت الأرض إذ عادة ما تستعيد النار حيويتها بعد الإطفاء بيوم أو يومين أو بضعة أيام، ويرجع ذلك إلى عدم القضاء عليها نهائياً. ويساهم هذا الجهاز في اكتشاف المواقع التي تحتاج إلى مزيد من الإطفاء. كما أن تطوير أجهزة الاتصال اللاسلكي وفحص المعدات الدوري ضروريان لرفع كفاءة عمليات الإطفاء. ويعد ربط مكافحة حرائق الغابات بإدارتها وسيلة أكفأ للمقاومة؛ وذلك باستخدام الإدارة الشاملة. ففي الولايات المتحدة الأمريكية ترتبط إدارة الغابات بمكافحة الحرائق مثل:

California Department Of Forestry and Fire Protection (CDF)، ولأن حرائق الغابات مشكلة وطنية طارئة فإن الاستعانة بالقطاعات الأخرى في الدولة كالجيش والحرس الوطني حتى المتطوعين من الأهالي والطلاب الراغبين في العمل الصيفي قضية محسومة في معظم الدول التي تعاني من هذه المشكلة التي تهدد الحياة والتنوع الحيوي على الأرض.

ومن المهم الإشارة إلى أن حرائق الغابات في اليونان خلال صيف عام ٢٠٠٠م كافحها أكثر من ٣٠٠٠ رجل إطفاء، والولايات المتحدة الأمريكية تتكلف مليار دولار سنوياً لمكافحة حرائق الغابات فيها. بقي أن نقول: إن «ذئب النار الأصفر» الذي يلتهم خضرة الأشجار يحتاج إلى مزيد من الفهم بالأبحاث الميدانية ومزيد من الوقاية بالمعرفة والوعي أكثر مما يتطلب نصب كمائن مائية لاصطياده.

المراجع

-Cochrane,m. 1998. Forest Fires in the Brazilian amazon. Conservation Biology, Volume12, No5.

- Nepstad, D. moreira, A. Verissima, A. Lefebvre,P
Schlesinger, P.Potter, C. Nobre, C. setzer, A. Krug, T.
Barros, A. Alencar, A. Pereira, J. 1998. Forest Fire Prediction and prevention in the Brazilian Amazon. Conservation Biology Volume5.

- Kinnaird, M. and o, Brien, T. 1998. Ecoloyical effects of wildfier on Lowland Rainforest in sumatra. Conservation Biology, Volume12, No5.
Hammond, D. and streege, H. 1998. Propensity for fire in Guianan - Rainforests. Conservation Biology, Volume12, No5.

- Parfit, M. 1996. The essentail element of fire. National Geographic, vol 190, - No3. Photogra PHS by: Gehman, R. Page 116 -139.
نشر هذا المقال مترجماً إلى اللغة العربية في مجلة الثقافة العالمية الصادرة في الكويت، العدد ٨٤ ـ سبتمبر / أكتوبر ١٩٩٧م. ترجمة أحمد علي فقيه دون الإشارة إلى المصدر الرئيس للموضوع.

-C.de Ronde Forest Fire Prevention and control and the use of Prescribed Burning, South Africa.

- CBC News online - Indepth, Fiyhting Fires 1999.

ـ حرائق الغابات في المملكة العربية السعودية، إعداد: أحمد إبراهيم البوق. المشاركون: أ. عبدالرحمن خوجه، أ. قتيبة السعدون، أ. طارق العباسي، د. أحمدالفرحان، د. يوجين جوبير، إشراف: أ.د. عبدالعزيز حامد أبو زنادة. أغسطس ١٩٩٩م، الهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية وإنمائها، الرياض.

ـ ملف صحفي عن حرائق الغابات في المملكة، ربيع الأول ١٤٢٠هـ، إدارة العلاقات العامة، الهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية وإنمائها، الرياض.

ـ مستقبلنا المشترك: إعداد اللجنة العالمية للبيئة والتنمية، ترجمة: محمد كامل عارف، مراجعة: د. علي حسين حجاج، ١٩٨٩م، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٤٢، الكويت.

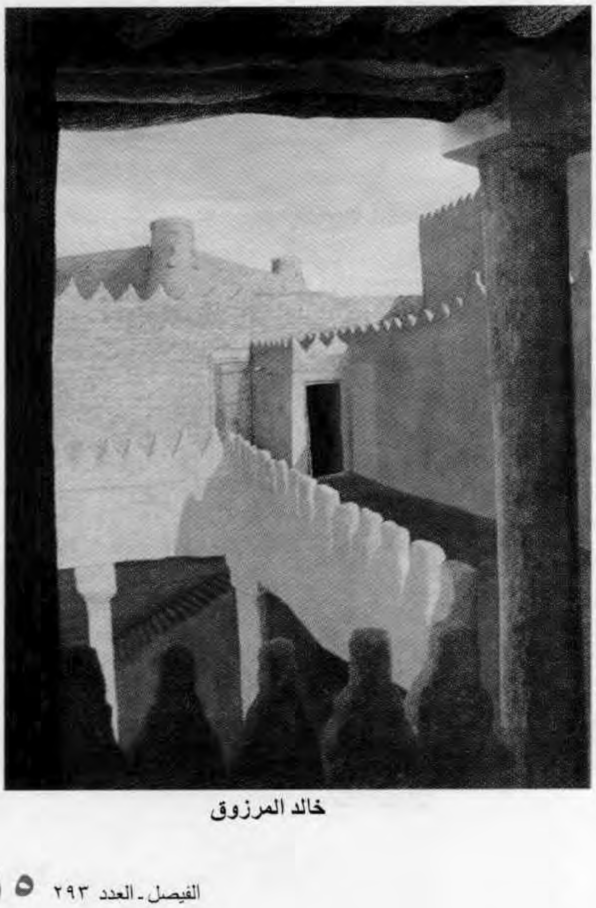
ـ البيئة والإنسان عبر العصور: تأليف: إيان..ج ـ سيمونز. ترجمة: السيد محمد عثمان. ١٩٩٧م، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٢٢، الكويت.

في بيت الفنانين التشكيليين السعوديين

تجارب فنية مهمة تبحث عن التفرد

محمود شاهين
دمشق - سورية

شهد عام ٢٠٠٠م لقاءين موسعين بين الجمهور السوري والفن التشكيلي السعودي المعاصر. الأول في يوليو من خلال معرض لتسعة عشر فنانًا وفنانة من محافظة القطيف بالمنطقة الشرقية شهدته صالة المركز الثقافي العربي بدمشق، والثاني شهدته الصالة نفسها في سبتمبر لأربعة عشر فنانًا وفنانة من بيت الفنانين التشكيليين السعوديين في مدينة جدة. وقبل ذلك، تسنى لي الاطلاع، على أعمال أربعة فنانين ينتمون إلى التجمع نفسه مما وفر لي فرصة نادرة، لرسم صورة شاملة، لشريحة مهمة ونشيطة من الفن التشكيلي السعودي المعاصر.



خالد المرزوق

بادئ ذي بدء لابد من تثمين مثل هذه اللقاءات الموسّعة بين هذه الشرائح من التشكيل السعودي الحديث والجمهور والفنانين والنقاد في سورية. لقاءات نرجو أن تتكرر بين بلدينا الشقيقين، وبين الدول العربية كافة. فنحن أحوج ما نكون في هذا العصر القلق، المتحوّل، عصر التجمعات الكبيرة، إلى مد الجسور، وعلى جميع الأصعدة، فيما بيننا، والفن التشكيلي، مفصلة حضارية مهمة من مفاصل اللقاء والحوار والكينونة، ثم هو وسيلة لتبادل الهواجس والآمال

والأحلام والقيم الجمالية والمعرفية الراقية والمؤثرة.

الفن التشكيلي السعودي المعاصر، وعبر متابعتي له، بأكثر من وسيلة، يعيش اليوم حالة واضحة من النهوض والتطور والانتشار، وما حملته لنا المعارض الفنية السعودية التي زارت دمشق وعدداً من المحافظات السورية الأخرى، مثال بيّن على هذه الحالة، فهو فن يتحرك في أكثر من أسلوب وصيغة فنيّة، ويتناول موضوعات كثيرة تمد جسراً إلى البيئة، وجسراً آخر إلى العصر، بتحولاته وإضافاته الدائمة.

تجارب مهمة

تستقطب التجارب التشكيلية السعودية جميع الاتجاهات السائدة في الفن العالمي المعاصر، أما الموضوعات التي تناولتها هذه التجارب، فقد تجلت فيها البيئة بشكل واضح، سواء بشكلها المباشر؛ «طبيعة، عمارة، ناس، تراث»، أم عبر جملة من الرموز والإسقاطات الذاتية في دلالاتها القريبة، والاجتماعية في أبعادها وأهدافها.

هذا التوحد مع البيئة في نتاجات التشكيليين السعوديين، يأتي عفو الخاطر، بلا تكلف، مما يؤكد صدق العلاقة القائمة بين الفنان وأدوات تعبيره، ثم بينه وبين المحيط حوله، الذي استقى منه موضوعاته وأعاد صياغتها برؤية ذاتية، من خلال صيغ وأساليب فنية متلونة، تمحورت حول الواقعية الممزوجة برؤى الفنان وتأليفه البصري المدهش!!.

واقعيّة بلا حدود

في طليعة الواقعيين من فناني بيت التشكيليين السعوديين يأتي الفنان هشام بنجابي الذي يرصد في لوحاته، جماليات الحصان العربي الأصيل ولا سيما وجهه بصيغة واقعية رصينة، تدل على تمكنه الواضح من أدوات تعبيره وقدرته المدهشة على تصيد حالات ووضعيات شديدة التعبير، في حركة وجه الحصان، مما يؤكد تفاعله مع موضوعه، وصدقه في تناوله. وقد جاءت الخلفية المؤلفة من توريقات خشبية نافرة، لتغني جو اللوحة تشكيلاً وتعبيراً. فهي تبرز وتؤكد وجه الحصان، وتعمق المدلولات والرموز التي أرادها الفنان من تناوله لهذا الموضوع.

في أعمال الفنان بنجابي معلميّة واضحة، تُعيد إلى أذهاننا أسلوبية الفنانين الكبار في تاريخ الفن، وهذه المعلميّة ستبقى تشدّ الناس إليها وتدهشهم، على الرغم من التحولات الكبيرة التي طالت ضروب الفن التشكيلي المختلفة، وأبعدت غالبية تجاربه عن هذه الصيغة التقليدية!!

أما مع الفنان عبدالله نواوي فتتبسط



هشام بنجابي

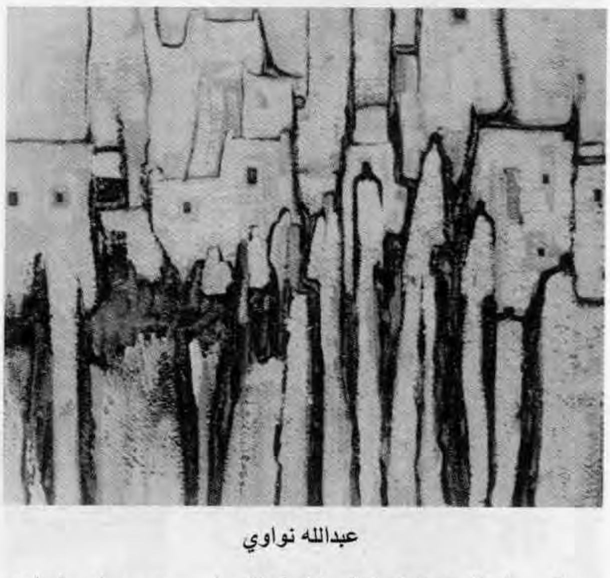
الواقعيّة وتُختزل لتتحول إلى مساحات لونية رهيفة، تحيطها خطوط عريضة صلبة، مستقيمة ومنحنية، مما يخلق حالة من الحوار العالي النبرة، بين اللون الحار والبارد، وبين الخط المستقيم والمنحني. كما أن الدوائر والدوامات التي يُكثر منها في لوحاته، تُرسخ حالة الصخب والحركة القوية في تكوينات هذه اللوحات المتأرجحة بين التجريد والتشخيص. أو بتعبير آخر: بين احتواء الواقع وإعادة ترتيبه بشكل جديد، وفق حالة تعبيرية تتلبس الفنان، فيحاول رميها فوق بياض اللوحة، بلغة فنيّة معاصرة. في المنحنى نفسه، تذهب أعمال الفنان سعيد العلاوي، ولكن بأكثر من صيغة، فالواقعية لديه، تُختزل إلى مساحات لونيّة عفوية فيها الكثير من الانفعالية والتلقائية، يزاوجها بتطاريز هندسية، يوشي بها عناصر اللوحة وأرضيتها، أو يقوم بتبسيط هذه العناصر لتتحول إلى مساحات ورموز وزخارف يجمعها تكوين متماسك ومدروس، عالجه الفنان العلاوي بروحيّة فن الملصق و خصائصه.

هذه التعدديّة الأسلوبيّة في أعمال الفنان سعيد العلاوي دليل على حيويّة تجربته التي تسعى جاهدة إلى المواءمة بين المعطيات التراثية المحلية ومفرداتها، والصيغ الأسلوبية المعاصرة القائمة على الاختزال والتلخيص لوناً وخطاً وعناصر. أما الفنان سعيد قمحاوي فيبدو متردداً بين صياغتين متباينتين هما: «التجريدية» و«السوريالية». في الصياغة الأولى، يأخذ حريته الكاملة في التعبير بالشكل والطريقة اللذين يريد، معتمداً على أقل ما يمكن من الألوان والعناصر. أما في الصيغة الثانية، فيجهد نفسه في تجميع عناصر لوحته ومعالجتها، بصيغة واقعية مشحونة بالخيال والرموز والدلالات، وهي عناصر مأخوذة من البيئة السعودية حوله، ولصيقة بهموم إنسانها وآماله وأحلامه!!.

لقد اختزلت هذه اللوحات، إمكانات الفنان قمحاوي الفنية والتوليفية وقدراته المتفوقة في معالجة الشكل الواقعي، مما يُشير إلى أن تجربته التجريدية ليست سوى محطة استراحة، أو محاولة لإعلان انتمائه إلى ما تموج



مها العثيمين

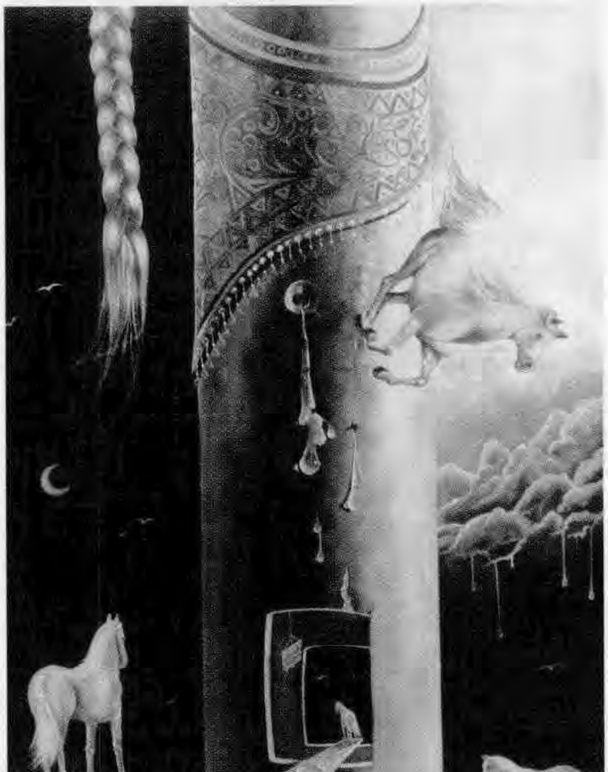


عبدالله نواوي

به الحياة التشكيلية العالمية المعاصرة من اتجاهات ومدارس.

الفنان خالد المرزوق، الواقعي المتمكن، لا يتردد في لوحاته عن إعلان انحيازه الملهوف إلى الحياة الشعبية: عمارةً ورموزاً. فهو عاشق مدنف لهذا العالم الحنون،

الطيب، الرافل بجماليات الحياة العربية الأصيلة، قبل أن تعطبها حضارة الإسمنت والبلاستيك الباردة، وتخربها التقنية (التكنولوجيا)، مسدلة الستار أو تكاد، على عالم بسيط، حنون، وتلقائي، كثيراً ما كان الفضاء الأجمل والأرحب، لانطلاقة الروح، والندى الذي احتضن القلب، ورطّب الإحساس. فالفنان المرزوق لا يُجهد نفسه كثيراً في البحث عن موضوعات لوحاته، بل يلتفت إلى ما تبقى من مفردات الحياة الشعبية العربية السعودية ورموزها التي أدار لها الإنسان والزمان ظهريهما، مستنهضاً فيها الجمال الدافئ الحنون. ولكي لا يُعطب هذا الجمال التلقائي، يتناوله بحساسية مماثلة، وبلغة فنيّة تسجيلية عالية التوافق والانسجام، تصل بسهولة إلى عين المتلقي وقلبه.



سعيد القمحاوي

جماليات لا تشيخ

الفنان محمد العبلان تقدمه لوحاته وهو مأخوذ إلى اتجاهين: الأول واقعي انطباعي، يرصد من خلاله جماليات الطبيعة البكر، والبيوت الطينيّة الوادعة الغافية في أحضانها، والثاني واقعي مختزل، يربط فيه بين الإنسان وعناصر واقعية، بكثير من التلخيص والثراء اللوني، لكن دون أن يتخلى كلياً عن التشخيص.

و يركز الفنان محمد حيدر في لوحاته في جماليات المنظر الطبيعي الخلوي الذي يعالجه بصيغة واقعية انطباعية، ولمسة ريشة دسمة الألوان، تتوضع بقعها في اللوحة، بكثير من الغنى والتنوع والحضور البهي. فالفنان لا يُلح كثيراً على تذويبها وتلاشيها، وإنما يتركها لتساهم مع ما يجاورها، بتحديد هيكلية العنصر التشكيلي وحجمه، وزخمه التعبيري الرافل بنزعة رومانسية ساحرة.

أما الفنان محمد الأعجم فيبدو مأخوذًا بروحانية العمارة الإسلامية التي يربط داخلها بخارجها، ضمن توليفة خاصة يحشد فيها عناصر كثيرة، خاصة القباب والمآذن والهلال والأقواس. وللتخفيف من هذا الحضور الحاشد للعناصر في اللوحة، يقوم بتدريج الألوان من الغامق إلى الفاتح، كما يقلل ما أمكن منها، لتقتصر على لون أو لونين ومشتقاتهما. والفنان الأعجم يحطم في لوحته الصيغة التقليدية للتصوير، مازجاً بين البعيد والقريب من العناصر، وصولاً إلى صيغة فنيّة جديدة، لها أكثر من علاقة بالتكعيبية الزخرفية إذا جاز لنا التعبير!!.

اتجاهات مختلفة

لوحات الفنان عبدالعزيز العواجي تحمل أكثر من توجه، فهو تجريدي جريء، وباحث في قيم الألوان المتضادة، وحركيّة الأشكال المنفعلة.. وشفيف إلى حد التماهي المطلق بالأبيض المزرق الواسع الرحب، المطرز بموتيفات شعبية ناعمة ورقيقة، تتبادل مع الخلفية قيمة الحضور والغياب، بكثير من الانسجام والتوافق.

في الاتجاه الأول، يتحلل الفنان العواجي من أرشيف الذاكرة البصريّة وضوابطها، فيرمي فوق بياض لوحته،



محمد العبلان



محمد الرباط

إرهاصاته من الخطوط والألوان، بحرية وشغب. وفي الاتجاه الثاني، يتجمع على نفسه، مستحضراً الهدوء والشفافية والرهافة، قبل أن يغمس ريشته في الألوان ويمدها فوق البياض المشوب بزرقة خفيفة، ثم تأتي «الموتيفات» والعناصر الأخرى، لتسحب نفسها من الخلفية، أو تتوضع فوقها، بألوان حارة، مدروسة ومنسجمة، على تباين درجاتها.

الفنان محمد الرباط يقدم صيغة جديدة من «التنقيطية» قوامها المربع الصغير الموحد الحجم، المتعدد الألوان، المختلف الوضعية أو الحركة. وعبر توضعات كثيفة لهذه المفردات البصرية الهندسية، يوحي الفنان بهيكلية تكوين اللوحة أو عمارتها المؤلفة من عناصر إنسانية، تداخلت بالخلفية، لكونه عالجها بالأسلوب نفسه، مع تأكيد الأيدي والوجوه وعناصر أخرى مكمّلة. هذه الصيغة التنقيطية الزخرفية الهندسية، جديدة على تشكيلنا العربي، ويمكن أن تُشكّل منطلقًا لتجربة أنضج وأشمل.

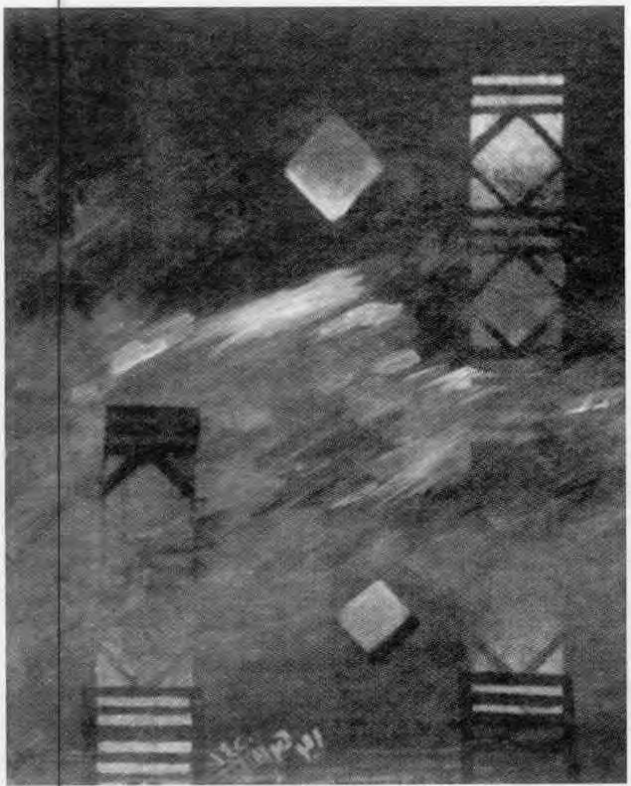
ويمزج الفنان محمد الشهري بين التشخيص والتجريد، مقارباً بعض الصيغ الدادائيّة، وهو يُلح في أعماله على مواءمة الرسم «الخط» والمساحة اللونيّة، ضمن أسلوبية عفوية حرة، من الصعب مدرستها أو

تصنيفها، فهي لا تقف عند صيغة محددة، ولا تُؤطر نفسها في اتجاه، بل تنتقل بحرية، بين التشخيص المُختزل والعفوي، والتجريد المشوب بروح الزخرفة.

بين التشكيل والتطبيق

أما الفنانة مها العثيمين فتأخذنا أعمالها إلى عوالم متنوعة وطريفة، محكومة بنزعة التجريب والبحث والمغامرة. ففي كل لوحة من لوحاتها، صيغة أسلوبيّة مختلفة عن الأخرى. فهي تنتقل من السوريالية إلى الزخرفية، ومن تقنية التلصيق «الكولاج» إلى المزج الجميل والمعبّر، بين التصوير والحفر. كما قدمت الفنانة صيغة غير مألوفة، بتركيبها لوحة فوق لوحة، أو تحطيمها لشكل اللوحة المألوف.. وهكذا نجد أنفسنا أمام مشروع فني متعدد التوجهات والانعطافات. مشروع تقوده موهبة فنيّة حقيقية، يسكنها هاجس التجريب والبحث، وهذه سمة بيّنة من سمات الفنان الذي يؤرقه الابتكار والتجديد وارتياد الآفاق المجهولة، في عالم الفن الواسع!!.

ونمضي مع الفنانة أمل الشكل إلى حقول التشكيل والتطبيق. في الأولى نقف على لوحة مائية، ترصد فيها تفاصيل متنوعة من العمارة القديمة، بصيغة واقعية شفيفة، تتطلبها تقنية الألوان المائية من جهة، وشاعرية الموضوع من جهة ثانية، مما يؤكد أننا أمام فنانة مسكونة بالشعر وعشق القديم - الجميل الموّار بلمسة الإنسان



فايز أبو هريس

الطيب، وأنفاسه وعفوية أصابعه المتقدة ببوح الروح، وصدق الإحساس، وبساطة الحياة، وهذا الصدق في التعبير، يواكبه خبرة عالية في التقنية والمعالجة وكيفيّة التعامل مع أدوات التعبير. أما في الحقول الأخرى، فتقدم الفنانة أمل الشكل تجارب متنوعة في الخزف



أمل الشكل



سعيد العلاوي

المجسم، بجانبيه الاستعمالي والجمالي، وبصيغتيه المعروفتين: الدولاب والتشكيل المباشر بالطينة. وفي المعالجتين، حرصت الفنانة على أن تُبقي أعمالها لصيقة بالتلقائية والعفوية والبساطة التي احتضنتها مثل هذه الحرف، منذ أن أوجدتها يد الإنسان، لتلبية حاجة ماديّة مباشرة، تطورت مع تطور الذائقة الإنسانية، لتتواكب فيها القيمة الاستخدامية بالقيمة الجمالية التزيينية والتعبيرية.

أما الفنانة اعتماد غراب فتتخذ من الواقعية الرومانسية المشوبة بالسوريالية وسيلتها للتعبير عن موضوع لوحاتها الأثير وهو «المرأة» تارة بشكل مباشر، وتارة أخرى بالرمز، دون أن تتخلى عن ذلك الحس الشاعري المأساوي، وعن الاتكاء على الخط الصريح، والألوان الشفيفة.

ويقدم الفنان أحمد الخزمري نفسه متردداً بين الواقعية والانطباعية، فهو يعتمد في لوحاته على البقع اللونية وسيلة رئيسة للتعبير وتشكيل اللوحة، وعلى ضربة الريشة المنفعلة، دون الإلحاح من قبله على دمج هذه البقع وتذويبها بعضها في بعض.

وتقارب الفنانة نادية رشاد تجربة الفنانة اعتماد غراب من حيث الموضوع وطرائق التعبير، مع ملاحظة سطوة الرسم «الخط» لديها على اللون، وبروز النزعة السوريالية لديها، فتبث من خلال رموزها هواجسها الذاتية، ورؤاها لعدد من القضايا الحياتية.

أما الفنان عبدالرحمن المغربي فيلامس في لوحاته الواقع ملامسة خفيفة، عبر تكوينات لونية قوية متضادة، تنبع من بؤرة مركزية، وتتوزع في الاتجاهات كافة، دون أن تفصح عن إشارة محددة، خارج الإمتاع البصري المجرد.

ونصل مع أعمال الفنان فايز أبو هريس التجريدية التجريبية، إلى صيغة فنيّة أقرب إلى الرسم منها إلى التصوير، لاقتصارها على ألوان محددة، وغلبة السمة الغرافيكية عليها. فهي لصيقة بفن «الموتيف» أو الرسوم التوضيحية والمعماريّة، رغم الحسيّة الواضحة التي تحملها خطوطها وألوانها الشفيفة.

وهكذا نجد أن لكل تجربة من تجارب فناني بيت الفنانين التشكيليين السعوديين في جدة مشروعها الخاص الذي تعمل عليه، ضمن نزوع واضح للتمايز والتفرد والإتيان بالجديد، خاصة على صعيد اللغة البصرية المُخترقة بوسائل جديدة ومذهلة كالتلفاز والسينما والكمبيوتر والإنترنت، هذه الوسائل التي وضعت الفنون التشكيلية أمام مأزق حقيقي، طال وجودها في الأساس، كما حَجّم دورها ومهامها.

ما يلفت الانتباه في تجربة هؤلاء الفنانين، حرصهم الشديد على الالتصاق ببيئتهم، والتوجه بها ومن خلالها إلى الآخرين، وباللغة البصرية الحديثة القادرة على الاتصال والتواصل معهم، أينما وُجدوا في هذا العالم المترامي الأطراف، والذي حولته وسائل الاتصال الحديثة إلى قرية صغيرة!!

دراسة مقارنة

في الحكايات العربية المعاصرة وحكايات عرب وسط آسيا

شاه رستم شاه موساروف
الرياض - السعودية

من المعروف أن نمط الحياة والتقاليد التاريخية والآراء الفلسفية الجمالية وما كشف عنه ووصفه علم الأعراق أو الإنسان (الاثنوغرافيا)، وبكلمة واحدة: الخواص القومية لكل شعب تجد انعكاسها قبل كل شيء في إبداعه الأدبي الشائع على الألسنة، ولذا فإن الأدب الشعبي لكل شعب يملك من حيث طبيعته الأدبية/ الأخلاقية طابعه القومي. وإلى جانب ذلك، لا يمكن تصور تكوين أية ثقافة قومية وتطورها من دون تأثير القيم الإنسانية العامة والعلاقات الثقافية/ الأخلاقية المتبادلة بين مختلف القوميات. ولهذا عندما يدور الحديث حول التكوين والارتقاء الأدبي الشعبي (الفلكلور) لأي شعب، يجب أن يؤخذ في الحسبان تأثير الإبداع الشعبي لشعوب العالم، لأن العلاقات (الفلكلورية) تعدّ أهم عامل لإغناء النظام التقليدي لموضوعات الأعمال الأدبية.

إننا سنحاول في هذا البحث التطبيق العلمي للطبيعة الجمالية الخاصة للعلاقات (الفلكلورية) على فن أدبي هو: فن القصة. من المعروف أن القصة تعدّ فناً ملحمياً من فنون الأدب الشعبي ظهر نتيجة التحويل الملحمي للأساطير، والتطور الثابت المستمر لأسلوب التصور للواقع عن طريق التخيل. وترتبط تقاليد فن القصة لدى شعوب الشرق بعضها ببعض تاريخياً ارتباطاً وثيقاً، وتكوّن سلسلة أدبية خاصة في نظام الفكر الجمالي العالمي، لأنها تطورت على مدى قرون بالاتصال والتأثير المتبادلين. ولقد تطور - مثلاً - فن القصة لدى الشعوب التركية تحت التأثير الناجع المفيد لتقاليد فن القصة لدى الشعوب العربية والفارسية والهندية وغيرها من الشعوب، وفي الوقت نفسه أثّر تأثيراً كبيراً في تطور الإبداع الملحمي للشعوب المذكورة.

وحدة مشتركة

إن دراسة موضوعات قصص شعوب الشرق وأنماطها وصورها، تظهر أنه يوجد في المؤلفات العائدة إلى هذا الفن (الفلكلوري) للشعوب العربية والفارسية والهندية كثير من الصور والأنماط والبواعث والصيغ الأدبية المتشابهة، وحتى الموضوعات واحدة تقريباً. وإن هذه الوحدة المشتركة في رأينا قد ظهرت بطريقتين:

- استيعاب رواة (الفلكلور) من شعبٍ ما لبعض العناصر الأدبية الموجودة في موضوع قصة من قصص شعب آخر. على أن الموضوع المتنقل أو بعض البواعث والأنماط والصيغ التقليدية لا تُستوعب بالشكل الذي كانت عليه في المصدر الأول، أي في (فلكلور) الشعب الذي وضع القصة أول مرة، بل تتعرض إلى تحوّل دلالي (سيميائي) قوي في الملامح العامة التي تتكرر في الأدبين. إنّ كل عمل يجري في القصة، وكل فكرة وحادث ومشهد ينطوي على الخواص الملازمة لذلك الشعب، وإن الشعب المستوعب للبطل القريب منه يجعله منسجماً ومتجانساً مع ظروفه الاجتماعية والاقتصادية والجغرافية، ويعكس من خلاله مثله.

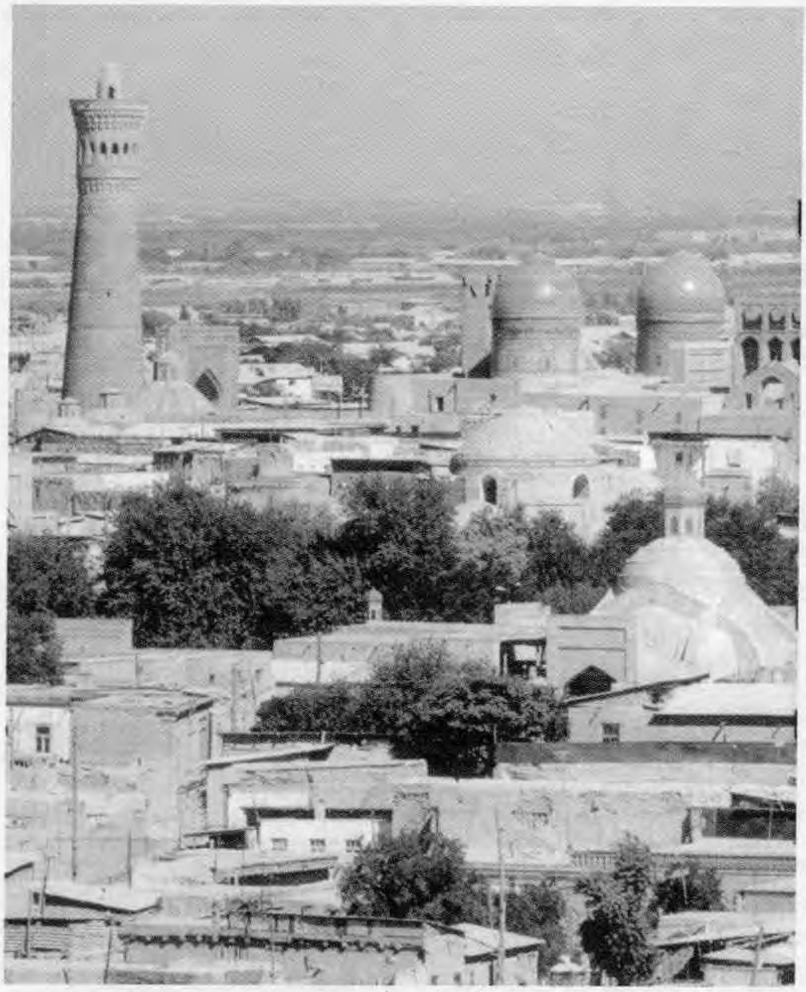
وهكذا، فإن رواة الشعوب العربية والهندية والتركية والفارسية وقصاصيها لم يستوعبوا بعض العناصر الأدبية فقط، بل تلقوها انطلاقاً من المقاييس الجمالية لتقاليد (الفلكلور) القومي الإبداعية، أي الاستيعاب (الفلكلوري)، الذي من الواجب أن يتوافق مع مبادئ الشعب القومية والتاريخية/ الاثنوغرافية والجغرافية والأخلاقية والفلسفية/ الجمالية.

ـ تتماثل موضوعات قصص كثيرة لدى عدد من الشعوب غير أن هذا التماثل في الموضوع أو الباعث أو الصورة الملحمية، يجب ألا يعدّ دائماً وحدةً ملحميةً ظهرت بنتيجة التأثير الأدبي المتبادل، لأن تشابه أساليب التفكير الملحمي ومبادئ التفهم والإدراك الأدبي/ الجمالي للواقع، ونمط حياة الشعوب التي تعيش في مختلف المناطق، والتي يختلف بعضها عن بعض من حيث المنشأ السلالي والعقائد الدينية، باستطاعة هذا كله أن يُولد عمومية هذه الصورة ووحدتها. ووحدة الصورة هذه تتكون على أساس السنن الجمالية للتطور التاريخي/ الفلكلوري.

إن العلاقات القومية والدولية للتقاليد الفلكلورية، بما فيها فن القصة، مختلفة ومتباينة. والصلة المتبادلة لفلكلور الشعوب العائشة في منطقة معينة، أو بعيدة بعضها عن بعض تبدو في الأشكال الآتية:

ـ العلاقات من حيث أنواع القصة.

ـ العلاقات الوراثية.



منظر عام من أوزبكستان

ـ الاستيعاب الإبداعي.

ـ التأثير الملحمي المتبادل.

باستطاعة تشابه أنماط الحياة، والعوامل الاجتماعية/ الاقتصادية والتاريخية أن يغدو أساساً لظهور البواعث والأنماط والأحداث والموضوعات المتشابهة في (فلكلور) الشعوب التي لا توجد بينها علاقات سلالية، وتتكلم بمختلف اللغات. وهذا الشكل للتشابه في (فلكلور) شعوب العالم يعدّ «وحدة نوعية».

كما أن البواعث والأنماط والموضوعات التي توجد في قصص شعوب مجموعة بكاملها تنتسب إلى أسرة سلالية واحدة، وفي قرابة ملحمية، تعدّ نماذج للوحدة السلالية، والبرهان على ذلك: أمثلة الوحدة في الأنواع والأنماط بين الإبداع الشعبي للعرب في شبه الجزيرة العربية وعرب وسط آسيا.

تأثير عربي راسخ

من المعروف أنه بعد فتح العرب لوسط آسيا استقرت هناك بعض القبائل العربية، وعلى مر القرون لم يحافظ عرب وسط آسيا على لغتهم

وتقاليدهم اوأثنوغرافيتهم فقط، بل استوعبوا لغات الشعوب المجاورة وعاداتهم وفلكلورهم أيضًا مثل: الأوزبك والطاجيك. وهكذا، تكونت هنا نصوص أدبية مشابهة شكليًا ونوعيًا لنماذج (فلكلور) العرب القاطنين في المناطق العربية الأساسية.

إن العرب الذين حافظوا على لغتهم الأصلية يعيشون في الوقت الحاضر في قرى جوغاري وتشاندير في منطقة غيجدووان بولاية بخارى، وكذلك في قرية جيناو، بولاية قشقاداريا. وبرأينا فإن الاتجاهات الآتية تغدو مهمة في دراسة (الفلكلور) العربي في وسط آسيا:

- دراسة الطبيعة الشعرية والترقي الأدبي للأسس التاريخية والتركيب النوعي وخواص (فلكلور) العرب في وسط آسيا.

- إظهار المكانة الجمالية لتقاليد الإبداع الشعري الشعبي الشفهي في الترقي الأدبي (لفلكلور) عرب وسط آسيا.

يجب القيام بدراسة مقارنة (لفلكلور) عرب وسط آسيا مع الفنون الفلكلورية الراسخة في المناطق العربية الأصيلة.

ونتيجة للتحليل التاريخي المقارن للقصة وأنواعها يتضح أن فن القصة لدى عرب وسط آسيا نتاج لتقاليد الإبداع المحكيّ العربي العام؛ ويعدّ مثالاً لأنواع القصة وأشكالها المتكونة نتيجة للعلاقات بين المأثورات الشعبية (الفلكلورية).

إن الدراسة المقارنة وتحليل القصص الشعبية التي جمعها وأصدرها عبدالكريم الجهيمان مع قصص عرب وسط آسيا يظهران أنه يوجد كثير مما هو مشترك في موضوعات قصص أبناء أمة واحدة، يعيشون بعيدين بعضهم عن بعض. وهذا الافتراض يؤكده التحليلُ المقارن لأنواع القصص وأشكالها مثل قصتي: «الثقة والخادم» و«التاجر عبدالله». فالقصة الأولى مأخوذة من مؤلف الجهيمان، والثانية كتبها غ. ف. سيريتيلي عن الراوي عالم قوربان، البالغ من العمر ٥٧ سنة والقاطن في قرية جوغاري.

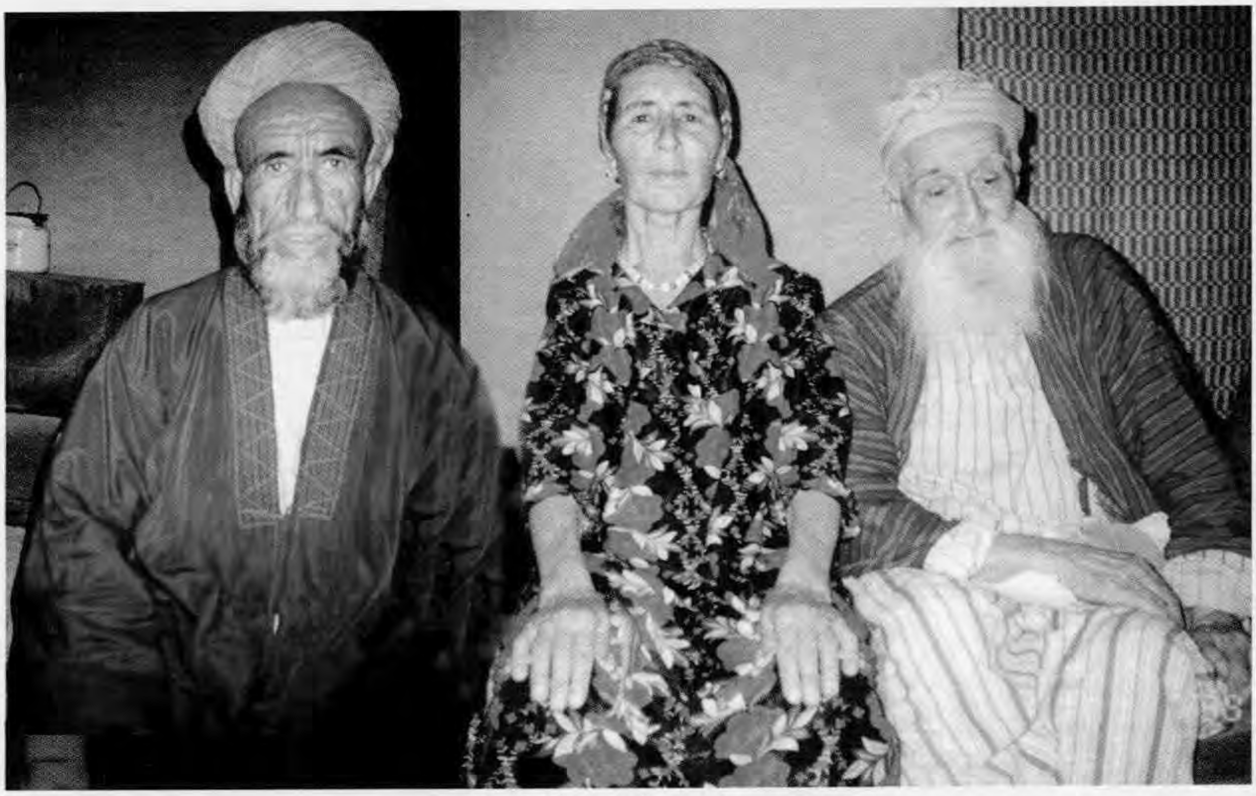
تدور قصة «الثقة والخادم» عن ملك عاش في قديم الزمان وكان له بنت وخادم. وقرر الملك أن يسافر لأداء فريضة الحج، وأمر خادمه بأن يهتم ويعتني بابنته إلى حين العودة من الحج. وهكذا غادر الملك قصره وسافر تاركًا ابنته وكل ثروته تحت إشراف خادمه. ولم يمض زمن قليل حتى راح هذا الخادم يسرق ويأخذ من القصر الكنوز والأحجار الكريمة. ولاحظت ذلك ابنة الملك، ولكنها عفت عنه في المرة الأولى، إلا أنه لم يطعها، واستمر في سرقته لموجودات القصر. وهنا أخذت الفتاة بيدها عصا، وراحت تضرب الخادم إلى أن وقع طريح الفراش(١).

ويشابه موضوع قصة «التاجر عبدالله» الموضوع الذي تناولته القصة السابقة، إذ يبدأ تطور الأحداث من وصف سفر التاجر في رحلة طويلة للقيام بالأعمال التجارية. وبينما تتكون شخوص «الثقة والخادم» من الملكُ وابنته والخادم المهمل المقصّر وابن أخي الملك وشخصين شابين آخرين، فإن قصة «التاجر عبدالله» تضم كلاً من التاجر وابنه وابنته وخطيب المسجد والخادم الفقير والبائع وغيرهم. وتشترك القصتان في الفكرة، وهي التحذير من الطمع في خيرات الآخرين، وخيانة الأمانة. كما أنهما تعظّمان من شأن الكرامة والنزاهة والخير. وتبدو فيهما الدعوة إلى فضح أولئك الذين يرتكبون الأعمال السيئة، ومحورهما أن الخير ينتصر دائمًا، والحقيقة تبقى ثابتة دومًا.

باعث واحد

يجري في قصة «الثقة والخادم» وصف الباعث الأول الذي دفع إلى تسلسل الأحداث، أي باعث «الغياب» وهو سفر الملك إلى الحج، أما في قصة «التاجر عبد الله» فإن غيابه مدة طويلة من أجل الأعمال التجارية يغدو أساسا ملحميًا للعنصر الأدبي الرئيس في موضوع القصة/ الباعث على خيانة الأمانة، ومثل هذا الباعث نجده في القصة الشعبية الأوزبكية «آزاده تشيخرا» أيضًا، إذ يوكل الوالد المسافر في الأعمال التجارية إلى شخص غريب رعايةَ ابنته، فيوسوس الشيطان لهذا الغريب بخيانة الثقة، والتطاول على الفتاة(٢).

وإذا كان التطاول على أموال الآخرين في قصة «الثقة والخادم» يعاقب من الفتاة. فإن خطيب المسجد في القصة المكتوبة لدى



وجوه عربية من وسط آسيا

عرب وسط آسيا، المضايق بإلحاح للفتاة، يُضرب من الفقير بإيعاز منها. أما في قصة «آزاده تشيخرا» فإن الشيخ العجوز صنعان يضايق الفتاة عندما تجلب له الماء من أجل غسل يديه. أما الفتاة فإنها عندما شعرت بالنوايا الشريرة للشيخ، قامت بضربه بالإبريق الفضي الذي كان في يدها، فيخرُّ الشيخ فاقد الوعي على الأرض.

في هذه القصص الموضوعة على أساس المحاور الملحمية العامة، كان باعث توجه البطل والد الفتاة للقيام برحلة طويلة قد ظهر علي أساس التقاليد القديمة، ومعتقدات أجدادنا وأسلافنا. وإذا دققنا فيها، فنرى أن الشخص الرئيس في قصة «الثقة والخادم» هو ابنة الملك، أما في قصة «آزاده تشيخرا» فهو الفتاة الموكولة إلى الشيخ للعناية بها، أي ابنة التاجر، ولكنها في الواقع هي حفيدة الملك. إنّ محور قصة «التاجر عبدالله» قد تكوّن تاريخياً تحت تأثير الفن الروائي القصصي للشعب الأوزبكي. ونتيجة للعمليات التاريخية/ الفلسفية الطويلة، قد نسيت سلسلة مهمة في نظام النماذج، ألا وهي انتساب البطل الرئيس إلى الأسرة المالكة، وهذا الانتساب يغدو مفتاحاً لتوضيح الجذور الوراثية لباعث «الغياب».

وقد كتب العالم (الفلكلوري) ف. يا. بروب أنه ـ لا شك ـ توجد صلة «بين عادة عزل الملوك وأبناء الملوك، وعادة عزل الفتاة». وأنّ العادتين كلتيهما مبنيتان على تصورات واحدة، في البلدان المماثلة في زمن مضى، وأن القصة تعكس هذا الشكل وذاك الانعزال، وأن نموذج الفتاة التي تعرضت للانعزال في القصة قد اقترن بانعزال الفتاة في أثناء فترة الحيض.

إن الأساس الديني القديم لهذا الباعث هو الرعب من القوى الغيبية المحيطة بالإنسان، وهذا الرعب يؤدي إلى تعريض الفتيات في فترة الحيض للعزل من أجل وقايتهن من هذه الأخطار/القوى الغيبية(٣).

وهكذا، يتضح أن باعث إبقاء ابنة الملك المسافر في رحلة طويلة

تحت رعاية الشخص الموثوق به قد ظهر على أساس التأويل الملحمي للشعائر القديمة في عزل الفتيات البالغات سن الرشد مؤقتًا عن الأسرة.

وأحد البواعث الرئيسة لمثل هذه القصص التي وضعت على أساس الموضوع المشترك الواحد، هو الافتراء على البطل، أي البنت، ومعاقبتها غير العادلة. وفي قصة «الثقة والخادم» نرى الخادم لم يتمكن من تحمل غيظه بعد رجوع الملك من الحج فافترى على الفتاة بقوله للملك: «بعد مغادرتكم مباشرة للقصر يا سيدي راحت ابنتكم تدعو الشباب والفتيان، حيث راحوا يلعبون ويرقصون لأن السلطة بيدها، والحكم بأمرها! ولكنني خادمكم الأمين المخلص ما إن لاحظت هذا حتى نبهتها على ذلك، ولكن ابنتكم ضربتني بقوة ولم تطعني!».

وفي قصة «التاجر عبدالله» كان خطيب المسجد الذي عوقب على مضايقته للفتاة قد افترى عليها. لقد قال الإمام الخطيب/خادم المسجد للبائع: «لقد اختلت ابنتكم مع أجيرها، وقد شاهدت ذلك، إنها أمرته فضربني. ومنذ ذلك الوقت وأنا مريض».

يمكن في تفسير باعث الافتراء في قصة «آزاده تشيخرا» مشاهدة شكل خاص من نوعه للموضوع: فالشيخ الذي ناله الضرب على مضايقته للفتاة، وبعد استعادته للوعي، ذهب إلى الملك في القصر؛ وعندما سأله الملك: لماذا وجهك ملطخ بالدم؟ بكى الشيخ وقال: إنها هدية بسبب الفتاة العديمة الشفقة. لقد أرسلت زوجاتي إلى المريدين، وقلت للفتاة: «يا ابنتي اعتني بالبيت». وبعد مضي بعض الوقت دخلت إلى البيت لمعرفة ما هناك. دخلت ورأيت السافلة قد جمعت أربعين إنسانًا شابًا وأقامت حفلة عامرة في غرفة الضيافة. وما إن شاهدتني حتى أمرت بضربي».

إنّ الخواص التي تؤمّن الوحدة الشكلية للبواعث في القصص الثلاث تتلخص في الافتراء ظلمًا على الفتاة. وباعث الافتراء واحد وهو اتهام البطل بالفساد الأخلاقي.

التصور الخيالي حول تقسيم العالم ثلاثة أقسام كان ظاهرة ملحمية عامة شملت كثيرًا من القبائل القديمة

كما أن باعث معاقبة البطل يفسر هو الآخر على صورة واحدة في جميع القصص، وهذا أيضًا دليل واضح ساطع على تشابه نماذج النصوص الأدبية المقارنة؛ ففي قصة «الثقة والخادم» يأخذون الفتاة إلى السهب ويضللونها.

وفي قصة «التاجر عبدالله» يريد أخو الفتاة التي افتروا عليها أن يقتلها في السهب، إلا أنّ الشفقة عليها لم تسمح له بتنفيذ ما يريد.

وعندئذ اقتنص عصفورًا وذبحه وأظهر دمه لوالده. وبقيت الفتاة بقلبها الجريح في الصحراء. وفي قصة «آزاده تشيخرا» يأخذ وزير الملك الفتاة إلى السهب ويتركها هناك.

ويرتبط ترك البطل في الصحراء أيضًا بعادات عزل البنات عند بلوغهن سن الرشد، إشارة إلى انتقالهن من مرحلة إلى أخرى من مراحل العمر. وحسب الأساطير القديمة كان من الواجب في ذلك الوقت، عندما تظهر على البنات علامات البلوغ، عزلُهن عن الجماعة، وإبقاؤهن في مكان خاص. وعند تنفيذ هذه العادات كانت الفتيات المعزولات يُحرَمْن من قص شعرهن، ومن النظر إلى الشمس، والظهور أمام الوالدين والأقرباء. وتفيد معلومات العالم (الاثنوغرافي) الإنجليزي المشهور جيم جورت فريزير بأنه في إحدى مقاطعات غينيا الجديدة البريطانية كانوا يبقون بنات رئيس القبيلة البالغات من العمر ١٢ - ١٣ سنة في عزلة مدة سنتين أو ثلاث سنوات. ولم يكن يسمح لهن بشكل من الأشكال بالخروج من البيت الذي لا تتسلل إليه أشعة الشمس(٤).

لقد كان تنفيذ عزل الفتيات البالغات سن الرشد، واللائي يعشن بعيدًا عن دار الوالدين لشروط محددة، جزءًا تقليديًا من العادات البدائية للمحنة التي كانت تتعرض لها الفتاة. ونتيجةً لانتشار هذه العادات في التفكير الملحمي، ظهر

باعث عزل البطلة المفترى عليها عن دار الوالد.

لقد أظهرت الدراسة المقارنة لقصص: «الثقة والخادم» و«التاجر عبدالله» و«آزاده تشيخرا»، أنه على الرغم مما يبدو بينها من اختلاف، أن هناك نظامًا عامًا يجمع بين البواعث الرئيسة لموضوعاتها. وبرأينا، فإن قصة «التاجر عبدالله» التابعة لتراث (فلكلور) عرب وسط آسيا قد تكوّنت ونشأت نتيجة الانتقال الملحمي لموضوع القصص من شكل «آزاده تشيخرا» التي يتداولها منذ القديم القصّاص والرواة الأوزبك. ومن حيث العلاقات التاريخية السلالية يعدّ هذا الموضوع الرواية الشكلية لقصة «الثقة والخادم» الموجودة لدى العرب الذين يعيشون في شبه الجزيرة العربية.

الطرق الثلاثة

ومن الخواص المشتركة العامة بين القصص لدى عرب شبه الجزيرة العربية، وعرب وسط آسيا الباعث التقليدي المتمثل في الطرق الثلاثة.

فمن المعروف أن نماذج الأبطال الخياليين للقصص الشعبية مبنية - في الأجواء الملحمية - على التفسيرات والتأويلات التي ظهرت على أساس العقائد الأسطورية للقدماء حول تركيب العالم وتكوينه. وحسب رأي الفلكلوري الأوزبكي م. أفضالوف، فإن ظهور الطرق الثلاثة أمام الإخوة الثلاثة يعدّ صيغة بلاغية(٥).

وبرأينا، فإن الأحداث المتعلقة بالطرق الثلاثة تعدّ واحدًا من العناصر الملحمية المحدّدة لتركيب القصة الأدبية. وهذه الظاهرة نراها «باعثًا تقليديًا»(٦). وفي «القصص الشعبية الأوزبكية فإن الطرق الثلاثة التي تؤمن تطور الموضوع تقوم بمهمة العنصر الأدبي الذي يحدد اتجاه الرحلة»(٧).

وفي القصص الشعبية العربية السحرية جرى تفسير باعث الطرق الثلاثة التقليدي تفسيرًا خاصًا.. فكما يجري الحديث في قصة «الطريق الذي لا يرجعون منه»:

طرق، فألقوا عليه السلام، وقصّوا عليه قصّتهم. تنهّد الشيخ العجوز وقال مفكرًا:

- استمعوا إليّ يا أبنائي. إن هذا - هو طريق الوفاق والسلام، وأشار إلى الطريق الأول؛ وهذا الطريق - هو طريق الأسف والندامة؛ وأشار إلى الطريق الثاني؛ وأما هذا الطريق، فهو الطريق الذي إذا سار عليه أحد فلن يرجع. وأشار إلى الطريق الثالث.

وما إن سمع محمد هذا حتى سأل:



مصحف شريف

كان لأحد الملوك ثلاثة أبناء: محمد ومحمود وأحمد. وحدث أن فقد الملك بصره. وقال العرّافون: إنه يمكن مداواة مرض البصر فقط بحليب اللبوة. وهكذا امتطى أبناء الملك جيادهم وانطلقوا في الطريق بحثًا عن الدواء الموصوف.

«لقد قطع الإخوة مسافات طويلة. وفي يوم من الأيام شاهدوا شيخًا عجوزًا بملابس بيضاء كان جالسًا وحيدًا عند مفترق ثلاثة

- أي طريق من الطرق الثلاثة يؤدي بنا إلى الهدف؟

فأجاب الشيخ العجوز:

- يا بني، إن كل هذه الطرق في ظلام، ولا يعرف أحد إلى أين تؤدي.

فقال محمد:

- إخوتي، علينا أن نخبر الطرق الثلاثة، وعلى كل واحد منّا أن يسير في أحد الطرق.

وقال محمود:

ـ سأذهب على طريق السلام والوفاق!

وقال أحمد: سأذهب على طريق الأسف والندامة.

وقال محمد: سأذهب على الطريق الذي لا يرجعون منه»(٨).

لقد ظهر في القصة شيخ عجوز طيب حسن المنظر بلحية بيضاء يلتقي بالأشخاص عند مفترق الطرق، ويعطيهم المعلومات عن كل طريق. وهذا الشيخ واحد من النماذج الدالة (السيميائية) للنصير الملحمي، يقوم بأعمال مثل إظهار الطريق للبطل، وتقديم النصائح

ـ قل لي يا جدي العزيز إلى أين تؤدي هذه الطرق؟ أيّ طريق من الأحسن سلوكه؟

فأجابه الشيخ العجوز:

ـ اسمع، يا بني، هذا الطريق هو طريق السلام والأمان وأشار إلى الطريق الأول؛ وهذا الطريق ـ هو طريق التعاسة ـ وأشار إلى الطريق الثاني؛ وأما هذا الطريق ـ فهو الطريق الذي لا يرجعون منه؛ وأشار إلى الطريق الثالث الذي نبت عليه عشب كثيف.

قفز الفتى على فرسه، ولوح شاكرًا بيده للشيخ العجوز، وراح

الطير في القصص الملحمية القديمة رمز العالم الأعلى (السماء)، والإنسان هو وسط العالم (الأرض)، والأفعى مثل العالم الأدنى (تحت الأرض)

والأشياء والمساعدة.

إنّ نموذج الشيخ النصير، المقدّم للمعلومات عن الطرق الثلاثة، والمحدد للاتجاه الملحمي حيث سيجد البطل حتمًا ما يسعى إليه، يوجد في قصة «رارانجا وتارانجا» من كتاب عبدالكريم الجهيمان:

«في يوم من الأيام توجه الفتى في سفرة بعيدة ليجد ما يهواه قلبه الذي سلبه النوم والهدوء، وبعد بضعة أيام وصل الفتى إلى مفترق ثلاثة طرق. وهناك كانت توجد مغارة يجلس عند مدخلها شيخ عجوز أشيب الشعر واللحية. فقفز الفتى من على ظهر فرسه وسأله:

يشد على اللجام، وانطلق في الطريق الثالث(٩).

في هذا الباعث يوجد عنصر واحد يكشف الطبيعة الأسطورية لنموذج النصير الملحمي: فالشيخ العجوز الشايب يتكلم مع بطل القصة جالسًا عند مدخل المغارة الواقعة على مفترق الطرق الثلاثة.

وفي هذه الحالة فإن المغارة مكان ملحمي ـ علامة التبعية إلى عالم الأرواح ـ لأن المغارة في الأساطير الشرقية تعدّ انتقالاً إلى العالم الملحمي الموجود تحت الأرض. أي إن النصير الملحمي هو الشخصية الدائمة في قوام الباعث التقليدي

للطرق الثلاثة الذي يُعدّ التجسيد الأدبي لتقديس الأجداد.

لقد جرى في هذه القصة تقديم التصوير الواقعي للطريق الذي «من يسلكه لن يرجع» مثل الطريق الذي نبت عليه عشب كثيف. ومن المعروف أنه إذا كان على الطريق عشب كثيف فهذا يعني أنه لا يسلكه أحد. وأما بطل القصة فلا يسير إلا على هذا الطريق. لأن هذا ما يؤدي إلى تطور الأحداث واختيار بطل القصة من الطرق الثلاثة أصعبها وأكثرها مشقّة، ووصوله إلى هدفه الملحمي، يعدّ واحدًا من التقاليد الخاصة للسنن الملحمية لتكوين القصة السحرية.

واخترنا من (فلكلور) العرب في وسط آسيا قصة «الأخ الأصغر»، المنقولة من الراعي خودا يقول شامرادوف، البالغ من العمر ٢٩ سنة، والساكن في قرية جوغاري من منطقة غيجدووان بولاية بخارى ليكون نموذجًا للطرق الثلاثة.

تتميز هذه القصة بأن سبب توجّه البطل في قصة «الأخ الأصغر» للقيام بسفرة ليس الحاجة، وإنما هو الشغف بالصيد. كما تفتقر هذه القصة إلى النصير الذي يقدّم للبطل المعلومات الملحمية، لأن هذه المعلومات مكتوبة على حجر: «كان ماكان، كان قد عاش شيخ عجوز. وكان له ثلاثة أبناء. إنهم قالوا لوالدهم: «سنخرج إلى صيد الغزلان». وهكذا ذهب الثلاثة. وبعد أن قطعوا مسافة وصلوا إلى مفترق ثلاثة طرق. وكان هناك حجر واحد. فنزل أحدهم من على

فرسه، وشاهد كتابة على الحجر: «إذا سار أحد على طريقين من الطرق الثلاثة فسيعود. وأما إذا سار على الطريق الثالث فلن يعود»، وما لبث أن قال: «هل ترون أنني سأذهب على هذا الطريق، الطريق الذي إذا سار عليه أحد فلن يعود؟»(١٠).

إن المعلومات عن الطرق المكتوبة على الحجر تعدّ عنصراً أدبياً تسرب من القصص الشعبية الأوزبكية السحرية إلى (فلكلور) عرب وسط آسيا. لقد عاش عرب وسط آسيا (عرب بخارى في هذه الحالة) قروناً طويلة جنباً إلى جنب، وباتصال ثقافي - اقتصادي قريب متبادل مع الأوزبك، وتشبعوا بالتقاليد الملحمية للقصة الأوزبكية. ونتيجة لذلك تسلّلت البواعث القديمة للقصص الشعبية الأوزبكية إلى القصّاصين العرب. وهذا ما يفسر التشابه بين القصص الأوزبكية وقصص عرب بخارى في وجود الطرق الثلاثة.

تدور القصة الأوزبكية «الطير سمبل» حول أبناء أحد الملوك وتوجههم في سفرات بحثاً عن الطير النادر. وعند مفترق ثلاثة طرق شاهدوا الكتابة الآتية: «إذا ذهبت من الجهة اليمنى فتعود، وإذا ذهبت من الجهة اليسرى فلن تعود؛ وإذا ذهبت إلى الأمام بصورة مستقيمة فتغدو في المجهول»(١١).

في قصة «ملك مصر» يقترب الإخوة من مفترق الطرق الثلاثة، وهناك عند بداية كل طريق يوجد حجر عليه الكتابة الآتية: «إذا



«عازف الناي» لوحة أوزبكية توضح التأثير العربي

سرت على الطريق في الجهة اليسرى فلن تعود، وإذا سرت على الطريق في الجهة الوسطى فستتعرض للخطر، وإذا سرت على الطريق في الجهة اليمنى فستعود»(١٢).

وفي تسمية الطرق الثلاثة أيضاً يوجد التقليد الملحمي المشترك في تراث (فلكلور) الأوزبك وعرب بخارى: «تذهب - تعود» ، «تذهب - تتعرض للخطر»، «تذهب - لن تعود».

وحسب تفسير القصص الشعبية الأوزبكية يتوجّه الأصغر من الإخوة في أخطر الطرق ؛ بوصفه البطل الرئيس للقصص، وهو يتمتع بقوة سحرية، ويعدّ بطلاً مثالياً باستطاعته تذليل الصعاب والعراقيل التي تواجهه على طريق: «تذهب - لن تعود»، وذلك في أجواء ملحمية.

أما في القصص المجموعة في شبه الجزيرة العربية، فإن من يذهب على أخطر الطرق هو الأخ الأكبر. وهذا يعني أن الباعث التقليدي للطرق الثلاثة قد جرى تفسيره تفسيراً خاصّاً في قصص كل شعب، وقد انعكست فيها التقاليد القومية للشعب.

أساس تاريخي

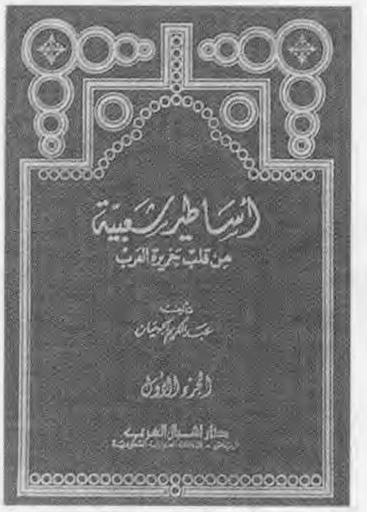
وهنا نرى من المناسب أن نتوقف باختصار عند عملية ظهور الأصل، أي الأساس التاريخي والأسطوري لباعث الطرق الثلاثة.

من المعروف أن قوام العالم - حسب تصور القدماء - يتكون من

ثلاثة أقسام: السماء، والأرض، وتحت الأرض. وهذه الأقسام مرتبطة بعضها ببعض عن طريق شجرة الحياة، أو جبل فضائي أسطوري. في الأساطير التركية القديمة يجري الحديث عن أنه في المعمورة تؤدي طرق ثلاثة إلى حيث تذهب الروح. وحسب الرواية فإن روح الميت تقترب من الطريق ذي المفارق الثلاثة. أحد الطرق يؤدي إلى ايرميخان. والثاني إلى كاغيرغان الذي يقوم بمهمة الوساطة بين إيرليك وأولغان. والطريق الثالث يؤدي إلى جسر الأفعى(١٣).

وتبعاً لذلك فإن الهيكل الثلاثي الذي ظهر على أساس التصورات حول تقسيم العالم ثلاثة أقسام عُدّ في علم الأساطير التركية على أنه نمط فضائي عام شامل. وإن التقسيم الثلاثي: السماء، والأرض، وتحت الأرض يعدّ هالة للأجواء الملحمية المجسّدة لكل أعمال أبطال الأساطير القيمة. وحسب تصورات الأساطير التركية القديمة فإن السماء هي مكان وجود الآلهة والأرواح الخيّرة؛ والأرض هي مكان وجود الناس؛ وتحت الأرض هو عالم الأرواح الشريرة والأموات. والتركيب الثلاثي، أي باعث العوالم الثلاثة، قد خدم في الأسطورة كأساس من أجل التفسير الملحمي في القصص الشعبية: من الواجب على البطل المتوجّه في رحلة أن يختار أحد الاتجاهات الثلاثة. وهذه الطرق الثلاثة تؤدي بالبطل إلى ثلاثة عوالم: تذهب - تعود إلى السماء؛ تذهب تتعرض للخطر - تعود إلى الأرض؛ تذهب - تعود إلى تحت الأرض(١٤).

يبدو لنا أن التصور الخيالي حول تقسيم العالم ثلاثة أقسام كان ظاهرة ملحمية عامة بالنسبة إلى كثير من القبائل القديمة. لأن وحدة نظام التصورات القديمة، وتقارب أنماط الحياة، وتشابه الإدراك الخيالي للعالم - كانت هذه كلها أساساً لظهور العقائد العامة المشتركة. ولهذا يعدّ كل باعث للطرق الثلاثة في تراث (فلكلور) العرب الذين يعيشون في شبه الجزيرة العربية نظاماً للعناصر الأدبية التي لها أساسها القومي. وإن باعث الطرق الثلاثة في قصة عرب بخارى يعدّ من الناحية التاريخية الوراثية استيعاباً للعنصر الملحمي في القصة الأوزبكية. ولهذا يُقدَّر على أنه اقتران نوعي نموذجي بالنسبة إلى الباعث نفسه في القصص العربية.


غلاف «أساطير شعبية»

لقد أظهرت الدراسة المقارنة الهيكلية الدلالية (السيميائية) لقصص عرب بخارى مع القصص العربية المعاصرة أنه يوجد نظام العناصر الأدبية بين تقاليد هذين النموذجين للقصة.

أدلة وحجج

في قصة «سامانتشي بن باي»(١٥) التي كتبها الجد يولداش من أهالي قرية جوغاري في منطقة غيجدوان، عندما سأل البطل: من أي طريق يمكن العودة إلى هذا العالم؟ حدثه أحد الملوك عن الطير سيمورغ. فذهب سامانتشي بن باي يبحث عن الطير.

سار سامانتشي بن باي إلى أن وصل إلى شجرة الدلب، واستلقى على ظهره في ظلها، إلى أن انتصف النهار. لقد كان للطير سيمورغ فراخ ثلاثة على قمة الشجرة. وبينما كان سامانتشي مستلقياً في ظل الشجرة ظهرت هناك أفعى تسعى نحو أعلى الشجرة حيث شاهدت فراخ سيمورغ. وما إن شاهدت الفراخ الأفعى وهي تسعى نحوها حتى راحت ترتجف وتصرخ هلعاً وخوفاً. لقد فتح الفتى عينيه من النوم فوجد الأفعى تسعى نحو الفراخ، ونهض فقتلها وقطعها وقسّمها أربعة أقسام ورمى بها إلى أعلى الشجرة. أكل الفراخ ثلاثة أقسام. وأما رأس الأفعى فتركوه للأم. وعندما عادت أم الفراخ وجدت هناك شخصاً نائماً - وقالت لنفسها: «يبدو أنّه هو الذي يأكل فراخي كل سنة».

رفعت أم الفراخ حجراً كبيراً وقالت - أضرب الشخص بهذا الحجر لأقتله. إلا أن الفراخ

صرخت: «لا تضربيه، إنه أنقذنا». فوضع الطير سيمورغ الحجر. وقالت الفراخ الصغار: «إن هذا الفتى قد أنقذنا». وأعطوا أمهم رأس الأفعى، فأكلته. كانت هذه الأفعى تأكل الصغار في كل سنة.

وبعد ذلك فتح الطير سيمورغ جناحيه فوق سامانتشي يظلله من أشعة الشمس.

وعندما استيقظ البطل توجه سيمورغ إليه بالأسئلة والاستفسارات وقال - يجب أن تأخذ معك أربعين قطعة من لحم الغنم، وماء في أربعين قربة. وعندما أعدّ البطل كل هذا قال سيمورغ للبطل: «إذا طلبت منك الماء فأعطني اللحم، وإذا طلبت منك اللحم فأعطني الماء». وطار بالبطل منقذاً له. وبعد طيران طويل أنزل سيمورغ البطل إلى الأرض.

يوجد تصور مثل هذه الأعمال الملحمية في القصص العربية المعاصرة أيضاً. ففي قصة «الملك وأبناؤه الثلاثة»(١٦) التي أصدرها ونشرها عبد الكريم الجهيمان يبحث بطل القصة محمد عن طرق الخروج إلى النور من تحت الأرض السابعة؛ وفجأة شاهد أفعى تقدم على ابتلاع نسر صغير. «فاستلّ محمد سيفه وقتل الأفعى وقسّمها قطعاً صغيرة ورمى بها إلى العشّ. وأما النسر الصغير الذي أنقذه محمد فقد تناول قطعة من اللحم وأخفاها في زاوية العش. وهنا عادت أم النسر الصغير وشاهدت شخصاً نائماً تحت الشجرة فرفعت حجراً كبيراً ثقيلاً وأرادت قتل الشخص لأنها فكرت بأنه جاء لاختطاف فراخها/ النسور. وبعد ذلك تحدثت النسور الصغار لأمها عن الأفعى الكبيرة التي قتلها الفتى، ولكنها لم تصدقها ولم تؤمن بما قالت. وعند ذلك أخرج النسر الذي أنقذه الفتى قطعة لحم الأفعى وأراها لأمه، فهدأت الأم وصدقتها. وعندما استيقظ محمد قالت أم النسر: «اطلب كل ما تريد».



«أساطير شعبية» بالروسية

فطلب منها أن ترفعه فوق الأرض عالياً. وهكذا وضعته على ظهرها وطارت به بعيدا، وأخيراً هبطت به أمام قصر الملك مباشرة.

إن باعث إنقاذ البطل للنسور الفراخ، وخروجه وارتفاعه فوق الأرض عالياً يوجد في قصص من كتاب عبدالكريم الجهيمان أيضاً. ومن هذه القصص قصص مثل - «العشب السحري» و«الإخوة الثلاثة والطير الذهبي». ومع مرور الزمن، فإن التركيب الملحمي لهذا الباعث قد تعرض لتغيرات محددة. وخاصة في قصة «الإخوة الثلاثة والطير الذهبي» حيث يُجعَلُ رمزُ القوى الشريرة التي تشكل الخطر على النسور الصغار ليس الأفعى، بل الشيطان.

إننا نرى أن تفسير الباعث هنا المرتبط بنموذج الأفعى هو التفسير الأقدم، وبعد ذلك، وتحت تأثير العقيدة الإسلامية جرى استبدال الشيطان بالأفعى.

إن الطير الذي يرفع البطل فوق الأرض إلى الأعلى يسمى في (فلكلور) عرب بخارى باسم (سيمورغ). وهذا يصوّر التأثير الملحمي للإبداع الشفاهي الشعبي الأوزبكي، وحسب المفهوم الأسطوري القديم، فإن سيمورغ هو الطير الذي حمى البطل، ونقله إلى أجواء ملحمية أخرى. وإن الموضوعات المرتبطة به توجد في (فلكلور) شعوب العالم، وغدت أساساً لظهور عدد من السمات العامة المشتركة للنماذج المختلفة.. وهذا الطير يسمى عند الأوزبك باسم سيمورغ، وعند القاراقالباق - سيوميريك أو قاراقوش، وعند الأويغور - سيميرو، ولدى البشكير - سامارو أو خوماي، وعند القيرغيز - علي قاراقوش، وعند العرب - خومو، روح أو آنكا، وعند الأكراد - سيمير، وعند الأرمن - سيناما، وفي جميع القصص يعدّ نموذجاً ملحمياً يقوم بمهمة إخراج البطل على جناحيه من عالم ما تحت الأرض إلى سطحها.

يرجع باعث انقضاض الأفعى على فراخ الطير التي تعيش على الشجرة إلى التصورات الخيالية

لأسلافنا المرتبطة بشجرة الحياة. ووفقًا لهذه الأسطورة فإنه إذا كان الطير يعيش على قمة الشجرة، فإن الأفعى تزحف تحت جذورها. وهذا يعني أن الطير هو رمز العالم الأعلى (السماء)، والإنسان أي بطل القصة هو - وسط العالم (الأرض)، أما الأفعى فهي - العالم الأدنى (تحت الأرض).

نتائج عامة

على أساس الدراسة المقارنة لموضوعات قصص عرب وسط آسيا (وبالأصح العرب الذين يعيشون في ولاية بخارى) مع القصص العربية المعاصرة في شبه الجزيرة العربية توصلّنا إلى النتائج العامة الآتية:

- لقد حافظ عرب وسط آسيا الذين يعيشون بعيدًا عن مناطقهم العربية الأصلية، بين الشعوب المنتسبة إلى أسر لغوية ومجموعات عرقية (اثنوغرافية) أخرى - حافظوا على تقاليدهم الرفيعة في فن القصة. وهذه التقاليد تتميز بكونها تعكس - بصورة تامة - الخواص الملحمية للتراث الشعبي العربي.

حافظ عرب وسط آسيا على تقاليدهم الرفيعة في فن القصة والمكتسبة من التراث الشعبي العربي

- يوجد في التقاليد الملحمية لعرب وسط آسيا تقليد استعمال لغتين في فن القصة. فتبعًا للتكوين الملحمي للجمهور المستمع، ومستوى معرفة اللغات التي تجري بها رواية القصة، يتكلم القاص في قصص معينة باللغتين العربية والأوزبكية أو العربية والطاجيكية.

- لقد أغنى تراث (فلكلور) عرب وسط آسيا - الذين عاشوا قرونًا طويلة جنبًا إلى جنب مع الأوزبك والطاجيك - باستمرار مضمون القصص، وذلك تحت تأثير التقاليد الملحمية التركية والإيرانية.

- على الرغم من أن الميزات الملحمية العامة للإبداع الشعبي الشفاهي للعرب الذين يعيشون في شبه الجزيرة العربية بقيت محفوظة في مأثورات (فلكلور) عرب وسط آسيا الشعبية، فإنه يبدو بوضوح وجلاء تأثير (فلكلور) الشعوب التركية والفارسية في تكوين موضوع القصة والنظام الأدبي لقصص عرب وسط آسيا.

- تظهر الدراسة المقارنة لقصص عرب وسط آسيا مع القصص العربية المعاصرة، أنه توجد وحدة مشتركة من حيث النوع والنمط بين التقاليد الملحمية التي تطورت بصورة مستقلة بعضها عن بعض في منطقتين منفصلتين الواحدة عن الأخرى.

- إن الدراسة المقارنة لقصص عرب وسط آسيا مع القصص العربية المعاصرة توفر إمكانية واسعة وكبيرة لدراسة الترقي الأدبي في الموضوعات، والطبيعة الملحمية للقصص العربية من حيث العلاقات التراثية (الفلكلورية) المتبادلة.

المراجع

١. عبدالكريم الجهيمان، الأساطير الشعبية من قلب جزيرة العرب، تقديم وترجمة إلى اللغة الروسية، د. شاه رستم موساروف، موسكو ١٩٩٩م.
٢. الحكايات الشعبية الأوزبكية، المجلد الأول، طشقند، ١٩٦٦م، ص٧٦ - ٧٨.
٣. بروب و.ي، الجذور التاريخية للحكايات الشعبية، موسكو ١٩٤٦م، ص٣٠ - ٣٧.
٤. فريزيرج، د. الغصن الذهبي، موسكو ١٩٨٠م، ص٥٥٨ - ٥٥٩.
٥. عن الحكايات الشعبية الأوزبكية، طشقند ١٩٦٤م، ص١١٣.
٦. محمد جورابيف، تأصيل، عدد الثلاث، مجلة اللغة الأوزبكية وآدابها، طشقند، العدد الثالث، ١٩٨٣م، ص٣٤.
٧. محمد جورابيف، الأرقام السحرية في الحكايات الشعبية الأوزبكية، طشقند، دار الفن للنشر، ١٩٨١م. ص٤٩.
٨. الأساطير الشعبية، ص٤٠ - ٤١.
٩. الأساطير الشعبية، ص٤١.
١٠. سيريتلي، اللهجات العربية لوسط آسيا، ص١٩٤.
١١. الحكايات الشعبية الأوزبكية، طشقند ١٩٧٩م، ص١٠٢.
١٢. الحكايات الشعبية الأوزبكية، طشقند ١٩٦٩م، ص٥٤.
١٣. دياكونوفا ف. ب. الآراء الدينية عن الطبيعة والإنسان في آلطاني، لينيغراد ١٩٧٦م، ص٢٨٠.
١٤. محمد جورابيف، الأرقام السحرية في الحكايات الشعبية الأوزبكية، ص٥٩ - ٦٠.
١٥. سيريتلي، ج.و. اللوحات العربية في وسط آسيا، ص١٥٤ - ١٦٧.
١٦. الأساطير الشعبية، ص٥٦ - ٥٧.

فكر

ابن خلدون والأطر الاجتماعية للفلسفة

سعيد الغانمي
زوارة - ليبيا



ابن خلدون

منذ بدايات الفلسفة عند الإغريق، وهي مقتنعة بأنها علم النخبة الكلي، الذي كان من شأن الإلمام به أن يعود على الفرد والمجتمع بنيل السعادة القصوى، لأنها وحدها العلم المطلق المعصوم أبدًا. ولعلَّ هذا هو ما عبَّر عنه أرسطو (٣٨٥ ق.م - ٣٢٢ ق.م) في مرحلته الأفلاطونية، حين كتب: «إن الفلسفة وحدها تنطوي على الحكم الصحيح والتبصر المعصوم من الخطأ الذي يملك القدرة على تحديد ما ينبغي علينا أن نأتي من الأفعال، وما ينبغي أن ندع»(١).

ومنذ تلك الحقبة الإغريقية أصبحت الفلسفة «أمّ العلوم»، ومعياراً لها، أي العلم الأول الذي ينبغي على بقية العلوم أن تقلده لتكتسب شرعية تسمية العلم. وبهذا صارت للفلسفة أسبقية نظرية على العلوم الأخرى جميعا، وأولية معرفية عليها، لم تستطع العلوم مساءلتها أو وضعها تحت طائلة النقد إلا في العصر الحديث. ويشمل هذا العلوم الأخرى جميعاً سواءٌ أكانت علوماً طبيعية أم علوماً إنسانية. فماذا كان موقف ابن خلدون، مؤسس علم العمران والاجتماع من أولية الفلسفة معرفياً على علمه الجديد، كما أراد له أن يكون؟

مدينة الفلاسفة

أحرج سقراط (٤٧٠ق.م - ٣٩٩ق.م) محدثه في «جمهورية أفلاطون» ليصل به إلى نتيجة كان قد أعدّ الحوار كله ليصل به إليها، وهي أنه «لا دولة، ولا نظام، ولا فرد، يمكن أن يبلغ الكمال، ما لم تُلق مقاليد الحكم فيها إلى أيدي الفلاسفة»(٢).

يجب أن يحكم الفلاسفة الدول والمدن الفاضلة؛ لأنّ الفيلسوف يتمتع بموهبة المعرفة الكلية المعصومة عن الخطأ. وقد حظيت هذه الفكرة الأفلاطونية بالشيوع لدى الفلاسفة فقد عدوها تقليداً وعرفاً متبعاً. فنجد الفارابي

يكرّر مراراً أنّ المدينة الفاضلة لا يمكن أن يرأسها أيّ شخص كيفما اتفق، بل لابدّ أن تجتمع لدى رئيسها جملة من الخصال النظرية الكلية التي تجعل منه فيلسوفاً معصوماً(٣). ومن ثم يصرّ الفارابي على أن اسم الملك الذي يدلّ على التسلط والاقتدار، يجب ألاّ يعني إلا الاقتدار «بعظم قوة المعرفة، وعظم قوة الفكر، وعظم قوة الفضيلة والصناعة، وإلا لم يكن ذا مقدرة على الإطلاق ولا ذا تسلط.. فلذلك صار الملك على الإطلاق هو بعينه الفيلسوف وواضع النواميس»(٤).

وقد انطلت هذه المنزلة الخاصة التي يحظى بها الفيلسوف رئيساً للمدينة الفاضلة، أو الحكيم/ الحاكم حتى على ابن رشد نفسه، الذي وافق الفارابي هنا على ضرورة أن يكون الملك هو نفسه الفيلسوف والإمام



ابن سينا



الفارابي

وواضع النواميس.

يقول في تلخيصه جمهورية أفلاطون: «لذلك فهذه الأسماء أشبه بالمتواطئة، أعني الفيلسوف والملك وواضع الشرائع وكذلك الإمام، لأن الإمام في اللسان العربي هو الذي يؤتم به في أفعاله. ومن يؤتم به في هذه الأفعال هو الفيلسوف. إذن فهو الإمام بإطلاق»(٥).

كان ابن خلدون يعرف أن التفكير في الشروط الاجتماعية للمعرفة هو الذي يتيح لهاأن تتحرر من هذه الشروط، وأنّ توضيح الأسس الاجتماعية للفكر، قد يفتحه على آفاق جديدة يتحرر بها من إطلاق جعل الفلسفة أساساً للنقد الكلي المتعالي للتفكير بالمجتمع. بعبارة أخرى، كان على ابن خلدون أن يقلب الإجراء الذي اتبعه الفلاسفة، فبدلاً من أن يجعل الفلسفة المعيار المعرفي للتفكير بالمجتمع، كان لابدَّ أن يجعل علمه الجديد عن الاجتماع والعمران أساساً لفحص المعرفة الفلسفية نفسها.

لاحظ ابن خلدون أنّ العلماء والفلاسفة معتادون التفكير بالكليات والأشياء العمومية، «فهم متعودون في سائر أنظارهم الأمور الذهنية والأنظار الفكرية لا يعرفون سواها. والسياسة يحتاج صاحبها إلى مراعاة ما في الخارج وما يلحقها من الأحوال ويتبعها». فضاء اشتغال الفلسفة هو التفكير النظري المجرّد بقياس الأشياء على نظائرها، والفيلسوف يفكّر بالأمور الكلية، دون أن يعير انتباهاً إلى الوقائع الخارجية الجزئية، بل يجاهر الفيلسوف باحتقارها وازدرائها. بينما فضاء السياسة هو العمل بالجزئيات الخارجية المتحولة التي لا تلبثُ عند شكل ولا يمكن قياسها على نظير. والسياسي يهتم بهذه الجزئيات والوقائع الخارجية التفصيلية. وشتانَ ما بين الفضاءين. لذلك حين يفكر الفيلسوف بالسياسة فإنه يتناولها بوصفها علماً «كليًا» مجرداً، ومن هنا قلّما ينجو من الغلط.

ويلحق بالفلاسفة في هذا التناول «أهل الذكاء والكيس من أهل العمران، لأنهم ينزعون بثقوب أذهانهم إلى مثل شأن الفقهاء من الغوص على المعاني والقياس والمحاكاة، فيقعون في الغلط»(٦). وهكذا، فالعلماء والفلاسفة على عكس السياسيين، الذين هم بسطاء في تفكيرهم، ولا يهتمون إلا بالمتغيرات، بلا قياس ولا تعميم. هذا ما يتعلق بالأساس النظري في طبيعة تفكير الفيلسوف والعالم.

غير أن نقد ابن خلدون لحكم الفلاسفة لا يتوقف عند هذا الحدّ، بل يمضي أبعد من ذلك، ليكشف عن وجه المصلحة في طبيعة الحكم. فيوضح أنّ مصلحة الرعية في الملك لا تتعلق بشكله أو وسامته، أو اتساع علمه أو قدراته الفلسفية. بل يرى ابن خلدون أنّ من الضروري للحاكم أن يكون متوسط الذكاء، لأن الإفراط في الذكاء «عيب في صاحب السياسة، لأنه إفراط في الفكر، كما أنّ البلادة إفراط في الجمود. والطرفان مذمومان من كلّ

صفة إنسانية»(٧). لأنّ الحاكم إذا كان مفرطًا في ذكائه، فقد يحمل رعيته مالا يطيقون، فكيف به إذا كان فيلسوفًا أو عالمًا؟ ويستشهد ابن خلدون تأييدًا لصحة رأيه في اعتدال مستوى تفكير الحاكم بالحديث النبوي: «سيروا على سير أضعفكم»، وبقصة عزل عمر بن الخطاب لزياد بن أبي سفيان، حين قال زياد: لم عزلتني يا أمير المؤمنين؟ ألعجزٍ أم لخيانة؟ فقال عمر: لم أعزلك لواحدة منها، ولكني كرهت أن أحمل فضل عقلك على الناس.

خطأ السياسة المدنية عند أفلاطون أو الفارابي أو سواهما في رأي ابن خلدون أنها مستمدة من أحكام كلية افتراضية متعالية لا صلة لها بالواقع. بينما علم العمران الذي يدعو أن يكون قانونًا للفلسفة النقدية الواقعية، ومعاينة المتغيرات التاريخية الملموسة لا يعنى بالأمر الواجب، بل بالأمر الواقع. ومن هنا فهو في قطيعة مع السياسة المدنية الافتراضية: «وما تسمعه من السياسة المدنية فليس من هذا الباب، وإنما معناه عند الحكماء ما يجب أن يكون عليه كلّ واحد من أهل ذلك المجتمع في نفسه وخلقه، حتى يستغنوا عن الحكام رأسًا ويسمّون المجتمع الذي يحصل فيه ما يسمّى من ذلك بالمدينة الفاضلة، والقوانين المراعاة في ذلك، بالسياسة المدنية. وليس مرادهم السياسة التي يُحمَل عليها أهل الاجتماع بالمصالح العامة، فإنّ هذه غير تلك، وهذه المدينة الفاضلة عندهم نادرة أو بعيدة الوقوع، وإنما يتكلمون عليها على جهة الفرض والتقدير»(٨).

خطأ السياسة المدنية عند أفلاطون أو الفارابي أو سواهما في رأي ابن خلدون أنها مستمدة من أحكام كلية افتراضية متعالية لا صلة لها بالواقع

وهم السعادة النظرية

عرّف أرسطو السعادة بأنها «اللذة الناشئة عن تحصيل الإنسان لكمال الفعل المقوّم لطبيعته»(٩). وهو تعريف يجمع بين اللذة والسعادة ويجعلهما شيئًا واحدًا. وقد كان أرسطو، في شبابه وفي نضجه معًا، يحضّ على الفلسفة لكونها غاية ما تطمح إليه المعرفة الإنسانية، فلا يمكن تحقيق السعادة إلا بالفلسفة. فالمعرفة الفلسفية أرفع المعارف وأكملها رتبة. ومادامت الأداة التي تتحصل بها هذه المعرفة، وهي العقل، خاصة بالإنسان، إذن فالطريق التي تتحقق بها السعادة هي التفلسف. يقول أرسطو: «إنّ التأمل والمعرفة جديران بأن يسعى إليهما الإنسان، إذ بغيرهما يستحيل على المرء أن يحيا الحياة التي تليق بإنسانيته. ولكنهما كذلك نافعان للحياة العملية، فما من شيء يمكن أن يبدو لنا خيرًا إن لم تتحقق الغاية منه عن طريق التدبر والنشاط العاقل الحكيم. وسواء أكانت الحياة السعيدة تكمن في البهجة والهناء، أم في الفضيلة والسموّ الخلقي، أم في التعقل وممارسة العقل، فلا بدّ للإنسان في كلّ هذه الأحوال أن يتفلسف»(١٠). ويخلص أرسطو إلى أنّ السعادة، إذا كانت هي القدرة على التبصر والتفكير، فمن الواضح أنّ الحياة السعيدة ستكون من نصيب الفلاسفة، وإذا كانت فضيلة النفس أو الحياة المفعمة بالفرح فستكون من نصيبهم أيضًا. وفي كل الأحوال يجب التفلسف على كلّ القادرين عليه(١١).

لقيت هذه الأفكار رواجًا كبيرًا في العالم العربي الإسلامي. فصارت النخب المهيمنة تطلق على سواد الناس مصطلحات تميزها ثقافيًا مثل: الغوغاء والطغام والجمهور والعامة إلخ... يحكى عن الفضل بن يحيى (ت ١٩٣هـ) أنه قال: «الناس أربع طبقات: ملوك قدّمهم الاستحقاق، ووزراء فضلتهم الفطنة والرأي، وعلية أنهضهم اليسار، وأوساط ألحقهم بهم التأدب. والناس بعدهم زبد جُفَاء، وسيل غُثاء، لُكع ولكاع، وربيطة اتضاع، همّ أحدهم طعمة ونومة»(١٢). ويقال: إن ثمامة بن الأشرس (ت: ٢١٣هـ) قال للمأمون (ت:٢١٨هـ) ذات مرة «ما العامة؟ والله لو وجهت

إنساناً على عاتقه سواد ومعه عصا لساق إليك عشرة آلاف منها، وقد سواها الله بالأنعام»(١٣).

وحين ازدهرت الفلسفة في العالم الإسلامي، ارتبط أغلب الفلاسفة بطبقة الخاصة، وصاروا شارحين لفكرها. ونحن نعرف أنّ الكندي (ت:٢٦٠هـ) عمل في بلاط العباسيين، وكان مؤدب ابن المعتصم، وعمل الفارابي (ت:٣٣٩هـ) في بلاط سيف الدولة (ت:٣٥٦هـ)، وكان ابن سينا (ت:٤٢٨هـ) وابن طُفيل (ت:٥٨١هـ)، وابن رشد (ت:٥٩٥هـ) من الوزراء والمتنفذين. وهذا ما جعل الفلاسفة يدافعون عن الخاصة ويحتقرون العامة، بل إنهم أعطوا لنظرية المعرفة أساساً طبقياً، فخصوا الفلاسفة والنخبة بالبرهان، وجعلوا الجدل والإقناع من نصيب العامة. ولم يسلم معدمو الفلاسفة من أمثال التوحيدي (ت نحو ٤٠٠هـ) والعامري (ت: ٣٨١هـ) من رشاش هذه النظرة الطبقية للمعرفة، لأنّ المسألة تتعلق بطبيعة الخطاب الفلسفي نفسه، لا بموقف شخصي أو أخلاقي من العامة.

من ناحية أخرى، فإنّ كون الفلسفة أعلى العلوم رتبة، أي أهمها في سلّم ترتيب التحصيل والدراسة، سيترجمها الكندي، أول فلاسفة العرب، بأنها «أشرف العلوم».

وحينئذ سينفذ مفهوم «الشرف» الأخلاقي إلى صميم التصنيف الفلسفي للعلوم. وهو ما سيؤدي إلى معيارين أخلاقيين في التصنيف العلمي، يتولى الكندي صياغة أولهما، وهو: أن «علم العلة أشرف من علم المعلول»(١٤)، ويتولى الغزالي (ت:٥٠٥هـ) صياغة ثانيهما، وهو أن شرف العلم من شرف المعلوم، ويُدرك شرف العلم بشيئين: أحدهما بشرف ثمرته، والآخر بوثاقة دلالته»(١٥)، أي إما بالفائدة العملية منه، وإما بقوة براهينه الداخلية. وفي الحالتين تتبوأ الفلسفة الأولى مرتبة الشرف العليا في البحث المعرفي والمنزلة الاجتماعية معاً.

يخصص الفارابي كتابين من كتبه لمناقشة فرضية التوصل إلى السعادة عن طريق ممارسة الفلسفة، وعلاقة هذه الفرضية بالأساس المعرفي لانقسام المجتمع إلى خاصة وعامة. فيقرر في كتاب «تحصيل السعادة» أنّ الأشياء التي تتحقق بها السعادة في الدنيا والآخرة أربعة، وهي: الفضائل النظرية والفضائل الفكرية والفضائل الخلقية والصناعات العملية. وبما أنّ البراهين اليقينية تفضي إلى السعادة القصوى والكمال الأخير الذي يبلغه الإنسان»(١٦)، فليس بعد السعادة غاية أخرى، بل السعادة غاية الغايات التي تؤثر لأجل ذاتها. وقد انتبه الفارابي إلى الامتياز الذي يحظى به الفلاسفة، في ضوء ذلك، إذ ليس جميع الناس متساوين في المعرفة النظرية والفضيلة الفكرية. بل هناك فروق واختلافات بين الناس في درجة تلقي العلوم. وهذا ما يوجب اختلافهم في نيل السعادة.


ابن رشد

هنا يدعو الفارابي إلى جعل الطرق الإقناعية من شأن العامة، بينما ينفرد الفلاسفة والخاصة بالطرق البرهانية. وفي الواقع، فإنّ الفارابي يبالغ في امتهان العامة حين يسمّي الإنسان العامي بالإنسان البهيمي والإنسان الخاصي بالإنسان الحر(١٧). ونجد ما يماثل هذا الرأي شائعاً لدى عموم الفلاسفة من ابن سينا إلى ابن رشد، فنجد لديه أنّ السعادة «هي المعرفة بالله عز وجل وبمخلوقاته»، ولكن لا على الطريقة الجدلية، بل على الطريقة الفلسفية البرهانية. وهكذا يتوصل ابن رشد إلى أنّ الفلسفة اليونانية والشريعة الإسلامية طريقان إلى هدف واحد: «إنّا معشرَ المسلمين نعلم على القطع أنه لا يؤدي النظر البرهاني إلى مخالفة ما ورد به الشرع، فإنّ الحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له»(١٨).

كان ابن خلدون، في شبابه، يتفق مع الفلاسفة في أنّ معرفة الفلسفة الأولى يمكن أن تؤدي إلى السعادة، ويتفق مع أرسطو في تعريف السعادة بأنها «حصول النعيم واللذة باستيفاء كلّ غريزة ما تشتاق إليه من مقتضى طبعها، وذلك هو كمالها»(١٩). لكنه، في

مرحلة «المقدمة» يُنكر أن يكون المدخل الصحيح لنيل السعادة قريناً بالتأمل النظري. وطَرْحُ السعادة على أنها قضية نظرية طرحٌ مغلوط في رأيه. فالسعادة ليست بالأمر الكلي المطلق. بل هي قضية اجتماعية تتعلق بنوع المجتمع وطراز الحياة وأسلوب المعاش الذي يقرره لأفراده. وهناك ثلاثة أنواع من المجتمعات: مجتمع ضروري، ومجتمع حاجي، ومجتمع كمالي. وليس من شك في أنّ المجتمعين الأول والثاني يسيران بطبيعتهما باتجاه المجتمع الثالث. ولا يتم ذلك إلا عن طريق مراكمة الكسب وقوة العمل للحصول على مزيد من الكمالات.

فليست السعادة، إذن، هي الفوز النظري بمعرفة متعالية لسرٍّ فلسفي، بل هي حصول لذة بإدراك الملائم، وإشباع حاجة مناسبة. لا يمكن، مثلاً، لمن لا يحصل على قوت يومه أن يفكر بإشباع حاجة كمالية، بل يحتاج أولاً إلى إشباع الحاجات على التدريج. وحين ينتهي من إشباع الحاجات الضرورية، فإنه يلتفت بعدها إلى الكمالات.

ويشهد التاريخ لابن خلدون بأن السعادة ليست مجرد موضوعة نظرية يحصل عليها الفرد بمراكمة المعارف، بل هي موضوعة اجتماعية تتفاوت فيها أنصبة الأفراد والطبقات والمجتمعات بمراكمة المكاسب والثروات: «وذلك أن الأمة إذا تغلبت وملكت ما بأيدي أهل الملك قبلها، كثر رياشها ونعمتها، فتكثر عوائدهم، ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته إلى نوافله ورقته وزينته، ويذهبون إلى اتّباع مَن قبلهم في عوائدهم وأحوالهم، وتصير لتلك النوافل عوائد ضرورية في تحصيلها، وينزعون مع ذلك إلى رقة الأحوال في المطاعم والملابس، والفرش والآنية، ويتفاخرون في ذلك، ويفاخرون فيه غيرهم من الأمم، في أكل الطيب، ولبس الأنيق، وركب الفاره، ويناغي خلفهم في ذلك سلفهم إلى آخر الدولة، وعلى قدر ملكهم يكون حظهم من ذلك وترفهم فيه، إلى أن يبلغوا من ذلك الغاية التي للدولة، إلى أن تبلغها بحسب قوتها وعوائد مَن قبلها، سنة الله في خلقه والله تعالى أعلم»(٢٠).

السلطة والطبقة

يُطلق ابن خلدون على السلطة اسم «الجـاه»، وهو يعرّف الجاه بأنه «القدرة الحاملة للبشر على التصرف فيمن تحت أيديهم من أبناء جنسهم بالإذن والمنع والتسلط بالقهر والغلبة ليحملهم على دفع مضارهم وجلب منافعهم في العدل بأحكام الشرائع والسياسة، وعلى أغراضه فيما سوى ذلك»(٢١).



أفلاطون وأرسطو

إذا ترجمنا مفهوم ابن خلدون عن السلطة أو الجاه هذا إلى لغة حديثة فسنقول: إن السلطة هي ممارسة العنف «النفسي أو الجسدي» من لدن طبقة أو شخص من المجتمع على الطبقات الأخرى التالية له في الترتيب للحفاظ على منظومة من القيم. وهذا يعني أنّ المجتمع يتكون من طبقات متعددة، فيها العامي والخاصي، المتعلم والجاهل، الفيلسوف والراعي، وأنّ جميع هذه الطبقات تتصف بحكم طبيعتها باحتياج بعضها إلى بعض. لكنها تتصف أيضًا بالتغالب والتنافس لزيادة مكاسبها وثرواتها. كل طبقة تفرض سلطتها على مَن دونها، وتتملق مَن فوقها وهي جميعًا في تغير مستمر بحسب ما تمليه الظروف والأحوال. يقول ابن خلدون: «إنّ كل طبقة من طباق أهل العمران - في مدينة أو إقليم - لها قدرة على مَن دونها من الطباق. وكلّ واحد من الطبقة السفلى يستمد بذي الجاه من أهل الطبقة التي فوقه، ويزداد كسبه تصرفًا فيمن تحت يده على قدر ما يستفيد منه. والجاه على ذلك داخل على الناس في جميع أبواب المعاش، ويتسع ويضيق بحسب الطبقة والطور الذي فيه صاحبه، فإن

كان الجاه متسعًا، كان الكسب الناشئ عنه كذلك، وإن كان ضيقًا قليلاً فمثله»(٢٢) يتكون المجتمع، إذن، من طبقات اجتماعية متعددة بحسب الموقع الاجتماعي، لا من طبقتين اثنتين بحسب الموقع الثقافي، كما يزعم الفلاسفة والمتكلمون. وهذه الطبقات تتسم بسمتين اثنتين في وقت واحد: التعاون لحفظ مصالح النوع من جهة، والصراع والتغالب لحفظ مصالح طبقة أو فرد فيها من جهة أخرى. وهذا ما تقتضيه طبائع العمران، وما تنص عليه الشرائع الإلهية. ولكي يدعم ابن خلدون رأيه، يستشهد بالآية القرآنية الكريمة: *ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتّخذ بعضُهم بعضًا سخريًا، ورحمةُ ربّك خيرٌ مما يجمعون.* **الزخرف: ٣٢**. ولا يغفل ابن خلدون الإشارة إلى أنّ هذه الجبرية تتعارض مع الرحمة



رسم لسقراط يصور لحظة تناوله السم

الإلهية، فينبه على أنّ التعاون مقصود في العناية الربانية بالذات، أمّا التغالب «فداخل فيها بالعرض، كسائر الشرور الداخلة في القضاء الإلهي، لأنه قد لا يتم وجود الخير الكثير إلا بوجود شرّ يسير من أجل المواد، فلا يفوت الخير بذلك، بل يقع على ما ينطوي عليه الشرّ اليسير. وهذا معنى وقوع الظلم في الخليقة فتَفَهَّمْ». ويبقى في النهاية أنّ أحوال المجتمع وتغيراته أمور نسبية: «فتفطَّنْ لهذا السرّ فإنه خفي عن الناس، وأعلم أنها أمور متناسبة [= نسبية]، وهي حال الدولة في القوة والضعف، وكثرة الأمة أو الجيل، وعظم المدينة أو المصْر، وكثرة النعمة واليسار»(٢٣).

المجتمع، من حيث هو مجتمع، بحاجة إلى جميع أفراده وطبقاته. هو بحاجة إلى الطبيب والفلاح والحائك والمحتسب والتاجر والفيلسوف...إلخ. وقد أشار الغزالي إلى أنّ المهن والصناعات من فروض الكفاية، أي الفروض التي إذا قام بها فرد من المجتمع سقط وجوبها عن بقية الأفراد. وفي هذا تتضح علاقة التعاون الرابطة لأعضاء المجتمع الواحد. لكنّ كلّ طبقة أو فئة تميل إلى استثمار السلطة لصالحها الخاص بغية تحسين وضعها والترقي بحالها. ويقتضي منها الاحتكام إلى السلطة أو الجاه أن تخضع لمن فوقها، وأن تتعالى على من دونها. فهي بالضرورة تتملق الوجهاء والمتنفذين لتستغل البسطاء والمستضعفين. أمّا الطبقة التي تعرض عن التملق، وتتخلق بالتكبر والشّمم، فغالبًا ما تحكم على نفسها بالخصاصة والفقر.

إذن، فما يزعمه الفلاسفة والمتكلمون من انفرادهم بكونهم الطبقة الخاصة ليس سوى «وهم» من أوهام تفوّقهم على العامة، وهو مظهر من مظاهر قانون التغالب بين الطبقات في المجتمع؛ لأن من الطبيعي أن تحشر الطبقة المهيمنة ثقافيًا الأدلة الثقافية والمعرفية لفرض سلطتها على الطبقة أو الطبقات الأدنى منها، وبما أن الأدلة هنا ليست سوى أدلة عقلية افتراضية، لا أثر فيها لقوة الوجود الموضوعي، إذن فهي ليست سوى أوهام تتوهمها الطبقة المثقفة، وتريد لجمهور الطبقات العامة الأخرى أن تصدق بها. لكنّ ما يحدث واقعيًا هو أنّ الجمهور يستهجن الطبقة المثقفة الخاصة ويستخف بآرائها، وبذلك تحصل فجوة تظلُّ في اتّساع مستمر بين جمهور العامة، والمثقفين خاصة، أو بين العلماء وأهل الصنائع. وعلى عكس العلماء والمثقفين يكون أهل الصنائع والتجار والبسطاء على استعداد للتضحية بهذا الترفع الكاذب، والتملق لمن هم فوقهم دون تردد. وهذا ما يُفضي إلى زيادة أسباب ثروتهم باستمرار.

ليست قطيعة ابن خلدون، إذن، مع أرسطو وأتباعه من الفلاسفة الإسلاميين، بل حتى مع نفسه في مرحلة الشباب، مما يتعلق بتعريفه للسعادة، لأنها بقيت عنده اللذة الناشئة عن تحصيل كمال طبيعي. وسواء أسميناها السعادة أم اللذة أم السلطة أم الترف أم الثروة،

فإنها بقيت هي هي كما في تعريف أرسطو. لكنّ ابن خلدون نقل مجال فاعليتها من الفرد إلى المجتمع، ومن الأخلاق إلى العمران. وبذلك أخضعها للنسبية والتغير، بدلاً من صفتي الإطلاق والثبات اللتين كانت تتسم بهما عند أرسطو وشرّاحه من فلاسفة الإسلام.

صيدلية ابن رشد

رأينا كيف تابع الفارابي والفلاسفة من بعده أفلاطون (٤٢٧ق.م -٣٤٧ق.م) وأرسطو في رأيهما عن السعادة، وتقسيمهما الناس إلى نخبة متفوقة هم الخاصة، وجمهور عريض لا يترددون في وصفه بالدونية. فماذا كان موقف ابن رشد، آخر عقلية فلسفية عظيمة في الأندلس، من هذا التقسيم؟

كان ابن رشد أيضاً يوافق على هذا التقسيم للناس على حسب مستويات تقبلهم للمعرفة: «فإذن الناس على ثلاثة أصناف: صنف ليس هو من أهل التأويل أصلاً، وهم الخطابيون الذين هم الجمهور الغالب.. وصنف هو من أهل التأويل الجدلي، وهؤلاء هم الجدليون بالطبع فقط أو بالطبع والعادة. وصنف هو من أهل التأويل اليقيني، وهؤلاء هم البرهانيون بالطبع والصناعة، أعني: صناعة الحكمة»(٢٤). غير أنه يعود في كتابه «الكشف عن مناهج الأدلة» إلى اختزال الصنفين الأول والثاني في صنف؛ لأنّ أهل الجدل والخطابة في رأيه، وهم الكثرة الغالبة من علماء الكلام، لا يختلفون عن الجمهور إلا في الدرجة. ولذلك يقسّم الناس صنفين: العلماء (ويعني بهم الفلاسفة البرهانيين) والجمهور (ويضمنهم طبعاً الجدليون وعلماء الكلام): «وهم صنفا الناس بالحقيقة، لأنّ هؤلاء هم الأصحاء، والغذاء الملائم إنما يوافق أبدان الأصحاء. وأمّا أولئك فمرضى، والمرضى هم الأقل.. وهؤلاء هم أهل الجدل والكلام»(٢٥). ولعله وصف «المرضى» بالقلة لأنّ المرض هو الحالة العارضة ولم يقصد أنهم قلة لإشارته السابقة إلى أنهم «الجمهور الغالب».

ما يزعمه الفلاسفة والمتكلمون من انفرادهم بكونهم الطبقة الخاصة ليس سوى وهم من أوهام تفوّقِهم على العامة، وهو مظهر من مظاهر قانون التغالب بين الطبقات في المجتمع

العامة، إذن، مرضى عند ابن رشد، و«يجب أن تكون لهم أهمية في تفكير الفيلسوف، إنه يعتبرهم مرضى في عقولهم. ولكنّ المرضى لا يجوز أن يُتركوا ليهلكهم المرض. فهم يجب أن يعالجوا بالدواء الذي يلائم مرضهم»(٢٦). ولأنّ ابن رشد كان طبيباً أيضاً، فقد كان مقتنعاً أيضاً بأنّ في الحكمة نوعاً من الدواء الروحي والنفسي، ويجب إعطاء هذا الدواء لهؤلاء المرضى على جرعات كلٍّ حسب احتياجه. أما إذا أُعطي المريض منهم الدواء كلّه دفعة واحدة، فقد يتسبب في إحداث أعراض جانبية، أقلُّها إفسادهم.

ومن هنا يكثر ابن رشد من استخدام المصطلحات الطبية في الفلسفة كالداء والدواء والمرض والسمّ والترياق...إلخ.

المعالجة بالأسرار المعرفية، كالمعالجة بالسموم، مسألة خطيرة؛ لأنّ أذهان الجمهور لا تحتمل هذه الأسرار، ولذلك فهي «بمنزلة مَن يسقي السموم أبدان كثير من الحيوانات التي تلك الأشياء سموم لها. فإنّ السموم إنما هي أمور مضافة [= نسبية]: فإنه قد يكون سُمّاً في حق حيوان شيء هو غذاء في حق حيوان آخر. وهكذا الأمر في الآراء مع الإنسان، أعني قد يكون رأي هو سم في حق نوع من الناس، وغذاء في حق نوع آخر»(٢٧).

والظاهر أن ابن رشد يقصد بالسموم هنا ما نسميه اليوم بالعقار. وكما أن العقّار ذو مفعولين، فكذلك الآراء الفلسفية، بحسب مستوى المتلقي الذي يستقبلها. إذا أُعطيت الآراء الفلسفية للعلماء المختصين فهي عقّار، أمّا إذا أُعطيت للجمهور غير العارف بها فهي سمّ قاتل.

لذلك على الطبيب/الحكيم الذي يعالجهم أن يشخص مستوى معرفتهم، وأن يضع في حسبانه مدى حاجة

هؤلاء المرضى إلى الدواء، وكم ينبغي أن يعطيهم منه؟ «فمن سقى السمَّ (= الدواء) في حق من هو في حقه سم (قاتل) فقد استحق القَوَد (= القصاص)، وإن كان في حق غيره غذاءً (= عقّاراً). ومن منع السمَّ ممن هو في حقه غذاء حتى مات، واجب عليه القَوَدُ أيضاً»(٢٨).

إذن فالإصلاح العقلي كالعلاج بالسموم مسألة خطرة، تتعلق بها أرواح الناس ومصير المعتقدات.

الحكماء المرضى

ابن خلدون الذي يعرف أنّ «الإنسان ابن عوائده ومألوفه، لا ابن طبيعته ومزاجه» يُدرك أنّ حكم الفلاسفة على الجمهور بأنهم مرضى هو جزء من المعرفة والطرق، لا جزء من الطبيعة. لذلك فإنّ المدخل إليه يكمن في «رأي» الفلاسفة، لا في «طبيعة» الجمهور. لقد لاحظ ابن خلدون أنّ هناك ارتباطاً بين المعارف والطرق الطبيعية لتحصيل المعاش. فالكيمياء، مثلاً، وهي صناعة تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب، لا يقول بها إلا مَن كان عاجزاً عن إدراك معاشه بالطرق الطبيعية، فيلجأ إلى ابتغائه من خلال وجوه غير طبيعية تيسِّر له أمر الحصول على كثير من المال دفعة واحدة. ولهذا يجد ابن خلدون أنّ أكثر مَن يهتمّ بصناعة الإكسير هم «الفقراء من أهل العمران حتى في الحكماء المتكلمين في إنكارها. فإن ابن سينا القائل باستحالتها كان من علية الوزراء، فكان من أهل الغنى والثروة، والفارابي القائل بإمكانها كان من أهل الفقر الذين يعوزهم أدنى بلغة من المعاش وأسبابه»(٢٩).

فإذا كان الخطأ في مثل هذه الآراء لا في طبيعة الموضوع المرصود، بل في رأي الراصد نفسه، وهو رأي مرتبط بالضرورة بوضعه الاقتصادي وموقفه النسبي في الموضوع المرصود، فلِمَ لا يصح هذا على موقف الفلاسفة من الجمهور أيضاً؟ ومثلما أثبتت التجربة أنّ الكيمياء صناعة وهمية يلجأ إليها المعوزون والفقراء بغية الحصول على الثروة السريعة بلا عمل أو كدح، مع أنّ ثمرتها مفقودة كما هو معروف سلفاً، فلِمَ لا يكون الحكم على الجمهور من هذا النوع أيضاً؟ أعني لِمَ لا يكون حكماً مغلوطاً، لا لمرض في الجمهور، بل لمرضٍ في الفلاسفة الذين يحكمون عليه، خصوصاً أنّ الوقائع تثبت أنّ الناس كانوا كما هم عليه دائماً، وسيظلون أبداً كما هم في طباعهم وأخلاقهم؟

> **كان ابن خلدون، في شبابه، يتفق مع الفلاسفة في أنّ معرفة الفلسفة الأولى يمكن أن تؤدي إلى السعادة لكنه، في مرحلة «المقدمة» يُنكر أن يكون المدخل الصحيح لنيل السعادة قريناً بالتأمل النظري**

هنا لا يتحدث ابن خلدون عن خاصة و عامة، بل عن «طباق أهل العمران»، وبذلك يجعل الأساس الاقتصادي قاعدة لتكوين الحكم. ويقضي القانون الاقتصادي بخضوع أهل الطبقة السفلى وتملقهم لصاحب الجاه من الطبقة العليا. وهذا التملق هو أحد الأسباب المؤدية إلى تأمين حصول أهل الطبقة السفلى من المتملقين على كسبهم المفضي بهم إلى السعادة.

وعلى عكس جمهور الناس الذين يمتازون بالتملق، يمتاز أهل الاختصاص والمعرفة بمرض اجتماعي يسميه ابن خلدون بالترفع أو الشَّمم أو التكبر. يقول عنهم: «واعلم أنّ هذا الكبر والترفع من الأخلاق المذمومة إنما يحصل لمن توهم الكمال، وأنّ الناس يحتاجون إلى بضاعته من علم أو صناعة، كالعالم المتبحر في علمه، أو الكاتب المجيد في كتابته، أو الشاعر البليغ في شعره، وكل محسن في صناعته يتوهم أن الناس محتاجون إلى ما بيده، فيحدث له ترفع عليهم بذلك... وتجد هؤلاء الأصناف كلهم مترفعين لا يخضعون لصاحب الجاه ولا يتملقون لمن هو أعلى منهم، ويستصغرون مَن سواهم لاعتقادهم الفضل على الناس، فيستنكف أحدهم من الخضوع للحاكم، ويعدّه مذلة وهواناً وسفهاً، ويحاسب الناس في معاملتهم إياه بمقدار ما يتوهم في نفسه، ويحقد على مَن قصّر له في

شيء ممّا يتوهمه من ذلك، وربّما يدخل على نفسه الهموم والأحزان من تقصيرهم فيه، ويستمرّ في عناء عظيم من إيجاب الحق لنفسه أو إباية الناس له من ذلك»(٣٠). وبسبب ترفعه على الناس، سرعان ما تنفصم عرا روابطه بهم، فيظل حبيس بيته في خصاصة وفقر، «وأمّا الثروة فلا تحصل له أبداً».

وإذا كان مرضى «الترفع» خاصًا بالعلية من أهل الاختصاص مثل العلماء المتبحرين والكتاب والشعراء، فإنه لدى الفلاسفة أخصُّ. لأنّ الفلاسفة بالذات يعتقدون بإمكان نيل السعادة عن طريق إدراك الموجودات المتعالية، أو الاتصال بالعقل الفعّال. لذلك «تجد الماهر منهم عاكفًا على كتاب «الشفاء» و«الإشارات» و«النجاة» و«تلاخيص» ابن رشد للنص من تأليف أرسطو وغيره، يبعثر أوراقها، ويتوثق من براهينها، ويلتمس هذا القسط من السعادة فيها. ولا يعلم أنه يستكثر بذلك من الموانع عنها. ومستندهم في ذلك ما ينقلونه عن أرسطو والفارابي وابن سينا أن من حصل له إدراك العقل الفعّال واتصل به في حياته، فقد حصل حظه من هذه السعادة»(٣١).

يبدو إذن، أن ابن خلدون لم يَرُقْ له أن ينظر الفلاسفة إلى المشكلات الاجتماعية نظرة فلسفية. بل أعاد النظر في صحة موقفهم نفسه.

ومن هنا لا نجده يخضع لهذا الرأي، قبل أن يتناول بالفحص إطاره الاجتماعي وقيمته المعرفية. وما دام قد رأى أنّ كلَّ شيء في تغير وتبدل، فالأولى أن يقع هذا التغير على صعيد الأفكار، بحيث لا تكون هناك «حكمة خالدة» إلا ولها إطار اجتماعي متغير. وحينئذ فقد كان الافتراض الأوّل الذي أخذ به ابن خلدون هو افتراض يقلب إجراء الفلاسفة. فبدلاً من النظر إلى الظواهر الاجتماعية نظرة فلسفية، تستمد رؤيتها من وحي حكمة خالدة، صار ينظر إلى الظواهر الفلسفية نظرة اجتماعية تضعُها في إطار النسبية المتحولة. وبدلاً من أن تكون الفلسفة معيار المجتمع، صار المجتمع نفسه معياراً لواقعية الفلسفة وتاريخيتها.

المراجع والهوامش

١. أرسطو، دعوة للفلسفة، ترجمة وتقديم د. عبدالغفار مكاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م، ص٣٣.
٢. أفلاطون، الجمهورية (ترجمة: حنا خباز)، ص١٩٣.
٣. الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، تقديم د. ألبير نصري نادر، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٢م، ص١٢٩.
٤. الفارابي، تحصيل السعادة، الأعمال الفلسفية، جـ١، تحقيق د. جعفر آل ياسين، دار المناهل، بيروت، ١٩٩٢م، ص١٨٩.
٥. ابن رشد، الضروري في السياسة، مختصر كتاب السياسة لأفلاطون، نقله عن العبرية: د. أحمد شملان، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٨م، ص١٣٦. ومع انتقال هذا النص من العربية إلى العبرية ثم إلى العربية مرة أخرى، فإنه مازال يرجّع صدى قول الفارابي: «لذلك صار الملك على الإطلاق هو بعينه الفيلسوف وواضع النواميس. وأمّا معنى الإمام في لغة العرب، فإنما يدلّ على من يؤتمّ به ويتقبل».
انظر: الفارابي، تحصيل السعادة، الأعمال الفلسفية، جـ١، ص١٨٩.
٦. ٧. ٨. ابن خلدون، المقدمة (ط. دار الشعب) ص٥١٠، ١٦٩، ٢٧٢.
٩. عبدالرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة ١٢٢/١.
١٠. أرسطو، دعوة للفلسفة، ص٤٤.
١١. المصدر نفسه، ص٦٣.
١٢. آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة د. محمد عبدالهادي أبو ريدة، جـ١، ص٢١٢.
١٣. أحمد أمين، ضحى الإسلام، جـ٣، ص١٥٢.
١٤. الكندي، الرسائل الفلسفية، تحقيق محمد عبدالهادي أبو ريدة، ط٢، القاهرة، ١٩٧٨م، جـ١، ص٣٠.
١٥. الغزالي، ميزان العمل، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف بمصر، ص٣٥١.
١٦. الفارابي، تحصيل السعادة، الأعمال الفلسفية، جـ١، ص١٨١.
١٧. الفارابي، التنبيه على سبيل السعادة، الأعمال الفلسفية، جـ١، ص٢٥٠.
١٨. ابن رشد، فصل المقال، المكتبة المحمودية، القاهرة، ١٩٦٨م، ص١٥.
١٩. ابن خلدون، شفاء السائل، ص١٨٩.
٢٠. ابن خلدون، المقدمة، ص١٥٠.
٢١. ٢٢ - ٢٣ - ابن خلدون: (ط دار الشعب) ص٣٥٢، ٣٣٤.
٢٤. ابن رشد، فصل المقال، ص٣٠.
٢٥. ابن رشد، فلسفة ابن رشد، ص٩٧.
٢٦. علي الوردي، منطق ابن خلدون، ص١٩٢.
٢٧. ٢٨. ابن رشد، تهافت التهافت، تحقيق د. محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٨م، ص٣٧٨، ٣٧٩.
٢٩. ٣٠. ٣١. ابن خلدون، المقدمة، ص٤٩٧، ٣٥٣، ٤٨٥.

الأصول الأحادية في اللغة العربية

عبدالرزاق فراج الصاعدي
المدينة المنورة - السعودية

اللغة العربية لغة اشتقاقية، ولكل كلمة متصرفة فيها أصل أو جذر تنحدر منه، أو تعود إليه، كما تعود الفروع والأغصان في الشجرة إلى أصولها أو جذورها.

ولا يخرج المتصرف من الكلام - من حيث الأصول - عن ثلاثة أنواع:

- أصول ثلاثية، مثل «نصر».
- أصول رباعية، مثل «دحرج».
- أصول خماسية، مثل «سفرجل».

ويكاد علماء العربية القدامى، وكثير من الدارسين اللغويين المعاصرين يجمعون على أن الأصول الثلاثية هي حجر الزاوية في لغة العرب، وهذه الأصول هي أعدل الكلام، وأكثره جرياً على الألسنة، فحرف يبدأ به، وحرف يوقف عليه، وحرف يُحشى به بين البدء والوقف، كما يقول ابن جني.

أما ما نقص عن الثلاثة في متصرف الكلام فقدروا فيه الحذف، مثل «دم» و«فم» وهما من (دم و) و(ف و هـ)، أما نحو: «قِ» نفسك عذاب النار فهو من (وقى).

وثمَّة طائفة من المحدثين المعنيين بأصول العربية (جذورها) نحتْ منحاً مختلفاً في الأصول؛ بقصد إعادة درس اللغة باسم التجديد والتطوير، والاستفادة من معطيات علم اللغة الحديث؛ فتوصلت إلى نتائج جديدة تخالف ما استقر عليه علماء العربية القدامى، مما بهر بعض طلبة العلم، وجعلهم ينظرون إلى مفهوم علماء العربية في الأصول على أنه طور تجاوزه الزمن، وأصبح جزءاً من التاريخ اللغوي.

ويبدو أن جُلّ النظريات الحديثة في أصول اللغة صدًى لنظرية «دارون»(١) في نشوء الكائنات الحية وتطورها وارتقائها.

تلك النظرية التي كان لها الأثر الأعظم في توجيه بعض العلوم الإنسانية، ومن بينها علم اللغة، الذي ازدهر في أول أمره في الغرب؛ فقد ظهرت الموازنات للغات (الهندو - أوربية) التي أدت إلى استخلاص قوانين تحكم التطور اللغوي لتلك اللغات غير العربية.

ومن أوائل من نادى بفكرة التطور اللغوي الشهير «فرانز بوب» أحد العلماء الألمان، الذي كان يرى أن العربية نشأت أحادية المقطع. ثم توالت بعده الدراسات في الغرب والشرق.

وأصحاب نظرية التطور يردون الكلام كله إلى المقطع الأحادي، وهو الثنائي. ومنهم من يرى أن الثنائي يردُّ بدوره إلى الأحادي!!

ومن هؤلاء الأحاديين اللغوي العربي: عبدالله العلايلي؛ وهو من أشد المتمسكين بنظرية التطور في العربية، إذ يقول: «وبناء على يقيننا في هذه النظرية، التي تمثل معقول العرب؛ لا يوجد مزيدات نشأت من اختزال وما أشبهه؛ وإنما بصورة مطردة: السداسي يرجع إلى الخماسي، وهذا إلى الرباعي، وهذا إلى الثلاثي، وهذا إلى الثنائي، وهذا إلى الأحادي»(٢).

ويعرف العلايلي الأصل الأحادي بقوله: «هو مجموعة حروف الهجاء؛ التي هي في ظننا لغة الإنسان الأول، المتباعد في القدم»(٣).

ويغرب العلايلي في فكرته ويتعسّف، حين يضع جدولاً لحروف الهجاء؛ يحدد فيه معنى كل حرف، ويعده نواة للغة في دورها القديم!

وإليك - أخي القارئ الكريم - تلك الحروف بمعانيها في أبجدية العلايلي العجيبة، وهي على النحو الآتي:

- **الهمزة**؛ يدلّ على الجوفية، وعلى ما هو وعاءٌ للمعنى، ويدلّ على الصفة تصير طبعاً.
- **الباء**؛ يدلّ على بلوغ المعنى في الشيء بلوغاً تامًا، ويدلّ على القوام الصلب بالتفعّل.
- **التاء**؛ يدلّ على الاضطراب في الطبيعة أو المُلابس للطبيعة في غير ما يكون شديداً.
- **الثاء**؛ يدلّ على التعلّق بالشيء تعلّقاً له علامته الظاهرة سواء في الحس أو المعنى.
- **الجيم**؛ يدلّ على العظم مطلقاً.
- **الحاء**؛ يدلّ على التماسك البالغ، و بالأخص في الخفيّات، ويدلّ على المائية.
- **الخاء**؛ يدلّ على المطاوعة والانتشار، وعلى التلاشي مطلقاً.

- **الدال**؛ يدلّ على التصلّب، وعلى التغيّر المتوزّع.
- **الذال**؛ يدلّ على التفرّد.
- **الراء**؛ يدلّ على الملكة، ويدلّ على شيوع الوصف.
- **الزاي**؛ يدلّ على التقلّع القوي.
- **السين**؛ يدلّ على السعة والبسطة من غير تخصيص.
- **الشين**؛ يدلّ على التفشي بغير نظام.
- **الصاد**؛ يدلّ على المعالجة الشديدة.
- **الضاد**؛ يدلّ على الغلبة تحت الثقل.
- **الطاء**؛ يدلّ على الملكة في الصفة، وعلى الالتواء والانكسار.
- **الظاء**؛ يدلّ على التمكّن.
- **العين**؛ يدلّ على الخلوّ الباطن، أو على الخلوّ مطلقًا(٤).
- **الغين**؛ يدلّ على كمال المعنى في الغؤور أو الخفاء.
- **الفاء**؛ يدلّ على لازم المعنى؛ المعنى الكنائي.
- **القاف**؛ يدلّ على المفاجأة التي تحدث صوتًا.
- **الكاف**؛ يدل على الشيء ينتج من الشيء في احتكاك.
- **اللام**؛ يدلّ على الانطباع بالشيء بعد تكلّفه.
- **الميم**؛ يدلّ على الانجماع.
- **النون**؛ يدلّ على البطون في الشيء، أو على تمكن المعنى تمكنًا تظهر أعراضه.
- **الهاء**؛ يدلّ على التلاشي.
- **الواو**؛ يدلّ على الانفعال المؤثّر في الظواهر.
- **الياء**؛ يدلّ على الانفعال المؤثّر في البواطن.

ومن ثمّ فإن الكلمات عند العلايلي من اليسير تحليلها إلى معانيها الأولية بردّها إلى أصولها الأحادية؛ المتمثلة في حروفها؛ إذ هي مجتمعة في كلمة تدل على مجموع معاني تلك الحروف؛ فلذلك فإن «عبى» مثلاً يمكن تحليلها إلى حروفها الأصول؛ فالعين تدل على الحيوان الزئري، والباء تدل على البيت «وكأنّ المعنى الأول: حيوان البيت القوي؛ الذي هو كناية عن الرجل؛ ثم اشتق منه بعد أطوار من الترقي اللغوي اسم للباس الرجل الخاص به (العباية) ثم غلب الأصل في معنى الفرع المشتق، وأميت معنى الأصل بالنسيان، أو بعدم الاحتياج، حتى صار في معنى الفرع حقيقة وضعية»(٥).

ومع ملاحظة أن ما ذكره العلايلي في معنى كل من العين والباء في كلمة (عبى) لا يطابق ما ذكره في الجدول، فإن هذه الطريقة في عمومها واضحة التكلف، وهو يضرب بذلك في ميتافيزيقيا التاريخ(٦)، وهذا المنحى يخرجه من دائرة البحث العلمي المبني على الحقائق إلى دائرة الخرافة المبنية على الأوهام(٧).

ومما يشاكل ذلك أن بعض العلماء كان يرى أن الحروف تدل على معانيها مهما يكن موقعها من الكلمة، فالغين في «غرف» تدل على الغموض؛ وهي بذلك تناسب المرحلة الأولى من مراحل الغرف وهو تغييب الغارف يده في المغروف منه. أما الراء فتدل على الحركة؛ وهي تناسب المرحلة الثانية من الحدث؛ وهو تحريك الغارف مغرفته في المغروف منه قبل رفعها؛ وتدل الفاء - أخيرًا - على الظهور والانفتاح والفصل، وهو ما يناسب المرحلة الثالثة من «الغرف» عندما تظهر المغرفة بعد استتارها(٨).

وخصيصة الحرف الدلالية لم تغب عن فهم قدامى اللغويين العرب، وعلى رأسهم ابن جني الذي عقد بابين لذلك: أحدهما «تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني»(٩)، والثاني: «إمساس الألفاظ أشباه المعاني»(١٠). غير أنهم لم يزعموا قط أن الأحادي أصل من الأصول تؤول إليه الألفاظ كما زعم العلايلي، ولم يؤمنوا بالقيمة الدلالية للصوت المفرد، وهو أصغر وحدة لغوية، فليس له عندهم معنى في ذاته، ولكنه يشترك مع غيره من الأصوات لتحديد المعنى الاصطلاحي للكلمة، ومن ثم فإن وجود حرف الحاء المهملة في كلمة «النضح» والخاء المعجمة في كلمة «النضخ» ليس في حدّ ذاته سوى وسيلة للتفرقة بين الكلمتين(١١).

وممن أشاد بفكرة أحادية الأصول الدكتور توفيق شاهين(١٢)، فمال إليها، ودافع عنها بحرارة، واتّهم منتقديها بعدم تقديم بديل لها، وكأنه لا يعد ما قدمه القدامى شيئًا. وقال عن الأحادية: إنها «ولا شك كانت مرحلة، ثم تخطتها البشرية؛ عندما سنحت لها فرصة تطور، وظرف رُقيّ»(١٣).

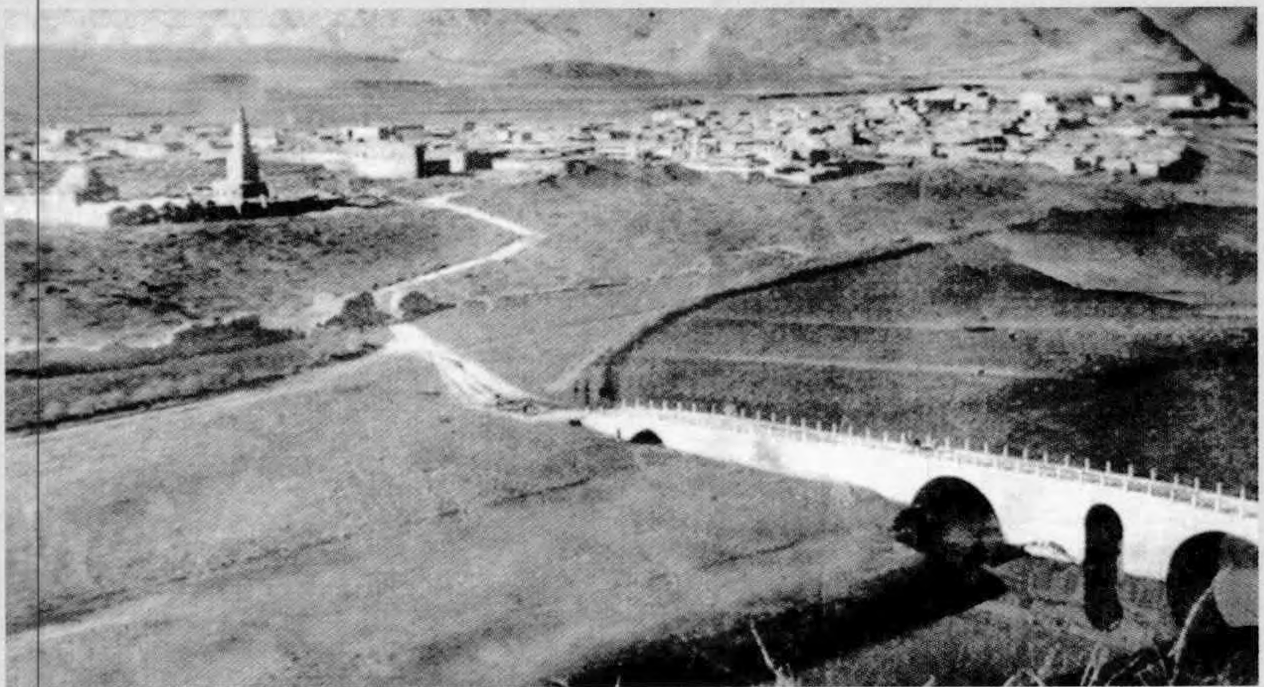
وفي نظري أن هذه النظرية - نظرية أحادية الأصول - غير مقبولة في أصول اللغة العربية؛ لأنها لا تستند إلى حقائق لغوية ثابتة، ولا يخلو الخوض فيها من العودة إلى ما وراء التاريخ، والرجم بالغيب والتعسف.

المراجع والهوامش

١. اللغة العربية كائن حي ٢٥، وتطور البنية في الكلمة العربية ١١٦، والثنائية والألسنية السامية ٣٧٦.
٢، ٣. تهذيب المقدمة اللغوية ٧٤.
٤. تهذيب المقدمة اللغوية ٦٣، ٦٤.
٥. تهذيب المقدمة اللغوية ٥٠.
٦. يطلقون ذلك على ما وراء الطبيعة من غيبيات لا يعلمها إلا الله.
٧. الوجيز في فقه اللغة ٣٧٣.
٨. الوجيز في فقه اللغة ٣٧٣. وأصول اللغة العربية بين الثنائية والثلاثية ٢٠.
٩. الخصائص ٢/١٤٥.
١٠. الخصائص ٢/١٥٢.
١١. دراسات في اللغة والمعاجم لحلمي خليل ١٠٩.
١٢، ١٣. أصول اللغة العربية ٢١.

جزيرة ابن عمر في التاريخ والحضارة

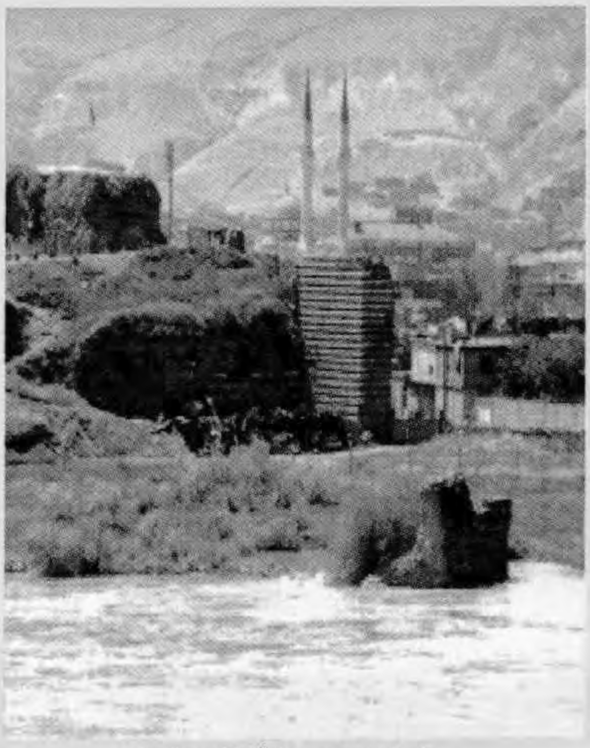
سهيل صابان
الرياض - السعودية



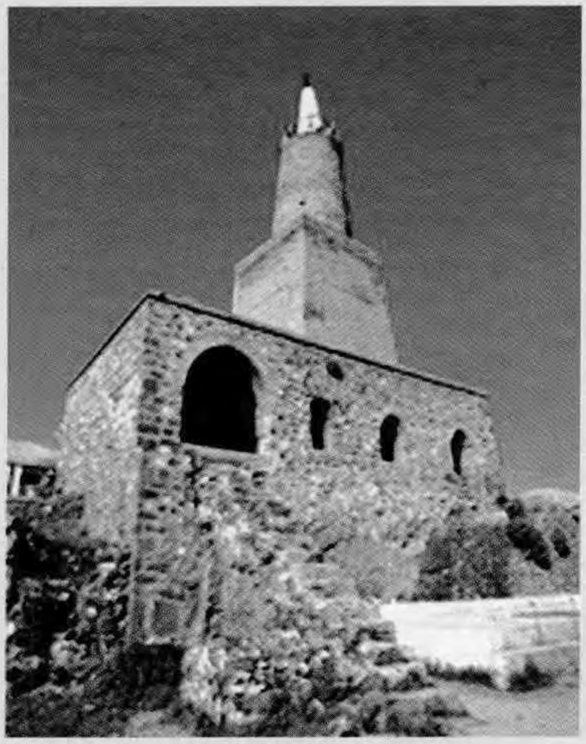
صورة تاريخية لجزيرة ابن عمر ويبدو السور المحيط بها

هناك الكثير من المدن والحواضر الإسلامية التي مازالت تحتفظ بعراقتها الحضارية الإسلامية؛ ليس في الآثار العمرانية فحسب، ولا في كثير من العادات والتقاليد التي يشكل الإسلام أساسا لها فقط؛ بل حتى في كثير من المصطلحات اللغوية التي مازالت مستخدمة إلى يومنا هذا..

ولعل جزيرة ابن عمر التي تقع في أقصى جنوب شرق تركيا من أهم تلك الحواضر الإسلامية، التي تميزها من غيرها من مدن المنطقة، أنها كانت فيما سبق عاصمة حضارية وثقافية للإقليم؛ إذ إنها كانت موئل العلم، ومنبع الثقافة، ومركز القيادة السياسية والتوجيه للمنطقة.



جزيرة ابن عمر محاطة بالنهر والجبل



الجامع الكبير

موقع جزيرة ابن عمر

تقع جزيرة ابن عمر في جنوب شرق تركيا، على الحدود السورية، ويحدها من الشرق مدينة زاخو العراقية (على بعد ٤٥كلم)، ومن الشمال جبل الجودي الوارد ذكره في القرآن الكريم: *واستوت على الجوديّ*: **هود: ٤٤**، ومدينة شرناق التي هي محرّفة من شهر نوح، ومن الغرب مدينة هزخ (وتسمى بالتركية إديل)، ومن الجنوب سورية ومدينة نصيبين التي يرد ذكرها في قصة سلمان الفارسي - رضي الله تعالى عنه - وهي محاذية لمدينة القامشلي السورية، وتبعد عن جزيرة ابن عمر ٩٠كلم.

تسمية المدينة

قال الواقدي: إن الذي بنى جزيرة ابن عمر رجل من بُرقعيد - من أعمال الموصل - يقال له عبدالعزيز بن عمر، فسميت باسمه، وكانت تسمى دجلة(١)، وذكر باحث معاصر أن المدينة أنشئت على يد حسن ابن عمر التغلبي، في أواسط القرن الثالث الهجري(٢). أما كلمة الجزيرة فلأن المدينة كانت محاطة بنهر دجلة من كل أطرافها إلا طرفًا واحدًا، فكانت تشكل جزيرة على شاكلة هلال(٣)، ثم حفر في ناحيتها التي لا ماء فيها خندق أجري الماء فيه، فأصبحت جزيرة تحيط بها المياه من جوانبها كلها(٤)؛ ولذلك أطلق عليها في العهد الإسلامي الجزيرة، وسميت في عهد الجمهورية التركية «جزرة». وقد شاهد كاتب هذه السطور في صغره ذلك الموضع المتميز للمدينة، ولا سيما حين يفيض ماء دجلة في الشتاء وفي بدايات موسم الربيع، فتحيط مياهه بالمدينة، ولا يتسنى الخروج منها إلى المناطق المجاورة، إلا من خلال الجسر القديم في جنوب البلد، المتجه إلى الحدود السورية المواجهة للمدينة مباشرة. وهذا الجسر يحوي كثيراً من النقوش والكتابات القديمة. أما التوجه إلى المناطق الشمالية من البلد فكان يتم من خلال القوارب

والعوامات، قبل إنشاء الجسر القديم والجسر الجديد في شمال المدينة.

أهميتها الجغرافية

على الرغم من أهمية المدينة الجغرافية تاريخياً، فقد كانت حلقة الوصل بين العراق والأناضول، من خلال الملاحة النهرية التي كان فيها للجزيرة ميناء نهري مهم يتم منه تزويد مختلف المناطق بالمواد الغذائية، ولا سيما المدن الواقعة على ضفاف نهر دجلة مثل الموصل وبغداد، سواء في العهد العثماني أو العهود السابقة له، فإن تلك الأهمية مازالت قائمة حتى اليوم؛ إذ إنها المعبر البري الوحيد إلى العراق من خلال الجسر المقام على نهر دجلة منذ عام ١٩٦٧م. وكان الحجاج الأتراك القادمون براً إلى الحج عن طريق العراق، يمرون بجزيرة ابن عمر. وكل وسائل النقل البرية تمر إليها من على ذلك الجسر. كما أنه يوفر المواصلات بالمدن الشمالية، مثل مدينة شرناق وهكاري وسعرد وغيرها من المدن.

أهميتها التاريخية

أنشئت جزيرة ابن عمر على أيدي أولاد نوح عليه السلام حسب قول كثير من المؤرخين والعلماء بالاستناد إلى الآثار الواردة والموجودة المتعلقة بذلك(٥). وهي ثاني مدينة تبنى بعد الطوفان. والأدلة التي تؤكد ذلك كثيرة، منها كون أسوار المدينة المتبقي معظمها حتى اليوم، تشبه سفينة نوح عليه السلام، وكون النبي نوح عليه السلام مدفوناً فيها، وقبره معروف في المدينة إلى يومنا هذا. بالإضافة إلى أن جبل جودي مواجه للشمال الشرقي من المدينة.

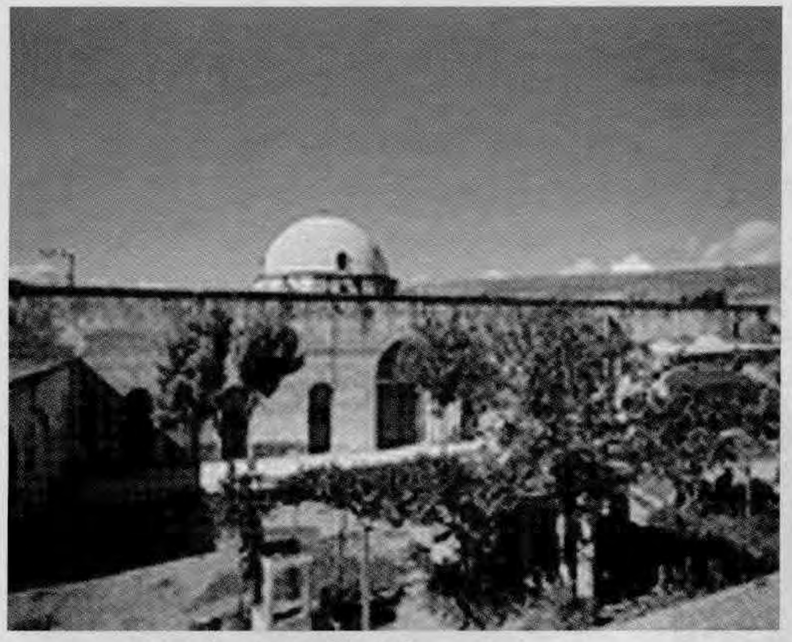
وقد دخلت المنطقة بأجمعها في الإسلام في عهد عياض بن غنم سنة ١٧ أو ١٨هـ (٦٣٨م) في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه(٦). وشهدت المنطقة الحكم الأموي والعباسي. وقام السلطان السلجوقي طغرك بك بحصار المدينة عام ١٠٥٧م، إلا أنه لم يستطع احتلالها. وتمكن منها السلاجقة في عهد السلطان ملك شاه السلجوقي عام ١٠٨٥م. ولقد اعترفت المدينة بحكم الأيوبيين بعد حملة الجزيرة التي قام بها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٩هـ (١١٨٣م). وتذكر المصادر أن المدينة شهدت ضرباً للمسكوكات باسم السلطان الأيوبي(٧). وبدأ تأسيس الإمارات فيها في عهد الزنكيين عام ١٢٠٠م. وأولى الإمارات



الفيالق الحميدية في الجزيرة (١٨٤٠م)



صورة من حياة أهل الجزيرة وهم يعبرون النهر (١٩٣٩م)

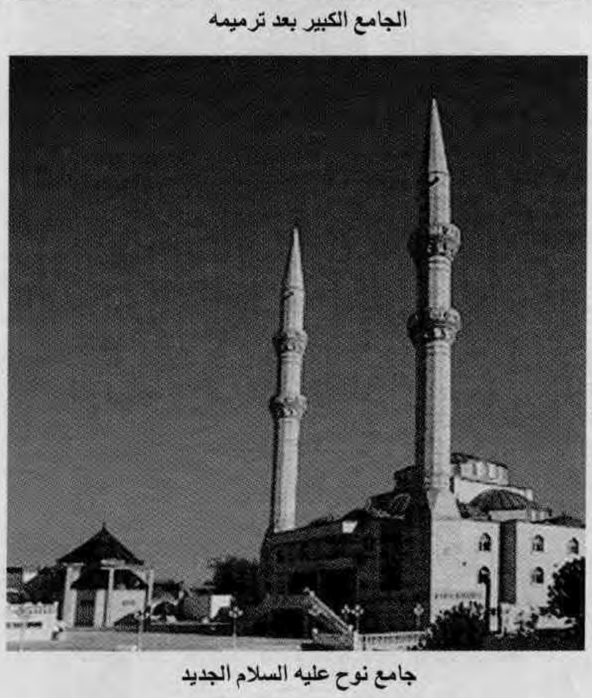


الجامع الكبير بعد ترميمه

كانت إمارة سليمان بك التي انقسمت بعد وفاته بين أولاده الثلاثة، وقد استمرت ٤٢٧ سنة، أي حتى عام ١٦٢٧م. غير أن المدينة قد تعرضت لغزو كبير من تيمور لنك الذي هدّمها عام ١٤٠١م، كما تعرضت لغزو مماثل من الصفويين أولاً ثم من أوزون حسن عام ١٤٧٩م، وبقيت بحوزته فترة من الوقت. إلا أن الأمير شرف الثاني استطاع استرداد المدينة من الغزاة عام ١٥٠٨م. فقام بحركة عمرانية كبيرة في البلد، وعلى رأسها إنشاؤه المدرسة الحمراء. وقضت الدولة العثمانية على إمارة الجزيرة في عام ١٦٢٧م. فأصبحت تابعة لسنجق ديار بكر حتى عام ١٨٤١م، حيث ارتبطت إدارياً بولاية الموصل بعد هذا التاريخ. وكان الأمير بدر خان هو المسؤول عن المنطقة في تلك الفترة. وقد قام بثورة(٨) ضد الدولة العثمانية عام ١٨٤٦م بعد أن جمع عدداً من عشائر المنطقة المتفرقة تحت زعامته، فقاتلته الدولة العثمانية، حتى قبضت عليه ونفته مع أفراد أسرته إلى إستانبول(٩) ثم إلى جزيرة كريت، وأقيم بعد ذلك عز الدين شير أميراً عليها. وتتابع على المنصب بعد ذلك قائمقامون معينون من الدولة العثمانية موالون لها.

جزيرة ابن عمر في كتب الرحالين

لقد تحدث الرحالة ابن بطوطة عن جزيرة ابن عمر فقال:.. ونزلنا جزيرة ابن عمر، وهي مدينة كبيرة حسنة، محيط بها الوادي، ولذلك سميت جزيرة، أكثرها خراب، ولها سوق حسنة، ومسجد عتيق مبني بالحجارة محكم العمل، وسورها مبني بالحجارة أيضاً. وأهلها فضلاء لهم محبة في الغرباء. ويوم نزلنا بها رأينا جبل الجودي المذكور في كتاب الله عز وجل، الذي استوت عليه سفينة نوح



جامع نوح عليه السلام الجديد

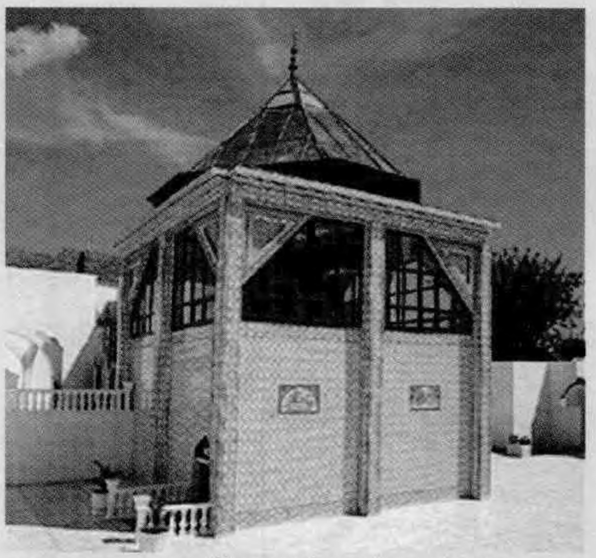
عليه السلام، وهو جبل عال مستطيل(١٠). وقد امتدحها المقدسي، وعدّها منزهاً من منازه الإسلام الخمسة في العالم(١١). وقال فيها أيضاً: جزيرة ابن عمر بلد كبير، يدور عليه الماء من ثلاثة جوانب، ودجلة بينها وبين جبل الجودي، وهي طيبة نزيهة، بناؤهم حجارة شرقي دجلة وحلة في الشتاء(١٢).

وذكر من منتوجاتها التجارية الجوز واللوز والسمن والخيل الجياد(١٣).

وتحدث محمد شكري الآلوسي عن جزيرة ابن عمر وعن عمارتها ووجه تسميتها، وذكر أنه مرّ منها مع رفاقه لما كان متوجهًا إلى إستانبول سنة ١٢٦٩هـ فقال: حتى أتينا جزيرة ابن عمر، وهي بلدة هلالية الشكل(١٤).

مدارس العلم والجامعات

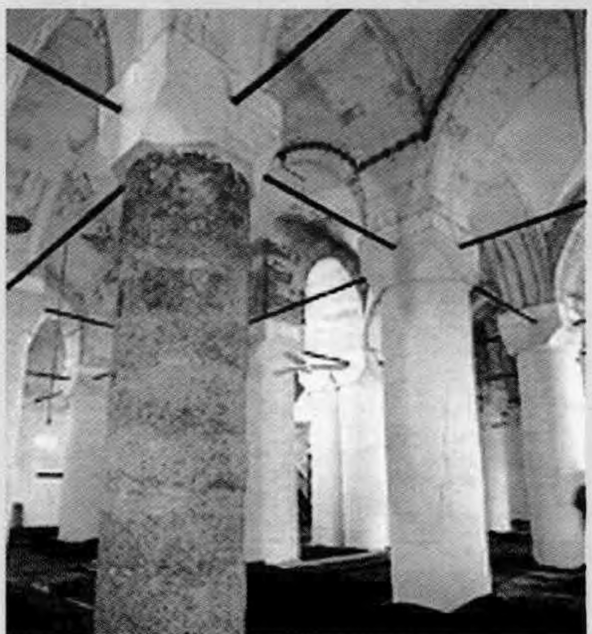
تواصلت حلقات العلم في جزيرة ابن عمر منذ دخولها في الإسلام، وانتعشت فيها الثقافة الإسلامية، حتى أصبحت المدينة مقصداً يتوجه إليها طلاب العلم من المناطق المجاورة. والآثار الموجودة إلى يومنا هذا تدل على أن الجزيرة كانت تحوي عدداً



بناء جديد تتبدى فيه روعة الهندسة المعمارية في جامع نوح عليه السلام



كتابة تاريخية من جزيرة ابن عمر



أعمدة الجامع الكبير من الداخل



من الآثار التاريخية في الجزيرة

من مدارس العلم، مثل المدرسة الحمراء، والمدرسة العبدلية، والمدرسة المجيدية، ومدرسة السليمانية، والمدرسة الرضوية التي بناها نظام الملك في جزيرة ابن عمر(١٥) عدا الحلقات العلمية التي كانت تتوافر في معظم مساجد الجزيرة، والتي كانت عملية التدريس فيها تسير على قدم وساق بيد العلماء الأفذاذ في العلوم الشرعية، ولاسيما في الفقه على



سوق الجزيرة القديم حاليًا

مذهب الإمام الشافعي، وعلم المواريث، وفي علم الآلة من نحو وصرف وبيان ومجاز، وفي علم الحكمة والمنطق.

والحقيقة أن الاطلاع على تراجم العلماء المنتسبين إلى جزيرة ابن عمر، سواء في العصور الإسلامية الأولى أو في العصور الأخيرة، ليدل بوضوح على أن المدينة كانت تزخر بالعلم والعلماء، وأنها كانت منهلاً لكثير من طلاب العلم الذين وفدوا إليها من المناطق الأخرى.

ومما لا شك فيه أن احتواء البلد أربع مدارس (جامعات) شرعية في عهد الزنكيين(١٦) دليل واضح على أن المدينة أصبحت لها مكانة بارزة في العلم، وقد انعكست تلك المكانة على المجتمع، الذي اتسم بتقديره للعلم، والمثول بين يدي العلماء في حل أي مشكلة فردية أو جماعية، وتشجيع الأولاد على دراسة القرآن الكريم وحفظه. ويبدو أن البلد لم يتخل عن دوره الريادي في العلم والثقافة، إلا في العصر الأخير، بسبب الظروف الطارئة التي طرأت على العالم الإسلامي.

أما النظام المتبع في التدريس فكان شاقًا جدًا؛ فالطالب المبتدئ كان يستمر في دراسته بموجب

النظام الفردي في دراسة كتب السلسلة المحددة من لدن العلماء، وكان يشمل كل التخصصات الإسلامية وعلوم الآلة. وكانت الدراسة تستغرق من خمسة عشر إلى عشرين عامًا، يدرس الطالب خلالها على يد أستاذ بمفرده، أي في الدراسة على يد أستاذ والاعتماد على النفس في حفظ المتون كلها وشروحها في بعض الأحيان. وإذا ما انتهى من دراسته انتقل إلى غرفة مجاورة فدارس موضوعه، بل حفظه، وفي الوقت ذاته ينتقل إلى الأستاذ طالب آخر، وهكذا إلى أن ينتهي يوم الأستاذ. وإذا رغب الطالب في التتلمذ لعالم آخر، كان بإمكانه الانتقال إلى المكان الذي يدرّس فيه بعد إجراء الاختبارات اللازمة للطالب، لتحديد مستواه. والجدير بالذكر أن طالب العلم كان حرًا في اختيار المدرسة أو العالم الذي يدرس الطالب على يديه(١٧). ويستمر الطالب في إكمال كتب السلسلة إلى أن ينتهي منها، ليحصل على الإجازة العلمية التي تؤهله للتدريس والفتوى..

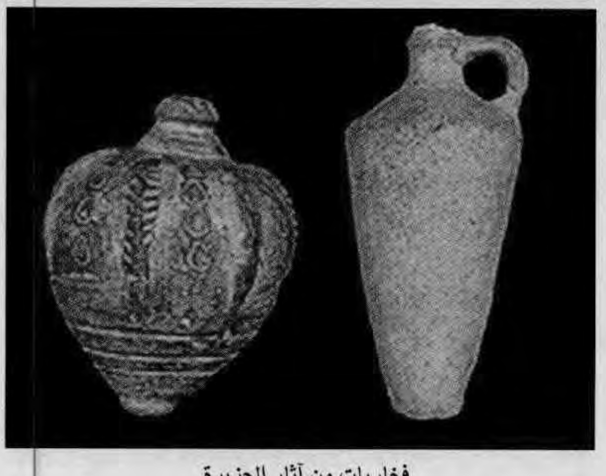
أشهر علمائها

خرّجت جزيرة ابن عمر من خلال مدارس العلم المتخصصة في العلوم الشرعية والأدبية والتقنية بها، الكثير من العلماء عبر التاريخ الإسلامي، غمر التاريخ بعضهم، وأبرز بعضهم. ومن أهم العلماء المنتسبين إلى هذه المدينة، وذاع صيتهم واشتهرت أسماؤهم أبناء الأثير الثلاثة الذين يعدون من أعلام التراث العربي ومؤلفاتهم مراجع مهمة، وأصول موثوقة(١٨)، لا غنى للباحث العربي عن الرجوع إليها. كما أن غيرهم من العلماء الجزريين أسهموا بشكل فعال في إغناء المكتبة العربية. نذكر منهم:

- مجد الدين بن الأثير، المبارك بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيباني الجزري (٥٤٤ - ٦٠٦هـ/ ١١٤٩ - ١٢١٠م) - الذي برز في الحديث النبوي الشريف أكثر من التخصصات العلمية الشرعية





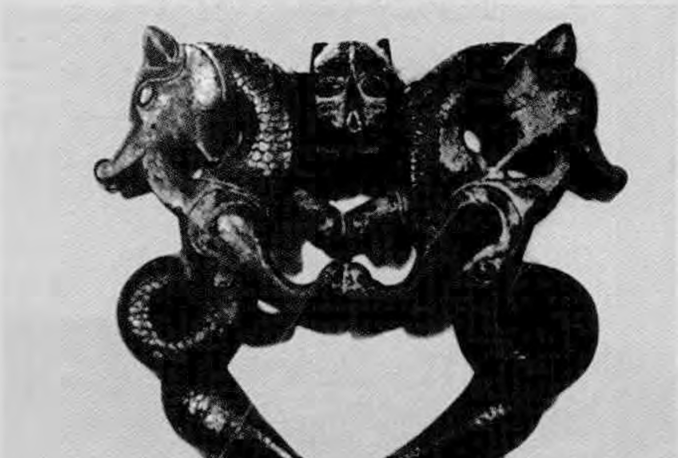


فخاريات من آثار الجزيرة

التي درسها. ومن أهم مؤلفاته: «النهاية في غريب الحديث»، و«جامع الأصول من أحاديث الرسول»، و«الإنصاف في الجمع بين الكشف والكشاف»، و«الشافي في شرح مسند الشافعي»، و«المختار في



من الآثار التي يضمها متحفها التاريخي الحديث



مقبض بوابة الجامع الكبير الذي سرق قبل ثلاثة عقود

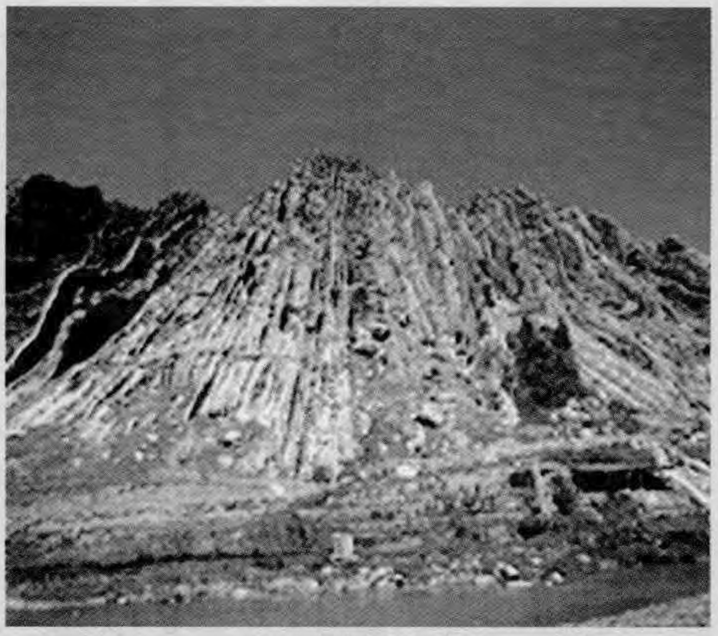
مناقب الأخيار»، و«ديوان الرسائل»، و«كتاب المرصَّع في البنين والبنات والآباء والأمهات والأزواج والزوجات من رجال الحديث»، و«تجريد أسماء الصحابة»، و«تهذيب فصول ابن الدهان»، و«النهاية الأثيرية في اللغات الحديثية»..إلخ(١٩).

- عز الدين بن الأثير، علي بن محمد بن محمد ابن عبدالكريم الشيباني الجزري. (٥٥٥ - ٦٣٠هـ/ ١١٦٠ - ١٢٣٣م). المؤرخ الإمام الزاهد(٢٠)، من العلماء بالنسب والأدب، ولد ونشأ بجزيرة ابن عمر. وله من التصانيف «الكامل»، و«أسد الغابة في معرفة الصحابة»، و«اللباب في تهذيب الأنساب»، و«تاريخ الدولة الأتابكية»، و«تاريخ الموصل»، و«آداب السياسة»، و«تحفة العجائب وطرفة الغرائب في التاريخ»، و«الجامع الكبير في علم البيان».. إلخ(٢١).

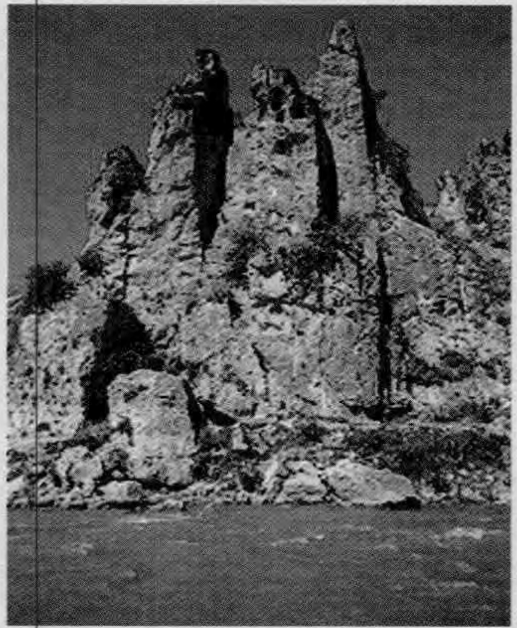
- ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيباني الجزري (٥٥٨ - ٦٣٧هـ/ ١١٦٣ - ١٢٣٩م). الأديب الشاعر واللغوي المنقد. له من التصانيف: «المَثَلُ السائر في أدب الكاتب والشاعر»، و«الوشي المركوم في حل المنظوم»، و«ديوان ترسل»، و«الجامع الكبير في صناعة المنظوم والمنثور»، و«الاستدراك في الرد على رسالة ابن دهان». و«كفاية الطالب في نقد كلام السائر والكاتب»(٢٢).

- إسماعيل بن الرزاز أبو العز الجزري (١١٣٥ - ١٢٣٣م)، فيزيائي شهير، له اختراعات آلية (ميكنية) متعددة. منها: «الإنسان الآلي»، و«أسس الحاسوب»، و«مختلف أنواع الساعات»، و«مكائن المياه»، و«الأقفال»..إلخ. وكانت مؤلفاته مقررات دراسية في جامعات أوربية فترات طويلة. له من التصانيف: «كتاب في معرفة الحيل الهندسية»، ضمّن فيه اختراعاته ومكتشفاته النادرة(٢٣).

- أبو الخير شمس الدين محمد بن محمد بن علي ابن يوسف الجزري العمري (٧٥١ - ٨٣٣هـ/



جانب من جبل في الجزيرة



جبل في قسرك التابعة للجزيرة

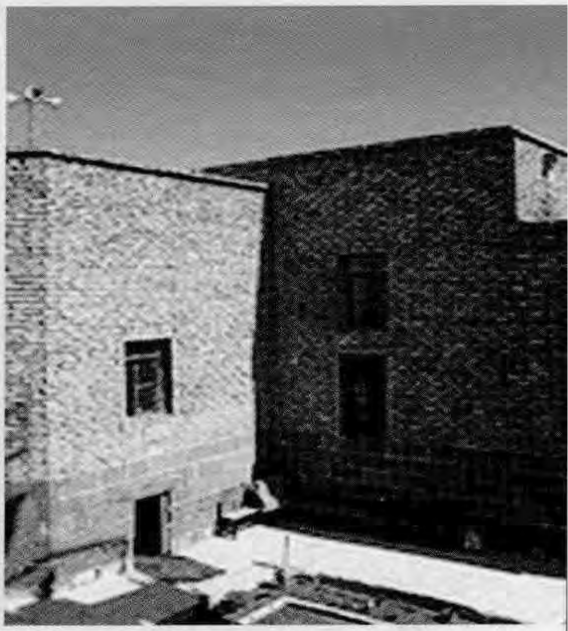
١٣٥٠ ـ ١٤٢٩م). العالم الشهير بالقراءات وعلم الحديث. دار في كثير من البلاد الإسلامية للتحصيل العلمي أولاً، ثم للتدريس وتحفيظ القراءات ثانيًا. له من التصانيف أكثر من ثمانين كتابًا. منها: «النشر في القراءات العشر»، و«طيبة النشر في القراءات العشر»، و«تحبير التيسير في قراءات الأئمة العشرة»، و«الدرة في القراءات الثلاثة المتممة للعشرة»، و«جامع الأسانيد»..إلخ(٢٤). وله الكثير من المؤلفات الأخرى في علم الحديث والمصطلح، وفي السيرة النبوية وعلم الطبقات والتراجم والمناقب،



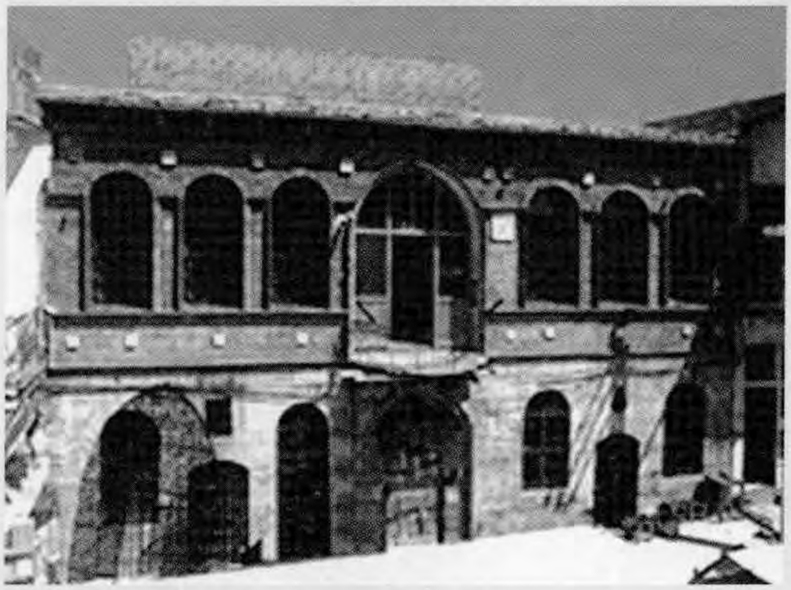
الجزيرة يحيط بها نهر دجلة والسور من جهة الشمال



المبنى الإداري في داخل القلعة



مبنى المدرسة الحمراء بعد الترميم



من المباني القديمة في الجزيرة وقد أصبح الآن متحفاً

وفي غيرها من العلوم(٢٥).

- أبو طاهر إبراهيم بن محمد بن مهران الفقيه الجزري الشافعي (٥١٧ - ٥٧٧م). وقد جمع بين العلم والعمل، تفقه بالجزيرة على عاملها يومئذ عمر بن محمد البزري، وقدم بغداد، وسمع بها الحديث، ورجع إلى الجزيرة، ودرّس فيها، وأفتى إلى أن مات بها(٢٦).

- أبو القاسم عمر بن محمد بن عكرمة ابن البزري الجزري الإمام الفقيه الشافعي (ت ٥٦٠هـ) وخلف تلاميذ كثيرة، وكان من أصحاب ابن الشاشي(٢٧).

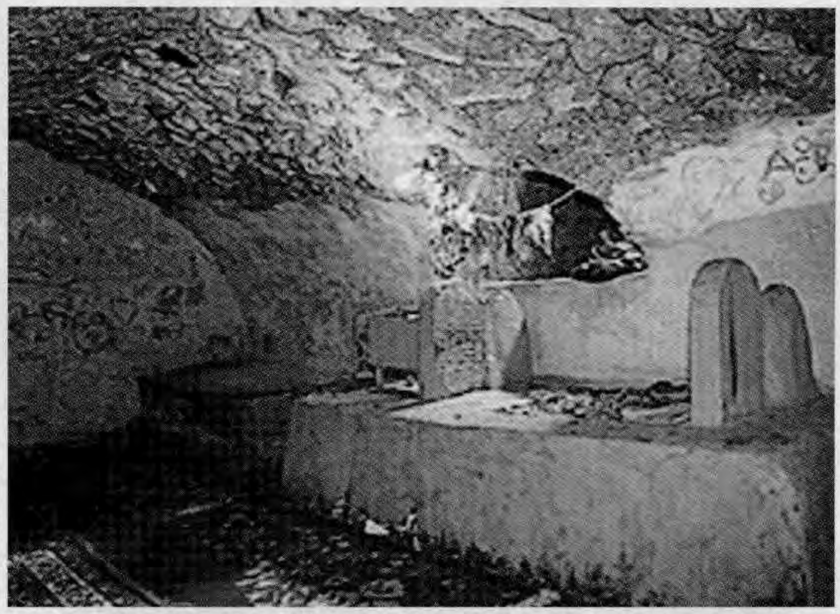
- حسين بن أحمد بن حسين الجزري (٩٩٧ - ١٠٣٣هـ/ ١٥٨٩ - ١٦٢٤م)، شاعر. تنقل بين الشام والعراق والروم، واستقر بحلب، ثم رحل إلى حماة، فتوفي فيها. له ديوان شعر مخطوط(٢٨).

وهناك علماء آخرون كثر، ممن نشأ في جزيرة ابن عمر، وساهم في إغناء المكتبة العربية بتأليفات مميزة في التخصصات الشرعية واللغوية كافة، كما برز قسم منهم في التخصصات العلمية البحت، سواء في العصور السابقة، أو في العصر الأخير..

أهم الآثار التاريخية في الجزيرة

جزيرة ابن عمر ثرية بالآثار التاريخية التي تعود لمختلف العصور، وعلى رأسها السور المحيط بالبلد

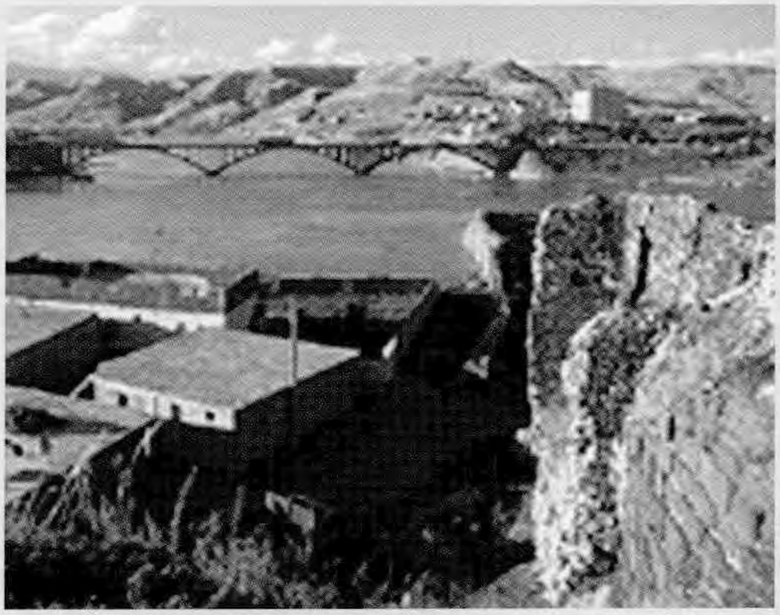
من الأطراف الأربعة، والمبنى أساساً من حجر البازلت الأسود، وهو على شكل سفينة، الطرف العريض منها يقع في جنوب البلد. وقد انهدم بعض الأطراف منها. وكانت له بوابات ثلاث: شمالية وجنوبية وغربية. وكانت الأبواب الثلاثة تسمى: الباب الجديد، وباب الجبل، وباب الماء. وقلعة الجزيرة التي تقع في شمال البلدة على ضفاف نهر دجلة، وقد رممت في عهد الآشوريين ثم العباسيين، وهي متكاملة من حيث المرافق العامة، والمسجد وثكنات الجند، والسجن. وبها قصور تتكون من ثلاث طوابق، وعدد الغرف الموجودة بالقلعة ٣٦٠ غرفة. وبرج بَلَك الذي بناه أمير الجزيرة شرف بن محمد ابن خان عبدل عام ١٥٩٦م. وهو ملاصق لقلعة الجزيرة، على ضفاف نهر دجلة. والجامع الكبير الذي يقع في جنوب البلدة، وقد أمر ببنائه في عام ١١٦٠م أمير الجزيرة باز شاه. وكان بها كثير من الآثار، غير أنه بسبب أعمال الترميم التي شهدها الجامع في عامي ١٩٤٥ و١٩٧١م، لم يبق من تلك الآثار في الوقت الراهن إلا القليل، يتمثل في الكتابات الموجودة على جدران الجامع. والمدرسة العبدلية التي تنتسب إلى مؤسسها عبدالله بن عبدالإله سيف الدين البوطي، وقد أنشئت عام ١٤٧٣م، ومازال المسجد والغرف الدراسية قائمة فيها حتى اليوم. والمدرسة الحمراء التي كانت جامعة في وقتها، وقد أنشأها في القرن الخامس عشر الميلادي أمير الجزيرة شرف الثاني، وتتكون من المسجد وغرف الأساتذة وغرف الطلاب، والمبنى الإداري للمدرسة. وجامع نوح - عليه السلام -، الذي شهد



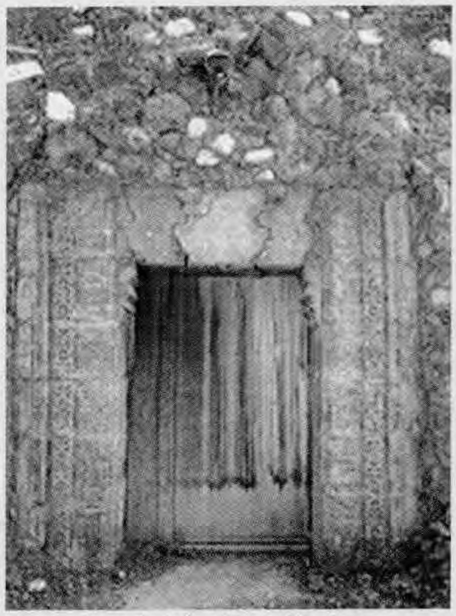
نموذج من الزخرفة المستخدمة في بناء المدرسة العبدلية مع أشهر معلم في البلد وهو مم وزين



منظر عام للجزيرة من الشاطئ



منظر عام للجانب الشمالي من القلعة مع الجسر الحديث المقام على نهر دجلة



نموذج للأبواب القديمة في الجزيرة



منظر لجزء من قلعة الجزيرة على نهر دجلة



جانب آخر من مبنى المدرسة الحمراء المجدد

أعمال ترميم كاملة قبل سنتين، وجسر جزيرة ابن عمر، ومدرسة السليمانية، والمدرسة المجيدية، وقشلة الحميدية، نسبة إلى الفيالق الحميدية التي أنشئت في عهد السلطان عبدالحميد الثاني لمقاومة الجماعات المعارضة لحكم الدولة العثمانية في المنطقة.. إلخ. بالإضافة إلى كل ذلك الكثير من شواهد القبور التي تؤرخ للعصور كافة من الحضارة الإسلامية.

ولقد أنشئ متحف متخصص في المدينة عام ١٩٩٦م قام بتنظيمه الباحث المتخصص في آثار جزيرة ابن عمر وتاريخها الأستاذ عبدالله ياشين، للحفاظ على آثارها من الاندثار، بعدما شهد البلد اختفاء الكثير من تلك الآثار، وعلى رأسها مقبض الباب الرئيس للجامع الكبير، وهذا المقبض الذي سرق من الجامع ليلاً قبل نحو ثمان وعشرين سنة، أثر نادر لا مثيل له في العالم سوى في جامع بمدينة إيرانية. وكان المقبض مزدوجاً. فلما شوهد اختفاء أحدهما، أخلي الثاني من لدن المسؤولين للاحتفاظ به في أحد متاحف تركية الشهيرة خوفاً من سرقته.

وضعها الراهن

وصل عدد سكان جزيرة ابن عمر بموجب إحصاءات عام ١٩٩٧م إلى ٦٢٫٣٤٤ نسمة.

ابن عمر بلد العلم والعلماء

جزيرة ابن عمر: بلدة فوق الموصل، بينهما ثلاثة أيام، ولها رستاق مخصب واسع الخيرات، وأحسب أن أول من عمّرها الحسن بن عمر بن خطاب التغلبي، وكانت له امرأة بالجزيرة، وذكر قرابة سنة ٢٥٠هـ؛ وهذه الجزيرة تحيط بها دجلة إلا من ناحية واحدة شبه الهلال، ثم عمل هناك خندقٌ أجري فيه الماءُ، ونُصبت عليه رحًى. فأحاط بها الماء من جميع جوانبها بهذا الخندق؛ وينسب إليها جماعة كثيرة، منهم: أبو طاهر إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الفقيه الجزري الشافعي، وكان رجلاً كاملاً، جمع بين العلم والعمل، تفقّه بالجزيرة على عاملها يومئذ عمر بن محمد البزري، وقدم بغداد وسمع بها الحديث ورجع إلى الجزيرة ودرّس بها، وأفتى إلى أن مات بها في سنة ٥٧٧هـ، ومولده سنة ٥١٧هـ؛ وأبو القاسم عمر بن محمد بن عِكرمة بن البزري الجزري الإمام الفقيه الشافعي، قال ابن شافع: وكان أحفظ من بقي في الدنيا على ما يقال بمذهب الشافعي، وتوفي في شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٠هـ بالجزيرة، وخلّف تلامذة كثيرة، وكان من أصحاب ابن الشاشي؛ وبنو الأثير العلماءُ الأدباء وهم: مجد الدين المبارك، وضياءُ الدين نصر الله، وعز الدين أبو الحسن عليّ، بنو محمد بن عبدالكريم الجزري، كلّ منهم إمامٌ، مات مجد الدين، والآخران حيّان، في سنة ٦٢٦هـ.

[معجم البلدان - دار صادر - بيروت، ج١٣٨/٢ (جزيرة ابن عمر)] [الفيصل]

والجدول الآتي(٢٩) يوضح النمو السكاني في فترة عهد الجمهورية التركية:

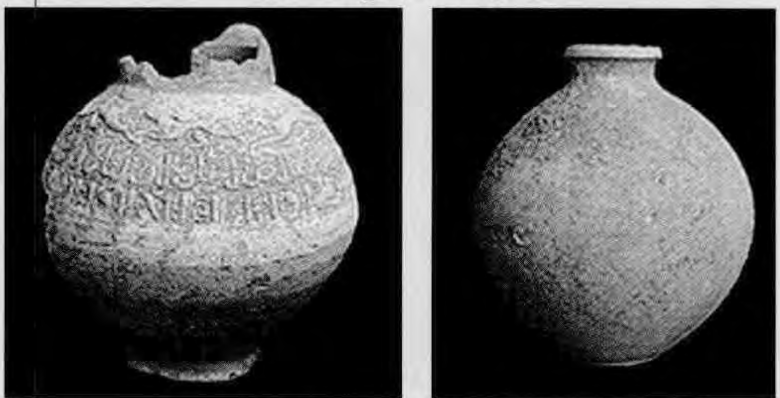
السنة	عدد السكان
١٩٢٧م	٥٣٤٨
١٩٤٠م	٥٥٧٥
١٩٥٠م	٥٤٢٥
١٩٦٠م	٦٤٧٣
١٩٧٠م	١١٫١٣٧
١٩٨٠م	٢٠٫٠٠٣
١٩٩٠م	٥٠٫٠٢٣
١٩٩٧م	٦٣٫٣٤٤

وترتبط بجزيرة ابن عمر ٢٤ قرية و ٥٠ مزرعة. وكانت فيما سبق مدينة كبيرة، تعج بالناس، وتتسم بحركة علمية وثقافية وتجارية دؤوب. وكانت حلقة الوصل بين المناطق المحاذية لها في سورية والعراق، حيث تُصدَّر منها البضائع التركية إلى المناطق المجاورة لها في سورية والعراق، وتصل إليها البضائع الواردة عن طريق التهريب.

عدد المساجد والجوامع في المدينة اليوم يتجاوز المئة. وكان عددها فيما سبق بعدد أيام السنة، أي ٣٦٥ مسجداً. وقد تناقص عدد سكان المدينة بسبب تعرضها للأمراض والحروب والظواهر الطبيعية. ويحكى بهذا الصدد أن المدينة تعرضت لمرض وبائي في أحد العهود السابقة، توفي على إثره ستون ألف شخص.



ضريح يُنسب إلى نوح عليه السلام



من آثار الجزيرة الموجودة في متحفها التاريخي

ويوجد في البلد اليوم ثماني مدارس ابتدائية - متوسطة، وأربع مدارس ثانوية. كما يوجد فيها كل الدوائر الحكومية والمستشفيات التي توجد في مثيلاتها من الأقضية.

ويعتمد الأهالي في دخلهم وموارد رزقهم على التجارة والنقل. فتقوم شاحنات الأهالي بالتوجه إلى العراق محملة بالبضائع، وتعود بالبترول والمواد البترولية. ولوقوع المدينة على طريق دولي، فكان معبر السياح المغادرين من تركيا إلى العراق من الجزيرة، وكذلك المتوجهين منها إلى تركيا براً، وذلك قبل نشوب حرب الخليج الثانية. ولذلك كانت الأوضاع الاقتصادية في البلد منتعشة جداً.

والأهالي الأصليون من جزيرة ابن عمر يفتخرون بنسبتهم إليها، وينظرون إلى جزيرتهم بأنها منبع الحضارة، وموقد العلم والثقافة. وهم يتميزون من غيرهم من أهالي المنطقة بالحفاظ على اللهجة الخاصة بهم، وكذلك بالحفاظ على العادات والتقاليد المتبعة لديهم في الأفراح والأحزان، وفي الترابط الأسري والتكافل الاجتماعي. ومعظم تلك الأمور التي أصبحت عادات متبعة في البلد، هي في الحقيقة منبثقة من الإسلام. والأهم من كل ذلك هو حفاظ الأهالي على جوهر الإسلام الأصيل في العبادات، ولا سيما أركان الإسلام الخمسة.

المراجع والهوامش

١ـ محمد بن عمر الواقدي، تاريخ فتوح الجزيرة والخابور وديار بكر والعراق، تحقيق عبدالعزيز فياض حرفوش ـ دمشق: دار البشائر، ١٤١٧هـ. ص٢٣٥.

2 - Ismail Yigit/ Kurulusundan Mervaniler Donemine Kadar Cizre (Hz. Nuh,tan Gunumuze Cizre Sempoz yumu. Cizre Kaymakamligi: 8-10 May. 1998). P.57

٣ـ ياقوت الحموي/ معجم البلدان ـ بيروت: دار الفكر، ١٩٨٦م: ١٣٨/٢.

٤ـ صلاح الدين المنجد/ أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب ـ بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٣٩٨هـ. ص ٦٢.. ولمعلومات أكثر عن جزيرة ابن عمر انظر مقدمة «ديوان رسائل» لضياء الدين ابن الأثير، تحقيق هلال ناجي ـ الموصل: جامعة الموصل، كلية الآداب، ندوة أبناء الأثير، ١٤٠٢هـ.

٥ـ للتفصيل في هذا الموضوع انظر:

Hz. Nuh,tan Gunumuze Cizre Sempozyumu. Cizre Kaymakamligi: 8-10 May. 1998).

٦ـ محمد بن عمر الواقدي. مرجع سابق. ص٥.

7 - Metin Tuncel/ Adini Kurulus Yerinden Alan Sehirlere Ornek: Cizre (Hz. Nuh,tan Gunumuze Cizre Sempozyumu. Cizre Kaymakamligi: 8-10 May. 1998).P.49.

٨ـ يزخر الأرشيف العثماني بالكثير من الوثائق التي تبين الحركة التي قادها الأمير بدر خان ضد الدولة العثمانية، وكيفية إخماد الثورة ونفيه مع أفراد أسرته إلى مناطق أخرى من الدولة. انظر على سبيل التمثيل: الأرشيف العثماني، تصنيف H.H. 17298-A, 17298 -G, 17298-I، وكذلك عن العلاقات بين البدرخانيين ونفوذهم بين الأكراد:
DH.SYS. 24-2/1: 24-2/2, 24-2/3, 53-58,90 -1/4,90 -1/6, 100-4, 118-8.

9 - Metin Tuncel. p.50.

١٠ـ رحلة ابن بطوطة ـ بيروت: دار صادر، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م. ص٢٣٦.

١١ـ المقدسي/ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ـ بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ ـ ص٤٣.

١٢ـ المرجع السابق. ص١٢٤.

١٣ـ المرجع السابق. ص١٢٨.

١٤ـ محمود الآلوسي الحسيني، كتاب غرائب الاغتراب ونزهة الألباب ـ بغداد مطبعة الشابندر، ١٣٢٧هـ ـ ص٦٦.

15 - M. Halil Cicek/Yakin Donemde Cizre Yoresi Medreseleri (Hz.Nuh,tan Gunumuze Cizre Sempozyumu. Cizre Kaymakamligi: 8-10 May. 1998. P.126).

16 - Metin Tuncel. P.49.

17 - M. Halil Cicek. Ibid. P.128.

١٨ـ صلاح الدين المنجد. مرجع سابق. ص٦٣.

١٩ـ خير الدين الزركلي/ الأعلام ـ ط٥ ـ بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠م: ٢٧٢/٥.

٢٠ـ فيصل السامر/ ابن الأثير ـ بغداد: دار الرشيد، ١٩٨٣م ـ ص ٧١ وما بعدها.

21 - Kemal Sandikci/ Cizre'nin Yetistirdigi Onemli Ilim Adamlari: Izzeddin ve Mecduddin Ibnu, I Esir Kardesler (Hz.Nuh,tan Gunumuze Cizre Sempozyumu. Cizre Kaymakamligi: 8-10 May. 1998. P.101-105.

٢٢ـ ضياء الدين بن الأثير / ديوان ترسل. مرجع سابق. ص٣ وما بعدها. وكذلك: Hulusi Kilic/ Ziyaeddin Ibnu' l-Esir ve Arap Edebiyatindaki Yeri (Hz. Nuh,tan Gunumuze Cizre Sempozyumu. Cizre Kaymakamligi: 8-10 May. 1998. P.105 -110).

23- Islam Ansiklopedisi. TD.V. Istanbul: 7/505.

٢٤ـ المرجع السابق. ٥٥١/٢٠ ـ ٥٥٧.

25 - Ali Osman Yuksel/ Meshur Kiraat Alimi: Ibnu' l- Cezeri (Hz. Nuh,tan Gunumuze Cizre Sempozyumu. Cizre Kaymakamligi: 8-10 May. 1998) P.111-124.

٢٦ـ ياقوت الحموي. مرجع سابق: ١٣٨/٢.

٢٧ـ المرجع السابق: ١٣٨/٢.

٢٨ـ خير الدين الزركلي/ الأعلام ـ ط٥ ـ بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠م: ٢٣٢/٢.

29 - Metin Tuncel. P.51.

المكتبة السلطانية

صرح حضاري في الساحل الحضرمي

خالد سعيد مُدْرِك
حضرموت - اليمن

أدّت المكتبة السلطانية في المكلا عاصمة محافظة حضرموت دورًا كبيرًا في نشر الثقافة والمعرفة الإنسانية بشتى صنوفها منذ أمد بعيد، وظلت إلى اليوم معينًا لا ينضب؛ إذ لما تضمه من أمات الكتب في الميادين المختلفة، حتى غدت صرحًا من صروح العلم، ومحرابًا من محاريب الثقافة والتنوير، ومعلمًا من المعالم الحضارية البارزة في حضرموت.

ولإلقاء مزيد من الأضواء على تاريخ هذه المكتبة العريقة، ومؤسسها، ودورها الثقافي والعلمي في المجتمع الحضرمي، والصعوبات التي تعاني منها، وما يمكن أن يرتقي بها نحو الأفضل لتؤدي دورها المنوط بها على أكمل وجه، يجيء هذا الاستطلاع.

بدايات التأسيس الأولى

وفي حوار سريع قدم الأستاذ عبدالله عمر السكوتي أمين المكتبة السلطانية في المكلا بحضرموت معلومات وافية عن تاريخ نشأة المكتبة ومسيرتها. فقد تأسست في عام ١٩٣٥م في عهد المغفور له السلطان عمر بن عوض القعيطي ثالث سلاطين السلطنة القعيطية في حضرموت، وكان مقرها آنذاك بيت «أبو سبعة» شرق مستشفى الأمومة والطفولة حيث أدخلت تلك البناية لتوسعة المستشفى من جهة الشرق.

مؤسس المكتبة

مؤسس المكتبة هو السلطان صالح بن غالب القعيطي. وقد افتتحت رسميًا عام ١٩٤١م، وكانت نواتها الأولى ثلاثمئة مجلد تقريبًا، وكان روادها يفترشون الأرض، واستمرت تلك الحالة حتى تولى السلطان صالح بن غالب القعيطي زمام الحكم بعد وفاة عمه عمر، فاهتم بأمر المكتبة، وتولى رعايتها بنفسه لكثرة حبه للعلم والاطلاع، وكان يعدّ أحد علماء حضرموت البارزين..



جانب من المكتبة من الداخل

وقد أمر في ذلك الوقت ببناء المقر الحالي - الدور الثاني شرق مسجد عمر - وبعد اكتمال المبنى وتهيئته جعله وقفًا لطلبة العلم، ونقلت المكتبة إليه، وافتتح رسميًا بوصفه مكتبة عامة في عام ١٩٤١م.

ونقل السلطان صالح إليها معظم كتبه باللغة العربية والإنجليزية والأوردية في مختلف العلوم والمعارف.. كما جعل لها ميزانية خاصة تقدر بثلاثة آلاف شلن تلبي حاجة المكتبة من الكتب والدوريات من الدول العربية (مصر - السودان - السعودية - الكويت) في شكل هدايا إلى المكتبة، وقد انقطعت تلك الهدايا منذ فترة بعيدة.

وعين السلطان صالح لهذه المكتبة مسؤولاً مباشرًا هو

الشيخ عبدالله سالم باعشن، الذي قام بجمع الفهارس وتصنيفها بصورة محكمة، كما وضع نظاماً خاصاً للمطالعة و الإعارة بما يتناسب مع ذلك الوقت.

ثم آلت رئاسة المكتبة إلى الشيخ عبدالله أحمد الناخبي الذي بذل أقصى جهوده في تطويرها، والاستفادة من جميع مطبوعاتها، وكان يساعده في عمله المرحوم الشيخ عبدالله سعيد باعنقود، وبلغ تعداد الكتب في تلك الفترة (٦١٥٩) كتاباً و مجلداً.

وهناك كثيرون وهبوا أنفسهم لخدمة المكتبة وتطويرها حباً للعلم وللمكتبة، نذكر منهم - على سبيل المثال - المرحوم الأستاذ محمد عبدالقادر بامطرف.

واستبدل باسم المكتبة السلطانية اسم المكتبة الشعبية بعد الاستقلال مباشرة، ولمست المكتبة بعض التطور المحدود وإن كان لا يتناسب مع حجم المكتبة العامة لمحافظة حضرموت خاصة، وللجمهورية عامة.

وفي أكتوبر/ تشرين الأول من عام ١٩٨٨م استبدل اسم المكتبة للمرة الثانية فسميت مكتبة الفقيد محمد عبدالقادر بامطرف تقديراً للدور البارز الذي قام به في خدمة المكتبة، وظلت تسمى بذلك الاسم حتى أعيد إليها الاسم الذي اشتهرت به - سابقاً - وهو «المكتبة السلطانية» عرفاناً بالجميل والدور المهم الذي قام به مؤسسها، ورافع راية نهضتها السلطان صالح بن غالب القعيطي..



قاعة القراءة في المكتبة

والمكتبة لا تنسى الدور البارز الذي قامت به تلك النخبة من المسؤولين، وذوي الكفاءات العلمية، ومن عمل معهم في خدمتها في الفترة السابقة، فبصماتهم على هذه المكتبة مشهودٌ لها وواضحة للعيان، ونحن نكنّ لهم كل احترام وتقدير نظير ما بذلوه من جهد مضن في خدمة المكتبة وتطويرها.

وعلى الرغم من أنه لا توجد لدى المكتبة إحصاءات دقيقة توضح لنا متوسط القراءة في الشهر أو حتى في السنة، فإن المعاصرين لتلك الفترة يؤكدون أن متوسط القراءة والاطلاع كان مرتفعاً جداً لعدة أسباب، لعل أهمها:

- نهوض الحركة الثقافية والعلمية في مختلف أنحاء المنطقة.
- النشاط السياسي لمختلف المنظمات.
- عدم وجود وسائل التثقيف المرئية المبسطة.
- توافر أنواع مختلفة من المراجع والكتب والدوريات المحلية والخارجية مع وجود الرغبة الجامحة في القراءة وحب الاطلاع لدى الأفراد، وتشوقهم إلى متابعة كل ما استجد في عالمهم..

أما فيما يتعلق بالكتب المتداولة بين الرواد فقد بلغ تعدادها في عام ١٩٩٤م (١١٧٤٤) كتاباً، ونرى أن هذه الزيادة في كمية الكتب تعد قليلة جداً، إذا ما ووزنت بالفترات السابقة على الرغم من توافر الكتاب وتنوعه واختلاف مصادره في الوقت الحاضر. ويقول الأستاذ السكوتي: «ومن الملاحظ أن المكتبة قد عانت، وما زالت تعاني، من عدم الاهتمام الواضح بحالها، على الرغم من نداءاتنا المتكررة لإنقاذها من الوضع السيئ الذي تعيش فيه حالياً والدفع بها نحو الأفضل».

أما الصعوبات التي تواجهها المكتبة السلطانية - حسب قوله - فإنها كثيرة وأهمها: أنها لا تحظى إلا بالقليل من المخصصات المالية على الرغم من حجمها وشهرتها، وحتى هذا النزر اليسير من المخصصات الذي يعطى لها، فإنه لا يكفي لسد الاحتياجات الضرورية إليها، مما حملنا على مناشدة الأخ محافظ المحافظة لمد يد العون والمساعدة للمكتبة لانتشالها من وضعها المؤسف ودعمها بما يستطيع؛ وذلك بعد أن تخلت الجهة الرسمية عنها آنذاك (الهيئة العامة للآثار في حضرموت) على الرغم من مناشدتنا لتلك الجهة - وقد استجاب الأخ المحافظ مشكوراً لمناشدتنا، وأمر بصرف دعم شهري يقدر بعشرة آلاف ريال يمني، لتبقى المكتبة على قيد الحياة في حدها الأدنى، وهو لا يسد الحاجة إلى شراء المراجع والكتب الجديدة والدوريات، والمؤسف أن هذا الدعم الشهري، على الرغم من ضآلته، غير منتظم الورود إلى المكتبة مما تسبب في تراكم الديون عليها، بالإضافة إلى عدم

تمكننا من تأدية المهام الملقاة على عواتقنا من صيانة للكتب، وإتمام عمليات الفهرسة والتصنيف، وتزويد المكتبة بالجديد من الكتب وغيرها.

ولا يفوتنا هنا أن نشيد بما قدمه ويقدمه السلطان غالب بن عوض القعيطي، وأصدقاؤه من دعم سخي للمكتبة وروادها الكرام والمتمثل في الصيانة والترميم لسقف المكتبة وجدرانها وطلائها بالطلاء وكذلك النوافذ والأبواب، وتزويد المكتبة بالأنوار والمراوح ومجموعة من الدواليب الحديثة، ورفدها بمجموعة من الكتب القيمة.

ومن مقترحاته لتطوير المكتبة:

- مناقشة أوضاع المكتبة مع السلطة المحلية في حضرموت، والبحث عن السبل الكفيلة بتحسين وضعها.

- حث الجهات المسؤولة في المحافظة على إيجاد ميزانية خاصة بالمكتبة تفي باحتياجاتها الضرورية، إذ إنه لا يمكن تسيير عمل المكتبة والنهوض بها دون هذه الميزانية.

- الاتصال المباشر، والتفاهم مع الهيئة العامة للكتاب في صنعاء، وفرعها في حضرموت، من أجل إعطاء المكتبة العناية الإدارية والمالية التي تستحقها.

- حث المجتمعات الخيرية وأصحاب الخير على دعم المكتبة.

- إيجاد علاقة متينة بين المكتبة والجامعات والمعاهد العلمية، ودور النشر، ومراكز البحث العلمي المحلية والخارجية للاستفادة من كل أبحاثهم وخبراتهم من أجل تطوير المكتبة.

- رفد المكتبة بفريق مؤهَّل مكتبياً.

- إعطاء الفريق الموجود بالمكتبة فرصة التأهيل في علوم المكتبات حتى يكون على إلمام كامل وشامل بما تحتاج إليه المكتبة.

المكتبة السلطانية مكتبة عالمية

كانت المكتبة السلطانية قد واجهت عدداً من المنغصات والهموم بعيد الاستقلال مباشرة مما كان يسمى بجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية. ومازالت المكتبة السلطانية إلى اليوم تواجه بعض الهموم فيما يتعلق بتحويلها إلى محل آخر، وطلب إيجار منها مما حدا بالشيخ عبدالله أحمد الناخبي، المقيم في جدة إلى كتابة بعض الرسائل للجهات المختصة، ومنها: مكتب الأوقاف والإرشاد في المكلا يناشدهم فيها بالتخلي عن مثل هذه الأفكار؛ لأن المكتبة جزء مهم من وقف شرعي. (انظر صورة رسالته في آخر البحث).

وفي رسالة أخرى وجهها الشيخ عبدالله أحمد الناخبي للمدير العام لمكتب الإرشاد والأوقاف بمحافظة حضرموت بعد أن طلب من المكتبة دفع إيجار للمكتب مقابل البقاء في موقعها، قال الشيخ: «إن جامع مسجد عمر بما فيه المكتبة السلطانية قد بناه السلاطين القعيطيون بأموالهم الخاصة، وأوقفوا عليها مجموعة من الدكاكين وزودوها بكل ما يلزم من مفارش وأثاث ومن كتب.

كما أود أن أضيف هنا أنه منذ تأسيس هذا الجامع وإنشائه، فإن المكتبة السلطانية تعد - إنشائياً ومعمارياً - جزءاً لا يتجزأ من هذا الصرح الديني والتي أشرفت عليها بنفسي مع إمامة المسجد مدة تزيد على ثلاثين عاماً..



مؤسس المكتبة
السلطان صالح بن غالب

وبما أن المكتبة السلطانية جزء مهم من هذا الوقف، وأن الواقفين هم الذين أسسوا هذه المكتبة وأنها جزء لا يتجزأ من هذا الصرح الديني، فأتوجه إليكم راجياً المحافظة على ما فعله السلف الصالح، والإبقاء على هذا الأثر التاريخي الذي لا يجوز شرعاً وسلوكياً أن يُغير أو يبدل، وقد بناه الواقفون لخدمة طلبة العلم، كما أجروا سبلاً للإنفاق عليه»(١).

المكتبة السلطانية ومؤسسها في المؤلفات والدوريات

يقول الأستاذ المؤلف والمؤرخ سعيد عوض باوزير في كتابه القيم «الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي»: «.. وإلى جانب هذه المكتبة الرسمية الخاصة بالمدرسين والطلبة - يقصد مكتبة المعارف - توجد في حضرموت مكتبات أخرى عامة تحوي الكثير الطيب من الكتب القيمة المفيدة أشهرها وأكبرها «المكتبة السلطانية» في المكلا.

وقد بدأت هذه المكتبة في أواخر عهد السلطان عمر بن عوض القعيطي بحوالي ثلاثمئة مجلد فقط، ولما تولى حكم البلاد السلطان صالح بن غالب أولاها كثيراً من عنايته، وأهداها أكثر كتبه التي جلبها معه من الهند حتى بلغ عدد الكتب فيها حوالي ثلاثة آلاف ومئتي مجلد.

ويبلغ عدد الكتب الموجودة الآن في المكتبة ستة آلاف ومئة

وتسعة وخمسين مجلداً منها (٧٨٧) كتاباً باللغة الإنجليزية، و(٤٤٤) باللغة الأوردية، والبقية باللغة العربية. وهي تحتوي على علوم متنوعة: دينية، وأدبية، ولغوية، وتاريخية، وسياسية، واجتماعية، وطبيعية. وقد أصبحت هذه المكتبة مؤسسة حكومية، بعد وفاة السلطان صالح بن غالب»(٢).

ويقول المؤلف صلاح البكري في كتابه «في جنوب الجزيرة العربية» متحدثاً عن سجايا السلطان صالح بن غالب القعيطي ومناقبه ومكتبته: «إنه سلطان ذو قلب عظيم، وإن الله حباه تلك القوة التي تجتذب القلوب إليه، وهو يبهرك بتواضعه وتسامحه وبساطة معاملته وغزارة علمه، وله مؤلفات أشهرها: «مصادر الأحكام الشرعية» ٣ أجزاء، وقد طبع الأول والثاني منها، و«الملاحة البحرية»، و«رسالة في الهندسة»، و«رسالة في الأصول» وغيرها.

وكانت لديه مكتبة فيها كتب قيمة قديمة وحديثة، دينية وفلسفية واجتماعية، وأدبية، وتاريخية، وعلمية، بالعربية والإنجليزية.

وقد أراد ألا يحرم الشعب من الانتفاع بها، فأهداها إلى المكتبة السلطانية بالمكلا، فأصبحت هذه المكتبة أعظم مكتبة في جنوب شبه الجزيرة العربية»(٣).

ويشير المؤرخ الأستاذ سعيد عوض باوزير في كتابه «صفحات من التاريخ الحضرمي» في الترجمة الخاصة بالسلطان صالح بن غالب مؤسس المكتبة: «ولد السلطان صالح بن غالب في العقد العاشر من القرن الثالث عشر الهجري بالهند في حيدر أباد الدكن، وأكب على تلقي العلوم والمعارف مستعيناً في ذلك بكبار علماء عصره في الهند، وبموهبته الفذة في الاستفادة من كل ما تصل إليه يده من كتب القدماء والمحدثين. وقد دفعه ولعه بالبحث وحبه للعلم إلى تأليف عدة كتب لها قيمتها من الناحيتين العلمية والأدبية.

وهو يتكلم إلى جانب لغته العربية اللغات الهندية والفارسية والإنجليزية والفرنسية. وتوجد لديه أكبر مكتبة في جنوب الجزيرة العربية تحوي مجموعات من الكتب القيمة في اللغات العربية والإنجليزية والهندية، وقلّ أن يوجد كتاب قيم من هذه الكتب لم يطلع عليه أو يستفد منه، وقد وضع هذه الكتب أخيراً في مكتبة عامة بالعاصمة تعرف بالمكتبة السلطانية لتكون في متناول جميع القرّاء من أفراد الشعب.

وقد ظهرت رغبة السلطان صالح في إصلاح الأوضاع بحضرموت في شكلها العملي عندما تولى السلطنة بعد وفاة عمه سنة ١٣٥٤هـ، فقد جاء في خطابه الذي ألقاه عقب توليه الحكم ما يأتي: «ولا يخفى عليكم أن فلاح الأمة لا يتأتى إلا إذا كانت عرا الوفاق بين السلطان والرعايا وثيقة، وكان الأمن والسلام ضاربين في جميع نواحي المملكة وأطرافها، لأن السلطان والرعية كالأب الشفيق وأولاده، فلكليهما حقوق لبعضهم على بعض...»، وكانت هذه الرغبة في الإصلاح من بين الأسباب التي حملته على قبول مساعدة الحكومة البريطانية في إقرار الأمن في البلاد، وتحسين الإدارة، وإصلاح شؤون الثقافة والصحة العامة والعمران، وتنظيم المالية وغيرها، وقد تم من هذه الإصلاحات الشيء الكثير الذي كان فساد الأوضاع فيما مضى يحول دون تحقيقه»(٤).



لوحة المكتبة وعليها اسم مؤسسها السلطان صالح بن غالب القعيطي وعام التأسيس (١٩٤١م)

«ولا نعرف فيما قرأنا من تاريخ حضرموت ملكاً قوبل عهده بمثل ما استقبل به عهد السلطان من تفاؤل وأمل. ذلك أن هذا السلطان كان معروفاً منذ كان أميراً بعلمه الغزير، وأدبه الجم، واطلاعه الواسع على أحوال العالم الحديث وتطوراته، وديمقراطيته الصحيحة، وحبه لشعبه، ورغبته في الإصلاح.

ولعل أهم مزايا عهد السلطان صالح بن غالب وضعه حجر الأساس لنهضة ثقافية ستكون إن شاء الله فاتحة مباركة لعهد جديد من المعرفة والإصلاح الشامل.

تولى الحكم بعد وفاة عمه السلطان عمر بن عوض في أواخر سنة ١٣٥٤هـ، وتوفي عن عمر يناهز الثمانين في شوال ١٣٧٥هـ/مايو ١٩٥٦م»(٥).

ونشرت (حولية حضرموت) في عددها الأول ـ السنة الأولى ـ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٨٤م، مبحثًا ضافيًا ومهمًا سلطت فيه الأضواء على الكثير من الجوانب المهمة بالمكتبة.

تقول الحولية: «أسست المكتبة السلطانية بالمكلا في عام ١٩٤١م، وكانت تسمى بالمكتبة السلطانية نسبة إلى مؤسسها السلطان عمر بن عوض القعيطي، وبعد وفاته تولى أمرها السلطان صالح بن غالب القعيطي، وعمل على تزويدها بالكتب والمراجع وخاصة الكتب التاريخية والأدبية والدينية، وجلب إليها من الهند مجموعة من الكتب باللغة الأوردية في مختلف العلوم، وتمت فهرسة العلوم العربية السالفة الذكر على يد الشيخ عبدالله سالم باعشن، وفي عام ١٩٥٩م تشرف بإدارتها الشيخ عبدالله أحمد الناخبي الذي بذل قصارى جهده في تنظيمها وزيادة مطبوعاتها..

لقد أدت المكتبة السلطانية بالمكلا دورًا مهمًا في نشر الثقافة العامة من مختلف فئات الشعب، وساعدت على رفع مستوى وعيها الثقافي.

الكتب الإنجليزية
والمخطوطات والدوريات

تزخر المكتبة بمجموعة ثمينة من الكتب الإنجليزية موزعة بين مختلف العلوم. ومن المعروف أن المكتبة السلطانية كانت تمتلك مجموعة من المخطوطات المهمة، وهي في حد ذاتها تمثل كنزًا من التراث الثقافي الذي لا يقل أهمية عن التراث الأثري القديم.

ويتمثل ذلك الكنز في المخطوطات التي تقدر بواحد وثمانين مخطوطًا، تعدّ من الثروات المهمة التي تعبر عن ثقافة الشعب، وقد تم نقل تلك المخطوطات إلى «مكتبة الأحقاف» للمخطوطات وتضافرت جهود المركز اليمني للأبحاث الثقافية في صيانتها وحفظها خوفًا عليها من التلف والضياع.

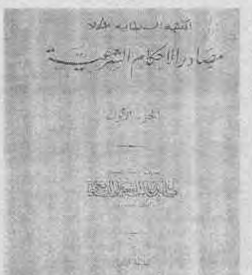
وهناك الدوريات وهي عنصر مهم في جلب القراء وشدهم نحو القراءة والاستزادة من المعرفة، وقد زودت المكتبة في الفترة الأخيرة بمجموعة من الصحف والدوريات المختلفة؛ ولأهمية هذا القسم فقد تم تزويده بمجموعة من الصحف اليمنية القديمة والمعبرة عن تاريخ نضال الشعب اليمني، وهي مرجع مهم لتاريخ نضال الشعب اليمني.

الفهرسة

للتعرف إلى ما تحتويه المكتبة من المطبوعات أو المخطوطات وجدت عدة أنواع من الفهارس: فهرس المواضيع، وفهرس الكتّاب، وفهرس المؤلفين، والفهرس القاموسي.

وقد ساهمت عملية صيانة الكتب وتجليدها بشكل فعال في تطوير المكتبة وإعادة نبض الحياة إلى بعض الكتب والمراجع المهمة فيها، كما تمت صيانة معظم الدوريات الشهرية بالمكتبة وتجليدها على الرغم من شح الإمكانات»(٦).





من مؤلفات السلطان صالح بن غالب

ولنا كلمة

وفي ختام بحثنا المتواضع هذا الذي يحاول قدر الإمكان التوثيق والتأريخ لأحد أبرز المعالم العلمية والثقافية في المكلا عاصمة محافظة حضرموت بموضوعية وصدق، وبشكل علمي، نقول للجهات المختصة في داخل حضرموت وخارجها: إنه من الأهمية بمكان الالتفات إلى وضعية المكتبة السلطانية المتردية، وتقديم كل أوجه الدعم المالي والمعنوي لها بما يجعلها قادرة على تأدية دورها المنوط بها على أكمل وجه، وعدم تغيير موقعها ومعالمها، ونقل أي شيء من كنوزها العلمية والثقافية بوصفها جزءًا مهمًا من وقف شرعي أجراه السلاطين القعيطيون، ولا يجوز شرعًا ولا سلوكيًا تجزئته بأي حال من الأحوال، كما يقول بعض الذين ترأسوا وأشرفوا على المكتبة التي لا تزال تؤدي دورها المعرفي والحضاري حتى الآن.

المراجع

١ـ رسالة (وثيقة) أخرى من الشيخ عبدالله أحمد الناخبي للجهات المختصة.
٢ـ المؤرخ سعيد عوض باوزير، الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، القاهرة: دار الطباعة الحديثة، ١٣٨١هـ/١٩٦١م، ص٢١٨، ٢١٩.
٣ـ صلاح البكري، في جنوب الجزيرة العربية، القاهرة، إبريل عام ١٩٤٩م ـ دار النشر غير مذكورة، ص٤٦، ٤٧.
٤ـ المؤرخ سعيد عوض باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ـ الطبعة الثانية، عدن: دار الهمداني للطباعة والنشر ـ ديسمبر ١٩٨٣م، ص٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦.
٥ـ المؤرخ سعيد عوض باوزير، الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، مرجع سابق، ص١٧٠، ١٧١.
٦ـ حولية حضرموت «أضواء على المكتبة السلطانية بالمكلا» ديسمبر ١٩٨٤م، العدد الأول، ص٨٤ ـ ٩٠، ٩٩.

أسرار البيات الشتوي والهجرة في عالم الحيوانات

مسعد مسعد شتيوي
العريش - مصر



بعض الدببة تدخل في فترة سكون في فصل الشتاء وتنام نومًا طويلاً

بعض الحيوانات والطيور التي تعيش في المناطق القطبية وشبه القطبية تحمي نفسها من برد الشتاء القارس عن طريق الفراء السميك أو الريش الكثيف، وبعضها الآخر يهاجر إلى مناطق أكثر دفئًا، وقليل منها يلجأ إلى البيات الشتوي Hibernation. والبيات الشتوي - بمفهومه العريض - يعني دخول الحيوان في حالة تشبه النوم Sleeplike State عند حلول فصل الشتاء وازدياد برودة الجو. وفي البيات الشتوي الحقيقي True Hibernation تنخفض درجة حرارة الجسم إلى درجة تكاد تقترب من درجة حرارة الجو الخارجي؛ ولذلك فإن العلماء يعدّون الدببة Bears من الحيوانات ذوات البيات الشتوي الحقيقي؛ لأن درجة حرارتها لا تنخفض كثيرًا عن الطبيعي، مع أنها تغط في نوم عميق عندما يحل الشتاء، وتزداد برودة الجو، ويندر الطعام.

خاصية أخرى تتميز بها الحيوانات ذوات البيات الشتوي الحقيقي هي مقدرتها على الاستيقاظ تلقائيًا، وتدفئة أجسامها بطرائق خاصة على الرغم من برودة الجو المحيط، على العكس من الزواحف والأسماك التي تدخل في بيات شتوي، ولكن لا تستطيع أن تدفئ أنفسها إلا إذا ارتفعت درجة حرارة الجو الخارجي. وعمومًا فإن الحيوانات ذوات البيات الشتوي الحقيقي قليلة نسبيًا، وتشمل بعض الديدان والحشرات، وبعض الحيوانات البرمائية والزواحف، وبعض الطيور، وبعض الحيوانات الثديية مثل القنفذ Hedgehogs والسنجاب الأمريكي Chipmunks والسنجاب الأرضي Ground Squirrel وبعض الخفافيش Bats.

وتمر الحيوانات التي تتمتع بخاصية البيات الشتوي بثلاث مراحل خلال العام:

- نشاط Activity.
- وبيات شتوي Hibernation.
- واستيقاظ Arousal.

ففي فصل الصيف يكون الحيوان في كامل نشاطه Full Activity وعندما يحل الخريف يبدأ الحيوان في الدخول في نوبات متقطعة من البيات يتبعها نوبات قصيرة من اليقظة تشبه حالة النشاط الصيفي. وبمرور الأيام تزداد فترات البيات طولاً إلى أن يصل الحيوان إلى قمة البيات الشتوي في منتصف الشتاء، ثم تبدأ فترات البيات في



تغامر الفراشات بالهجرة على الرغم من تعرض كثير منها للهلاك

النقصان تدريجياً إلى أن يستيقظ الحيوان، ويصل إلى كامل نشاطه في فصل الربيع. وتختلف الحيوانات فيما بينها في أطوال نوبات البيات واليقظة، فعلى سبيل المثال ينام السنجاب الأرضي Ground Squirrel ١٤ يوماً متصلة، تعقبها فترة يقظة مدتها يومان أو ثلاثة وهكذا. أما المرموط Woodchuck فينام ٣٠ يوماً متصلة تعقبها ثلاثة أيام من اليقظة. وفي فترة اليقظة الشتوية Winter Arousal يكون الحيوان في حالة من النشاط تشبه حالته في أثناء الصيف دون فروق واضحة.

تغيرات عضوية (فسيولوجية)

خلال البيات الشتوي تحدث في جسم الحيوان عدة تغيرات عضوية (فسيولوجية) تشمل: انخفاض درجة حرارة الجسم، وبطء دقات القلب إلى نحو ١/٢٠٠ من المعدل الطبيعي، إذ تبلغ نحو دقتين في الدقيقة، وعلى الرغم من ذلك يظل ضغط الدم طبيعياً. فبعض الأوعية الدموية يضيق في أثناء البيات الشتوي، ويحدث بعض التغيرات في الدم للحفاظ على الدورة الدموية، وينخفض عدد الكريات الدموية الحمراء والبيضاء، ولكن يرتفع عمر الكريات الحمراء نحو ثلاث مرات عن الطبيعي. ويكون تجلّط الدم بطيئاً، ولا تتجمع الكريات الحمراء، كما يحدث عادة عند التعرض للبرد. وينخفض معدل التنفس في أثناء البيات الشتوي إلى مرة كل خمس دقائق بالموازنة بمئات المرات في الحيوان النشط.

ويحتاج الحيوان في أثناء البيات الشتوي إلى ١٪ من الأكسجين الذي يحتاج إليه في أثناء النشاط الطبيعي، ومع ذلك يظل دمه مشبعاً بالأكسجين، و لونه أحمر قانياً، ويظل لون الجلد وردياً في المناطق العارية، مثل الأنف والمخالب.



الذبابة المنزلية من الحشرات التي تتميز بالبيات الشتوي

وتحتفظ العضلات بطبيعتها في أثناء البيات الشتوي على الرغم من اقتصار حركة الجسم على بعض التنقلات البسيطة كل بضع ساعات. وعند فحص الجلد وجدت تحته طبقة من الدهن الأبيض White Fat تعمل كعازل للاحتفاظ بالحرارة، أما الدهن البني Brown Fat فقد وجد بين ألواح الكتف وحول عظام الصدر لإمداد الحيوان بالوقود اللازم في أثناء البيات الشتوي، ولإعطاء طاقة سريعة عند الاستيقاظ.

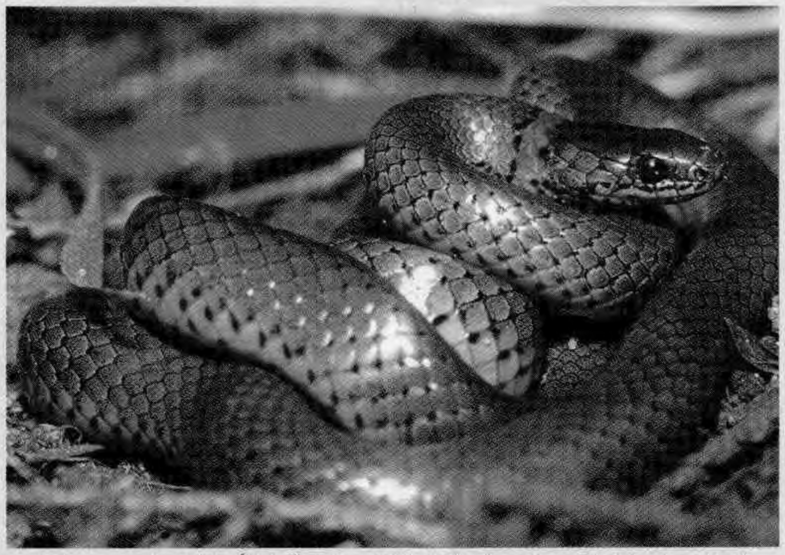
وقد لوحظ أن إزعاج الحيوان سواء باللمس أو بالحرارة يؤدي إلى إيقاظه من بياته الشتوي، أما التغيرات الصوتية أو الضوئية فتبدو عديمة التأثير في الحيوان على الرغم من أن دقات قلبه ربما تتغير استجابة للضوضاء.

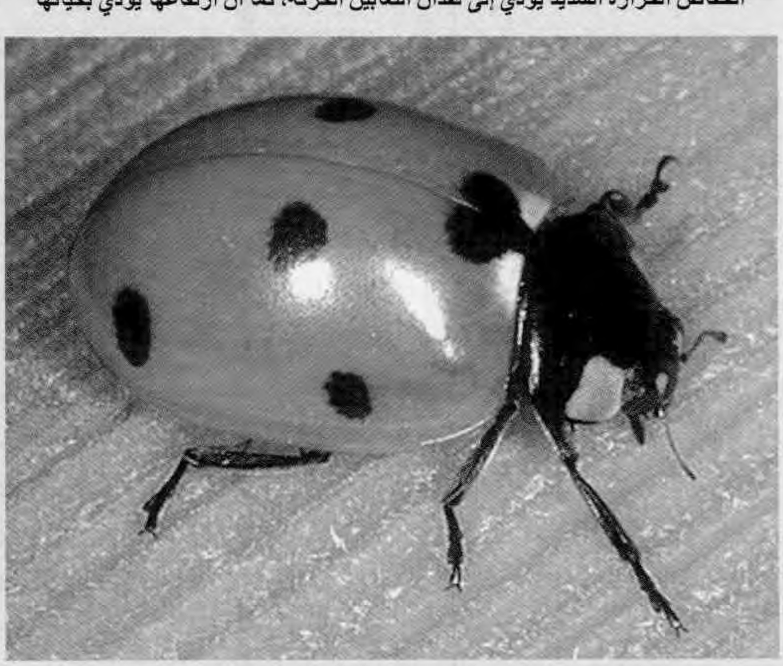
كيف يحدث الاستيقاظ؟

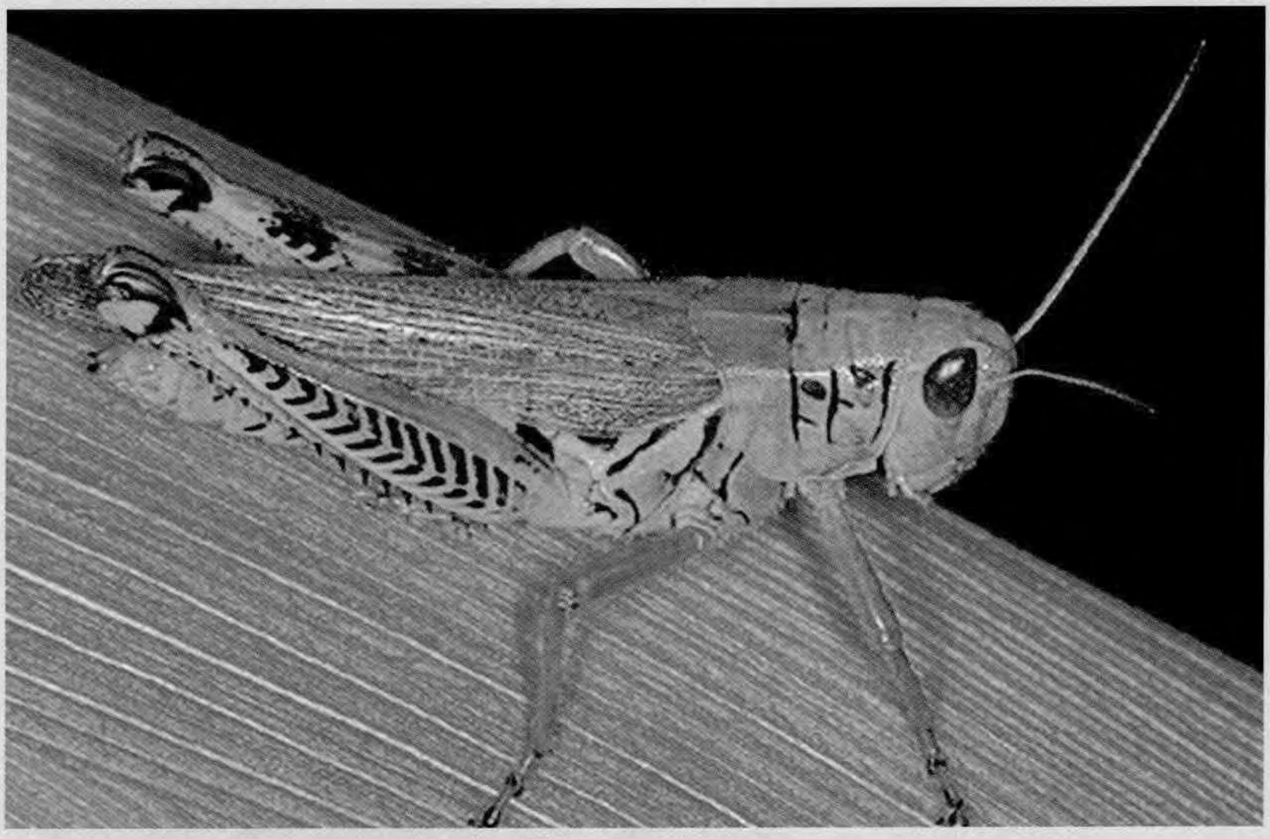
يحدث الاستيقاظ من البيات الشتوي بطريقة درامية، حيث يرتعش الجسم ككل ويهتز بشدة، وتزداد سرعة التنفس وعمقه، وترتفع درجة حرارة الجسم بسرعة على الرغم من برودة الجو الخارجي. ويتم حرق كمية كبيرة من النسيج

الدهني البني خلال فترة قصيرة لإنتاج الطاقة اللازمة لتنشيط الخلايا والحرارة اللازمة لتدفئة الجسم. وبعد نحو ساعتين يكون الحيوان قد استيقظ تماماً Fully Aroused واستعاد الجهاز الهضمي نشاطه الطبيعي، فيبدأ الحيوان في البحث عن وجبة خفيفة في مخزن طعامه، وإذا لم يجد فعليه البحث خارج مخبئه أو كهفه قبل العودة إلى بياته الشتوي مرة أخرى.

وعلى الرغم من معرفتنا بالتغيرات (الفسيولوجية) التي تحدث في أثناء البيات الشتوي فإن معلوماتنا حول: كيف تبدأ ولماذا في هذا التوقيت بالذات ما زالت غير دقيقة. وقد أجرى العلماء الكثير من التجارب في محاولة منهم للإجابة عن هذه التساؤلات، منها على سبيل المثال تجربة أجريت على السنجاب الأرضي حيث تم أخذ عينة من دمه (٣ ملليمترات) في أثناء بياته الشتوي، وتم حقن حيوانين آخرين كانا قد استيقظا لتوهما من بياتهما في شهر آذار/مارس، (١مللي لكل حيوان في الوريد الفخذي) وتركوهما في حجرة باردة تحت درجة حرارة ٧ْم، فوجدوا الحيوانين قد استأنفا بياتهما الشتوي مرة أخرى بعد بضعة أيام. وبتكرار مثل هذا النوع من التجارب استنتج العلماء أنه ربما توجد مادة طبيعية في دم السنجاب تؤدي إلى حدوث البيات الشتوي، وأنه إذا ما تم نقل هذه المادة إلى حيوان دافئ نشيط فإنه سرعان ما يدخل في بيات شتوي بمجرد تعرضه لجو بارد. لاحظ العلماء أيضًا أن الدم المأخوذ من حيوانات مضى عليها أسبوعان أو ثلاثة في بيات شتوي كان أكثر تأثيرًا في استحداث البيات الشتوي من الدم المأخوذ من حيوانات دخلت الآن في البيات الشتوي. وهذا معناه أن تركيز المادة الباعثة على البيات الشتوي تزداد كلما امتدت فترة الشتاء. وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يستطع العلماء استحداث البيات الشتوي في بعض


انخفاض الحرارة الشديد يؤدي إلى فقدان الثعابين الحركة، كما أن ارتفاعها يودي بحياتها


الخنفساء المرقطة تنتج الجليكولات التي تمكنها من تحمل البرد القارس



هجرة الجراد لاتزال تمثل لغزاً للعلماء

أنواع السنجاب غير المعتادة على هذا السلوك - باستخدام هذه الطرائق والأساليب؟ وجد العلماء أن هناك أنواعاً من السنجاب تتأقلم مع الجو البارد، ولا تدخل في بيات شتوي مطلقاً حتى عند حقنها بدم حيوانات من ذوات البيات الشتوي الطويل، والتحدي الكبير يكمن في تحديد طبيعة المادة الموجودة في الدم وتسبب البيات الشتوي، لأن مصل الدم مركب معقد يحتوي على آلاف المواد. *ومَا أُوتيتم من العلمِ إلا قليلا*. **الإسراء**:٨٥.

من هنا نرى أن البيات الشتوي ليس مجرد استجابة سلوكية Behavioral Response لتغير الظروف البيئية، وإنما هي أيضاً ظاهرة عضوية (فسيولوجية Physiological Phenomenon) يحدث من خلالها بيات شتوي لكل أنسجة الجسم وأعضائه. وسنتكلم الآن على البيات الشتوي أو الهجرة في الأنواع المختلفة من الحيوانات بشيء من التفصيل:

الثعابين Snakes

مع أن درجة حرارة جسم الثعبان تختلف باختلاف درجة حرارة البيئة، إلا أنها يجب أن تظل في حدود معينة حتى يستطيع الحيوان البقاء على قيد الحياة. والدرجة المناسبة لنشاط الثعابين تراوح بين ٢٠ و ٣٥°م. أما إذا انخفضت إلى أقل من ٤ درجات مئوية فإن الثعابين تتوقف عن الحركة. ومن ناحية أخرى، فإن ارتفاع درجة الحرارة عن ٤٠°م يؤدي إلى هلاك الثعابين. وتلجأ الثعابين التي تعيش في مناطق تشتد فيها برودة الجو في الشتاء إلى البيات الشتوي في الجحور والكهوف حتى لا تتجمد. وفي معظم المناطق لا يصاب الثعبان بالتجمد إذا كان على بعد ٣ أقدام

(٩٠سم) من سطح الأرض. وفي أثناء البيات الشتوي تنخفض درجة حرارة جسم الثعبان إلى ٤ ـ ٥م. وقد تلجأ مئات من الثعابين إلى البيات الشتوي في مكان واحد إذا ما تعذر الحصول على أماكن متعددة، وعندما يحل الخريف أو الربيع قد نرى تجمعات كبيرة من هذه الثعابين خرجت من أوكارها تتراقص تحت أشعة الشمس الدافئة بعد سبات شتوي طويل.



القنفذ وتغيرات عضوية في أثناء البيات الشتوي

السلاحف Turtles

من حيوانات الدم البارد مثل الثعابين، ولا تستطيع تحمل الأجواء الشديدة البرودة، ولذلك فإنها تلجأ إلى البيات الشتوي لحماية أنفسها. فإذا كانت تعيش في المياه العذبة فإنها تحفر جحوراً لها في قاع البرك والقنوات التي تقطن فيها، وتستمتع ببيات شتوي دافئ. أما السلاحف الأرضية فمن الطبيعي أن تدفن أنفسها في التربة حتى تجتاز فترة البرد الشديد.

بعض أنواع السلاحف تتغلب على الجفاف والحرارة الشديدة في الصيف بالدخول في حالة من السكون أو النشاط المحدود تسمى Estiva-tion أو البيات الصيفي تماثل البيات الشتوي إلى حد كبير، إذ يقل معدل التنفس وضربات القلب، وتنخفض جميع العمليات الحيوية في الجسم بدرجة كبيرة، حتى يستطيع الحيوان مواجهة الجفاف والحرارة الشديدة. كثير من البرمائيات والزواحف وبعض الحشرات تسلك هذا السلوك، بالإضافة إلى الأسماك التي تعيش في البرك والقنوات التي تجف مياهها في فصل الجفاف. وهناك بعض أنواع من الضفادع (السلامندر Salamander) تلف شرنقة حول نفسها قبل الدخول في البيات الصيفي حتى تمنع فقد الماء من الجسم، وبعد انتهاء موسم الجفاف واعتدال الجو تخرج من الشرنقة، وتستأنف حياتها الطبيعية.

الحشرات Insects

كثير من الحشرات يموت مع حلول الشتاء، وكثير أيضاً يتغلب على برودة الجو بالبيات الشتوي. بعض الحشرات يمر بفترة تسمى Diapause يتوقف خلالها نموها وتطورها، وقد تحدث في مرحلة البيضة Egg أو اليرقة Larva أو العذراء Pupa أو الحشرة الكاملة Adult، وقد تحدث في أي فصل؛ وحينما تحدث في الشتاء تسمى بياتاً شتوياً، وفي أيّ الحالات فإن لكل نوع Species من الحشرات طوراً محدداً Specific Stage يحدث فيه توقف النمو Diapause أو البيات الشتوي، وفي خلال هذه الفترة تنخفض العمليات الحيوية إلى أقل معدلاتها، وحينما تتحسن الظروف البيئية تستكمل الحشرة تطورها ونضجها وتتكاثر من جديد. والحشرات التي تتميز بالبيات الشتوي تشمل الذبابة المنزلية،

والخنفساء المرقطة، وبعض أنواع الفراشات والبعوض، وأماكن البيات قد تكون داخل الحظائر أو الكهوف والأقبية وتجاويف الأشجار والجحور. وقبل الدخول في البيات الشتوي فإن دم اليرقة أو العذراء أو الحشرة الكاملة - أيا كانت - ينتج مواد تسمى جليكولات Glycols تشبه المواد المانعة للتجمد Antifreeze التي توضع في السيارات؛ هذه المواد هي التي تمكن الحشرات من تحمل البرد القارس. ويعتقد العلماء أن إنتاج الجليكولات يبدأ عندما تقل الفترة الضوئية Photoperiod أي عندما يبدأ طول النهار في النقصان، وذلك في الخريف وبداية الشتاء، ويقل إنتاج الجليكولات بعد انتهاء الشتاء وقدوم الربيع يستبدل بها الدم الطبيعي.

هجرة الحشرات Migration

بعض أنواع الحشرات وأشهرها الجراد Locusts يقوم بالهجرة إلى أماكن بعيدة، ويسافر في أسراب كبيرة لدرجة أنها قد تحجب الشمس. ولا يعرف العلماء حتى الآن السبب في هجرة الجراد، كل الذي يعرفونه هو أنه يبدأ الهجرة بعد تكوين عشائر كبيرة. وأن هجرته ليست بسبب الجوع أو ندرة الغذاء، فقد يهاجر من أرض ذات غذاء وافر، وقد لا يتوقف للتغذية في أثناء رحلته إذا صادف أرضًا خضراء مورقة، ولكنه، والأهم من ذلك، أنه بعد وصوله إلى غايته فإنه يقضي على كل مظاهر الحياة النباتية شرّ قضاء.

والهجرة معروفة أيضًا في بعض أنواع الفراشات مثل المونارش Monarch الذي يعد من أبطال المسافات الطويلة، إذ يهاجر على هيئة سحب كثيفة من كندا وشمال الولايات المتحدة إلى المناطق الدافئة في كاليفورنيا وفلوريدا والمكسيك قاطعا مسافات تصل إلى ٢٠٠٠ميل (٣٢٠٠كم)، وهناك يقضي معظم أوقاته في الراحة والاستجمام وتوفير الطاقة لرحلة العودة في الربيع إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً. على الرغم من تعرض الكثير من الفراشات إلى الهلاك خلال هذه الرحلة الشاقة، فإنها من أجل الحفاظ على النوع، تضع بيضها في أثناء رحلة العودة ليفقس



السنجاب الأرضي قد ينام ١٤ يومًا متصلة

وتخرج منه أفراد جديدة، وبعد تمام نضجها تستكمل رحلة العودة إلى الشمال.

الخفافيش Bats

الخفافيش التي تعيش في المناطق الباردة تتغلب على برودة الجو وقلة الغذاء بإحدى طريقتين:

- البيات الشتوي داخل الكهوف والأماكن الصخرية، وتعتمد في الحصول على الطاقة على الدهن المخزن في الجسم في أواخر الصيف.
- الهجرة إلى أماكن يتوافر فيها الغذاء أو تناسب البيات الشتوي. والخفافيش المهاجرة قد تطير مسافات طويلة بحثًا عن المأوى المناسب الذي



الخفافيش قد تطير مسافات طويلة بحثا عن المأوى المناسب

يقيها برد الشتاء. وإذا أنِسَت الخفافيش مكاناً ما فإنها تلجأ إليه كل شتاء، ثم تعاود أدراجها عند تحسن الجو كي تقضي الربيع والصيف في موطنها الأصلي. أما خفافيش المناطق الاستوائية أو شبه الاستوائية فليست في حاجة إلى البيات الشتوي في مناطق تتمتع بشتاء دافئ وغذاء وافر معظم أوقات السنة. والمعلومات عن هجرة خفافيش هذه المناطق مازالت غير كافية.

البيات أو الكسل الشتوي في الدببة Bears

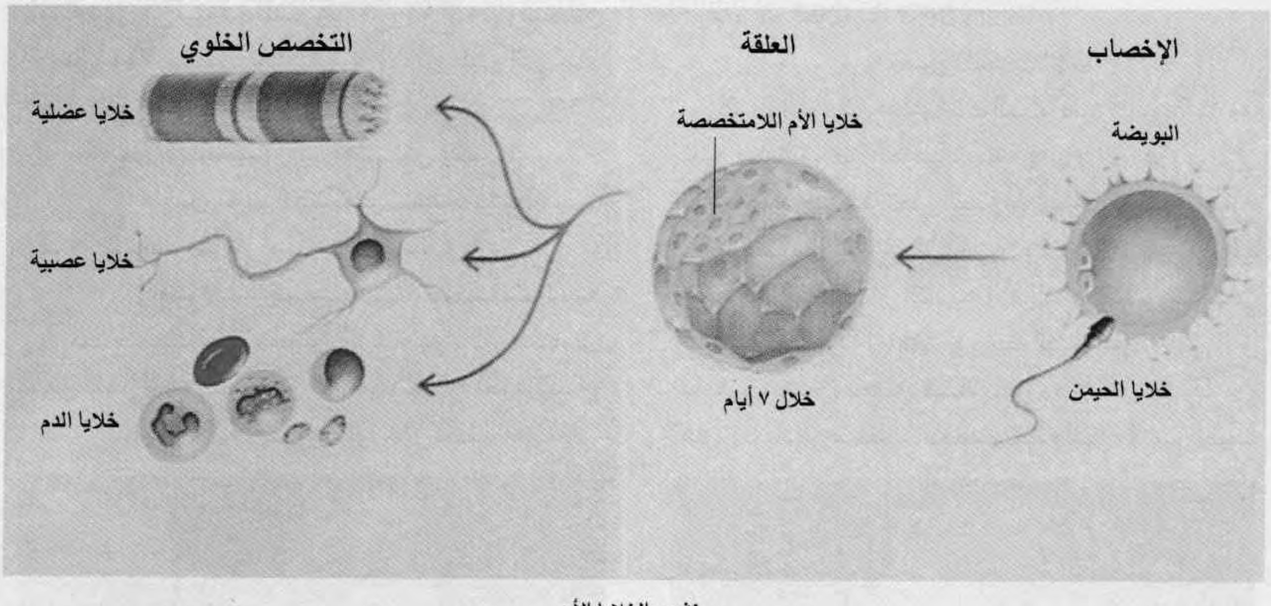
بعض الدببة تدخل في فترة سكون Dormancy في فصل الشتاء، وتنام نوماً طويلاً، وتختلف وجهة نظر العلماء حول حقيقة هذا السلوك، أهو بيات شتوي حقيقي True Hibernation أم مجرد نوم طويل؟ المعارضون لتصنيف الدببة ضمن حيوانات البيات الشتوي الحقيقي حجتهم في ذلك أن درجة حرارة الجسم في هذه الحيوانات لا تنخفض كثيراً في أثناء فترات نومها الشتوي، أو كما يطلقون عليه الكسل الشتوي Winter Lethargy، بالإضافة إلى أنه من السهل إيقاظها من نومها العميق. أما المؤيدون فيقولون: إن معدل ضربات القلب عندها ينخفض إلى أقل من النصف في أثناء فترات نومها. أما عدم انخفاض درجة حرارة الجسم بدرجة تماثل ما يحدث في البيات الشتوي الحقيقي فيرجع إلى ضخامة أجسامها ومن ثم صعوبة فقد الحرارة منها. ويستعد الدب لبياته الشتوي بابتلاع كميات كبيرة من الطعام في أواخر فصل الصيف لتخزينه في جسمه على هيئة دهن، وحينما يحل الشتاء ويندر الطعام، يذهب الدب للنوم في أحد الكهوف أو الحفر الجليدية التي يكون قد أعدها لنفسه. وتختلف أنواع الدببة فيما بينها بالنسبة إلى ظاهرة النوم أو البيات الشتوي، فمثلاً الدببة البنية أو السوداء تعيش في مناطق قارسة البرودة، لذلك فإنها غالباً ما تأخذ قسطاً كبيراً من النوم شتاءً، أما الأنواع التي تعيش في ظروف أكثر اعتدالاً فإنها تنام فترات قصيرة. ومن ناحية أخرى فإن الدب القطبي، على معيشته في جو شديد البرودة، يظل نشيطاً طوال الشتاء يمارس هوايته في التجول بين الثلوج بالقرب من الشواطئ أملاً في العثور على وجبة شهية من عجول البحر Seals أو أيّ من الثدييات البحرية الأخرى التي تأتي إلى الشاطئ.

المراجع

1- Curtis, H. 1977. Invitation To Biology. Worth Publishers, INC. New York.
2- Dawe, A.R. 1977. The Secretes of Winter Sleep. Science Year. pp. 201-210, World Book, INC. Chicago.
3- Louw, G.N. And Seely, M.K. 1982. Ecology of Desert Organisms. Williams Clowes LTD, London.
4- World Book Multimedia Encyclopedia. 1996. World Book. Inc., Chicago.

الخلايا الأم والشباب الدائم
أبات الحلم علماً؟!

يوسف بن عبدالرحمن الذكير
الرياض - السعودية



نشوء الخلايا الأم

الشباب الدائم، حلم داعب مخيلة الإنسان، منذ غابر الأزمان، وعلى مر العصور. ملاحم وأساطير وحكايات، يكاد لا تخلو منها أدبيات أمة من الأمم، ففي ملحمة جلجامش نجد نصاً فيه إشارة إلى البحث الدائم عن الخلود، يقول:

«أي جلجامش..
لِمَ هذا الجري، في جميع الجهات؟
إن الحياة التي تسعى إليها
لن تجدها.. أبداً».

بضعة أسطر معبرة، منذ أزمان غابرة، يناهز عمرها خمسة آلاف عام، مسطرة بالخط المسماري السومري، ضمن اثني عشر لوحاً طينياً، محفوظة في متحف بريطاني. أقدم كتابة عرفتها البشرية، لأقدم ملحمة خطها الإنسان، ملحمة «جلجامش» في جريه اللاهث خلف سراب، خلود الشباب..!

تراثنا العربي الثري، لم يتخلف أو يختلف، عن تراث عدد من الشعوب، في تسطير الأساطير، عن أكاسير الحياة، وينابيع الشباب! فذاك ابن الأثير في مؤلفه الشهير «الكامل في التاريخ»، يورد مروية، تناقلتها العرب أيام الجاهلية، عن أسطورة «لقمان بن عاد»، ونسوره السبعة، التي ما إن يموت أحدها، حتى يتجدد عمره، بفقس فرخ جديد. بل يضيف إليها المسعودي في مؤلفه المعروف «مروج الذهب ومعادن الجوهر» أسطورة أخرى، عن النسر الأخير «لبد» الذي طال عمره، ففاق أعمار أحجار الديار، في أبيات تقول:

يا نسرَ لقمانَ كم تعيشُ وكَمْ
تلبسُ ثوبَ الحياةِ يا لُبَدُ
قد أصبحَتْ دارُ حِمْيَرٍ خَرِبَةً
وأنت فيها كأنكَ الوَتَدُ

ولكننا ما عدنا نعيش عصور الأساطير والخرافات، بل نعيش عصر العلم. عصراً قدَّر الله جلا وعلا فيه لعقل الإنسان - إحدى آياته الكبرى - أن يبدع ويبتكر، حتى تخطى أحلامه!..

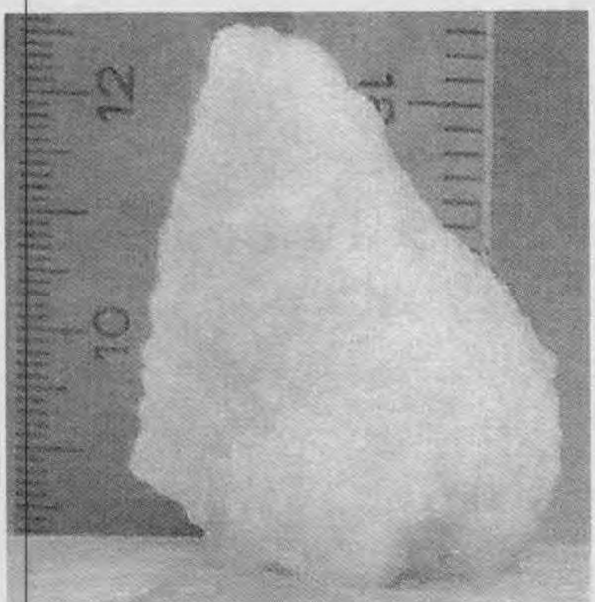
مماهاة عباس بن فرناس للطيور، تخطاها بآلات أسرع وأرحب، قَلَبَ بالكهرباء ليلَه نهاراً، وفاق الأسماكَ في غوصها في البحار، فهل يستعصي حلم دوام الشباب، أمام معجزة العقل البشري الإلهية؟.. يأبى القرن العشرون أن يغادر دون أن يعطر ذكراه بمسك البشائر.. فالحلم بات قاب قوسين في أن يتحول إلى علم!!.. علم واعد وليد، تمخض عن تلاقح علم الأجنة وتداخله، وعلوم الهندسة الوراثية قال عنه جراح القلب العالمي الشهير مجدي يعقوب: «إنه سيفتح باب الأمل واسعاً أمام مرضى القلب، في غضون عشر سنين»، بل مضى في وصفه، السناتور الأمريكي أرلن سبيكتر أشواطاً أبعد، حينما صرح بقول: «إنه ينبوع الشباب الدائم الحقيقي»، ذلك هو العلم الوليد، علم الخلايا الأم Stem Cells!..

أصل الخلايا الأم

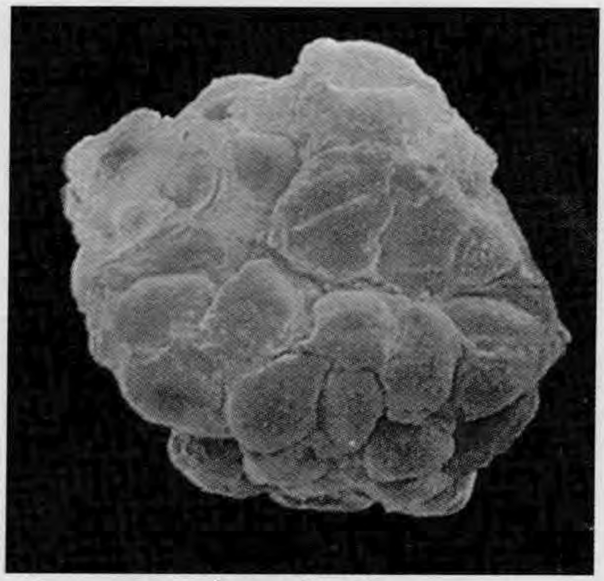
كلمة «الأم» في تسمية تلك الخلايا تفيد المعنى أكثر مما تعبر عن الترجمة الحرفية، لكلمة Stem الإنجليزية، إذ إن ترجمتها حرفيًا بدقة تعني الجذع أو الساق التي تنمو ويتفرع عنها عدد من الفروع والأغصان والبراعم والأوراق، فقد يفسر التسمية بالساق التشبيه الأقرب إلى التصور، والمعبر بدقة عن المقصود؛ إن اقتصر تشبيه الساق المعني على ساق ما يُعرف بشجرة العائلة. فمثلما يتفرع عن ساق تلك الشجرة أبناء وأحفاد في مختلف التخصصات والمهن، فمنهم الطبيب

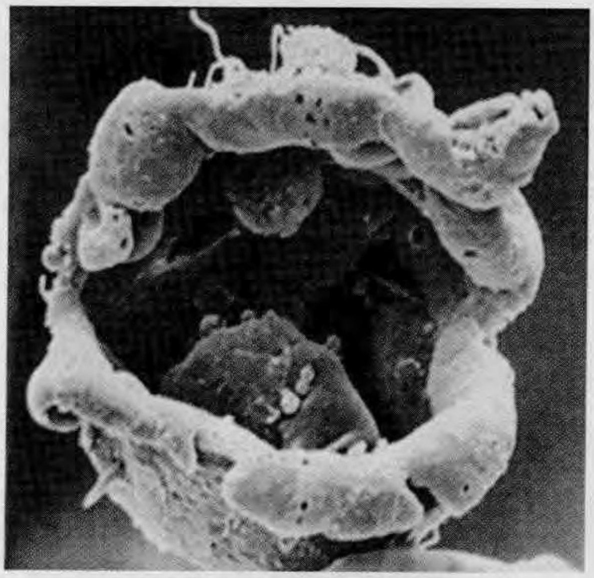


قالب أنف من ألياف البوليمر بشكل الأنف الأصلي للمريض



قالب الأنف بعد حقنه بالخلايا الحية المتخصصة من المريض نفسه


علقة جنينية عمرها ٥ أيام


علقة مفتوحة تظهر الخلايا الأم في جوفها

والأديبة، والمحامي والمعلمة، والمهندس والممرضة، وعشرات التخصصات الأخرى، كذلك يتفرع عن خلايا الساق (الأم) جميع خلايا أعضاء الجسم، من خلايا عصبية تنقل إشارات كهربائية وكيماوية إلى خلايا دم، بعضها ينقل الأوكسجين والغذاء وأخرى مهمتها الذود والشفاء إلى خلايا عظام وأحشاء، وأخرى عضلية تتميز بالانقباض والانبساط، إلى خلايا متخصصة لأعضاء ومحددة الوظيفة من قلب وكبد وغدد وحواس، وما لا يكاد يُعد ولا يحصى من تخصصات، جميعها على الإطلاق تتفرع عن تلك الخلايا الإعجازية، خلايا الأم أو الساق.

الأصل في نشوء الخلايا الأم، هو إبان الأيام السبعة التالية لعملية التخصيب، فما إن تتم عملية تخصيب البويضة، حتى تبدأ بالتكييس منعاً لدخول أكثر من حيمن ذكري واحد، لتبدأ عملية الانقسام في مرحلة «العلقة». فالأيام السبعة الأولى منها هي الحاسمة، إذ إن الخلايا الناشئة من عملية انقسام الخلية الأولى المخصبة، تكون من الخلايا غير المتخصصة، ولكنها تحمل كل المعلومات والشفرات التي تمكنها من إنتاج مختلف خلايا أعضاء الجسم البشري، تلك الخلايا هي التي باتت تسمى الخلايا الأم أو الساق، فهي خلايا إعجازية القدرة، فريدة الخصائص، قد يمثل اكتشافها، خير ختام لقرن فريد.

القرن العشرون الذي قدر فيه الخالق - جل وعلا - للإنسان أن يحقق - بما وهب له من معجزة العقل - أبدع الإنجازات الحضارية، لم يتخلف فيه جواد الطب والعلاج عن مواكبة بقية الجياد العلمية فيما حققته من قفزات مذهلة. فبينما كان متوسط عمر الفرد في بداية القرن في الولايات المتحدة الأمريكية لا يزيد على ٤٧ عاماً، لم ينته القرن، إلا وقد أوشك أن يضاعفه إذ بلغ ذلك المتوسط ٧٦ سنة في نهايته!..

ما كان التوصل إلى تلك النتائج بالإمكان، لولا ما شهده ذلك القرن من تقدم باهر في ميادين تشخيص الأمراض، والمسببات من جراثيم وبكتريا وفيروسات. تقدم لم يقتصر على كبح جماح نسب وفيات المواليد والأطفال، التي كانت من أهم أسباب رفع معدل متوسط الأعمار، بل فيما رآه من إنجازات من ابتكار لأمصال، واكتشاف لأدوية ومضادات ساهمت بفعالية في الحد من معدل الوفيات، سواء من ضحايا الأوبئة، والأمراض الفتاكة، أو من جرحى الحروب، التي شهد منها اثنتين لم ير قرن سابق لهما مثيلاً، لما استخدم فيهما من أسلحة قتل وتدمير..! إلا أن التحدي المستعصي ظل ومازال في إيجاد علاج ناجع لمن يعانون من قصور جزئي أو فشل كلي لأحد أعضاء الجسم الحيوية الرئيسة، كالكلية، أو البنكرياس، أو القلب.

ومازالت أمراض القلب تحتل المقام الأول في أسباب الوفاة



استنبات عضلة قلبية بشرية

في الولايات المتحدة الأمريكية على الرغم مما أثير من ضجة إعلامية حول ضحايا مرض نقص المناعة (الإيدز)، أو ضحايا مرض السرطان المرعب بكل أنواعه. فعلى الرغم مما أحرز من تقدم في عمليات جراحة القلب المفتوح، سواء لاستبدال شرايين متصلبة، أو صمامات تالفة، أو استبدال القلب ذاته، لاتزال أرقام ضحاياه تتحدى الأطباء. فعمليات زرع القلب، منذ أن تمكن رائدها، الجراح الجنوب أفريقي كريستيان برنار من إجراء أولى عملياتها قبل عقود، وتمكن الطب من التغلب على صعوبات رفض جهاز مناعة الجسم، لم تنجح في الحد من ضحايا أمراض القلب لسبب رئيس يكمن في صعوبة الحصول على قلب بديل. فالقلب مثل كل الأعضاء الحيوية الرئيسة، كالكبد والعين والبنكرياس لا يمكن الحصول عليه إلا بعد الوفاة، يزيد من صعوبتها ما يعانيه تأمين المتبرعين بتلك الأعضاء من نقص حاد، على الرغم من حملات التبرع الإنسانية الطابع، إذ لا تزال أعداد المتبرعين تمثل قلة نادرة، لا توازن بأعداد المحتاجين المتكاثرة، كما تظهر الإحصاءات المتوافرة في البلدان المتقدمة.

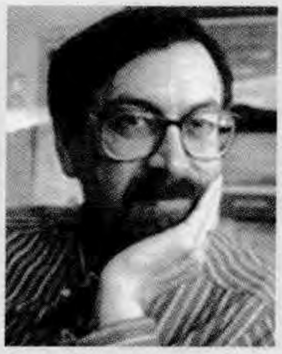
فعلى سبيل المثال نشرت جمعية القلب الأمريكية عام ١٩٩٧م تقريراً يشير إلى أنه من بين ٤٠,٠٠٠ مريض يواجهون خطر الموت المحتم، لم تنجح تلك الحملات في استقطاب متبرعين إلا لألفين وثلاثمئة مريض منهم!.. بل إن تلك الأرقام تبدو هزيلة حينما يوازن باثني عشر مليوناً ممن يعانون من فشل كلي أو جزئي للبنكرياس، مما يضطر عدد منهم للاعتماد على غرز الإنسولين اليومية، فإذا ما أضيف عشرات الآلاف من مرضى الفشل الكلوي المعتمدين على آلات المستشفيات، وما يقضونه من دورية مضنية. وآخرون ممن يشكون قصوراً في الكبد أو الطحال، أو من هم في ظلام دامس في انتظار متبرع ببؤبؤ أو قزحية للعين، اتضح ما تمثله تقنية زراعة «الخلايا» الجنينية من أمل واعد، كما ونوعاً للحياة، فهل ستشكل تلك التقنية نهاية رحلة طويلة وشاقة للبشرية، لا في بحثها الدؤوب عما يعوض الإنسان عن فقدان بعض من أطرافه وأعضائه، فحسب، بل في الوصول إلى ينبوع الشباب.. أم أن ذلك مجرد سراب؟.

رحلة الاستكشاف والعقبات

ساق خشبية، سن ذهبية، عين زجاجية، وأيدٍ خطافية، بعض من أبجديات رحلة شاقة بدأها الإنسانُ في دروب

استشكاف إيجاد بديل لأعضاء قد تعوض وظيفة، أو مظهراً، لما يفقده بعض من كتب عليهم فقدان طرف، أو إخفاق عضو من أجسادهم، وصولاً إلى أطراف صناعية متطورة، أو قلب خزفي يعمل ببطارية إلا أن المفارقة الساخرة تكمن في أن رحلة الاستشكاف تلك تبدو كأنها باتجاه معاكس لمسيرة الحضارة البشرية!.. فحين بدأت مسيرة الحضارة من الزراعة لتنتهي بالصناعة، سارت مسيرة إيجاد (الأبدال) من محاولة تصنيع أعضاء صناعية، لتنتهي في نهاية القرن العشرين إلى إمكانية زراعة أعضاء بديلة طبيعية!. فالنقص الحاد في تأمين الأعضاء الجاهزة للزراعة، موازنة بتزايد أعداد المحتاجين إليها نتيجة لندرة المتبرعين، لم يفت من عزيمة الأطباء والباحثين، بقدر ما شكّل تحدياً وحافزاً لاستكشاف درب بديل فكان البديل علماً جديداً ونقطة تحول محورية في مسيرة توفير الأعضاء البشرية. نقطة تحول تمثلت في الجمع بين الصناعة والزراعة في تأمين تلك الأعضاء، علماً جديداً باسم «هندسة الأنسجة» Tissue Engineering يعتمد على تنمية خلايا بشرية في قوالب محددة ومزارع خاصة ذات ظروف بيئية مماثلة للجسم البشري، يتم دعمها بألياف صناعية للحصول على أعضاء بأحجام وأشكال مناسبة، على الرغم من نجاح التجارب المبدئية لتقنية هندسة الأنسجة، وبصفة خاصة في زراعة الجلد مما أنقذ أو أعاد البسمة إلى الآلاف من ضحايا حرائق المباني والغابات التي يشهد منها العالم المئات كل عام، وحقق نجاحاً مماثلاً في زرع بعض أربطة العضلات وأوتارها، أو أطراف محدودة الحجم كالأنف والأذن وخاصة في التغلب على رفض جهاز مناعة الجسم لتلك الزراعة، فهي تعتمد على خلايا مأخوذة من ذات المريض. كما أن القالب المكون لأشكالها مصنوع من ألياف مبلمرة Polymers جيلاتينية الصبغة تتحلل بعد فترة مثلها في ذلك مثل الخيوط الجراحية المستخدمة في العمليات الجراحية الباطنية، تاركة الأطراف المزروعة بخلاياها الطبيعية مما حدَّ من التشوهات، وتغلب على ما كان يعانيه من إحراج بعض ممن تُثَبَّت لهم أطراف صناعية بحت، تخفق في مماهاة الأطراف الطبيعية الأصلية، مهما بلغت من مهارة ودقة. إلا أن ما حد من انتشارها وتعميمها كان عقبات من أصعبها:

ـ تحديد تركيز الخلايا اللازم زراعتها لتنمية عضو بالحجم المطلوب، فحين حاول العلماء تطوير تلك الزراعة لتشمل



روجر بيدرسن



جون غيرهارت



عملية جراحية لقلب



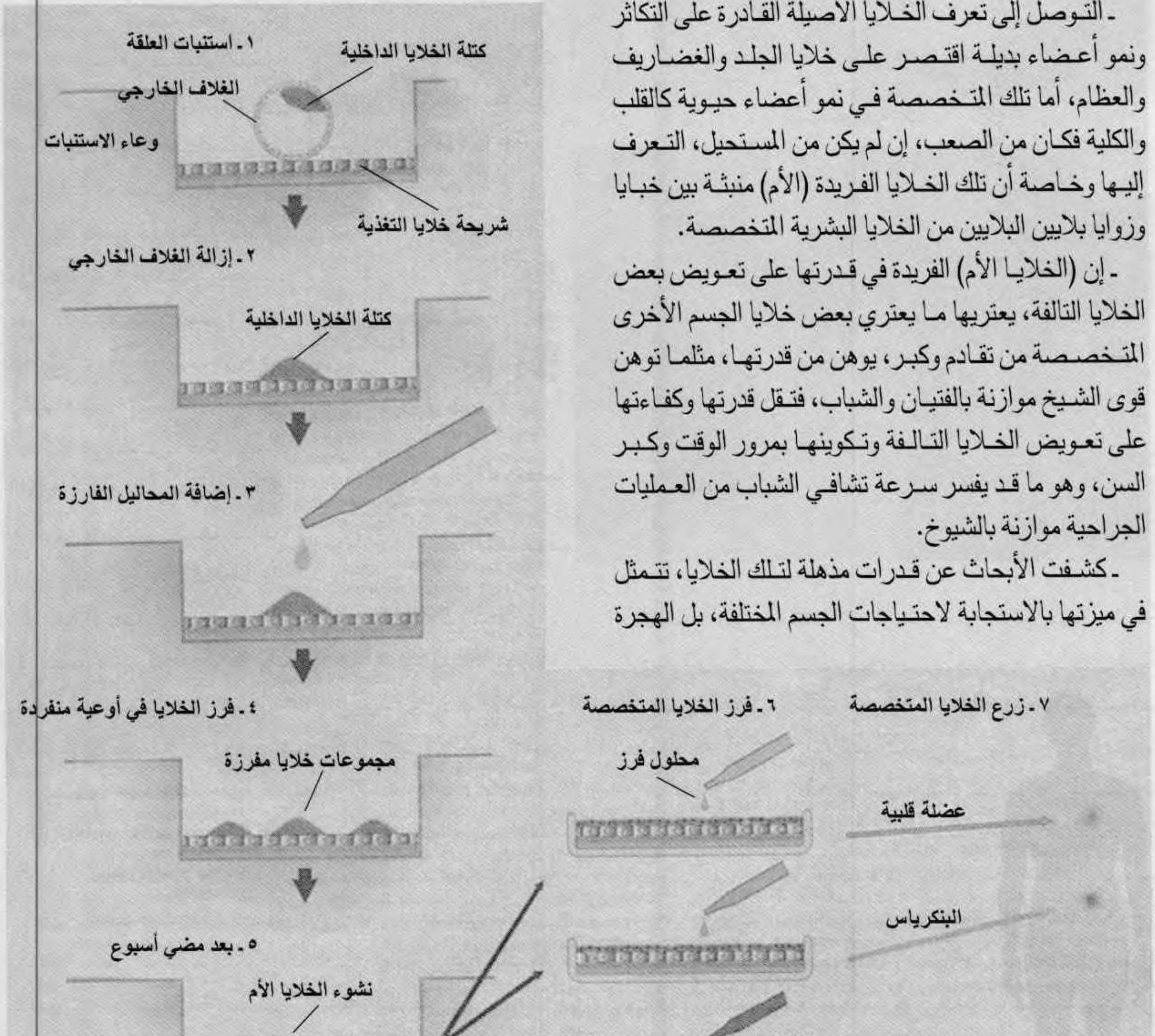
على الرغم من تقدم جراحة القلب لا تزال أمراض القلب من أهم أسباب الوفاة

أعضـاء أكثـر تعقيـداً كالبنكرياس، جـاءت النتائج عكسـية بل كـارثية..! فبعـد نجاح تجـربة على الفـئران أثبـتت نجاحـا في التخلص من مـرض السكري، جاءت النتائج مـعاكسـة تماماً، عند تطبيـقهـا على الإنسـان، إذ إن تلك الخلايا لم تتـوقف عن التـكاثر حـين بلغ الـبنكـرياس المزروع الحـجم المطلـوب، بل استمرت في النمو والتكاثر بشكل سرطاني، شكل خطراً مميتاً على حيـاة المريض نفسه، لو لم يتم تداركـه باستئصـال الخلايا المزروعة.

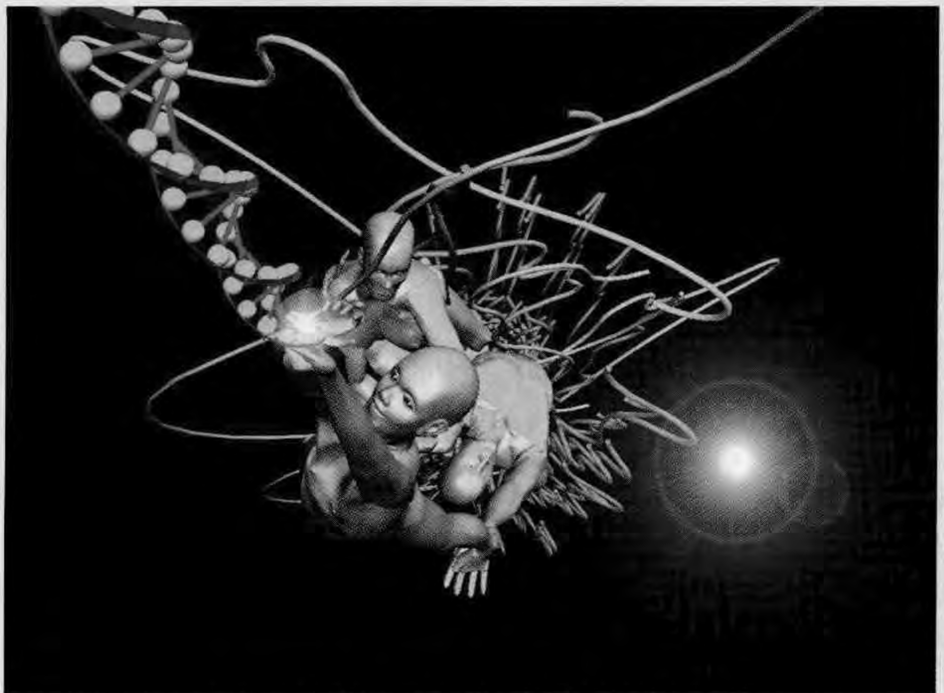
ـ التـوصل إلى تعرف الخـلايا الأصيلة القـادرة على التكاثر ونمو أعـضاء بديلـة اقتـصـر علـى خلايا الجلـد والغضـاريف والعظام، أما تلك المتـخصصة فـي نمو أعضاء حيـوية كالقلب والكلية فكـان من الصعب، إن لم يكن من المسـتحيل، التـعرف إليـها وخـاصـة أن تلك الخـلايا الفـريدة (الأم) منبثـة بين خبـايا وزوايا بلايين البلايين من الخلايا البشرية المتخصصة.

ـ إن (الخلايـا الأم) الفريدة في قـدرتها على تعـويض بعض الخلايا التالفة، يعتريهـا مـا يعتري بعض خلايا الجسم الأخرى المتـخصـصة من تقـادم وكبـر، يوهن من قدرتهـا، مثلمـا توهن قوى الشـيخ موازنة بالفتيـان والشباب، فتـقل قدرتها وكفـاءتها على تعـويض الخـلايا التـالـفة وتـكوينهـا بمرور الوقت وكـبـر السن، وهو ما قـد يفسر سـرعة تشافـي الشباب من العـمليات الجراحية موازنة بالشيوخ.

ـ كشـفت الأبحاث عن قـدرات مذهلة لتـلك الخلايا، تتـمثل في ميزتها بالاستجابة لاحتـياجات الجسم المختلفة، بل الهجرة من عـضـو إلـى آخر لتـوليـد خـلايا متـخـصصـة تعـوض عن الخلايا التالفة، مما لم يفسر استعادة بعض الأعضاء جزءاً من قـدراتهـا السابـقة فـحسب، بل أطاح بمسلمـات ترسـخت في أذهان المخـتـصين لعقـود مـثل استـحـالة تعـويض خـلايا المخ التـالفة، فـثبت العكس مما قـد يفـتح بوابة أمل واسعـة لمرضى خرف الشيـخوخة (الزهايمر) لـتجديد خلايا التركـيز والذاكرة الواهنة بتقادم العمر، إلا أن كل تلك المزايا الفريدة لم تبلغ حتى قدراتهـا المذهلة قدرات الخلايا الأم الجنينية الخـلاقة، بما أودع



مراحل استنبات خلايا الأصل وزرعها في أنحاء الجسم


تطويع الخلايا من أجل شباب دائم حلم يداعب أخيلة العلماء والأدباء

فيها الخالق تبارك وتعالى من أسرار وقدرات إعجازية إذ إن الخلايا الأم المنبثة في الجسم البشري تستطيع تكوين خلايا مختلفة قد تعوض بعض خلايا الأعضاء التالفة، إلا أنها تعجز عن تكوين عضو متكامل أو حتى جزء منه مثلما تستطيع الخلايا الأم الجنينية، فهي تماهي في ذلك الأقراص المبرمجة للحاسوب Soft Ware، أما الحاسوب ذاته Hard Ware فهو كامن في الخلايا الأم الجنينية التي أنتجت تلك الخلايا، ألا وهي خلايا الأصل الجنينية.

ولعل النقطتين الأخيرتين هما ما وجه ومهّد طريق الوصول إلى أبواب ما قد يجسد ما داعب مخيلة الأدباء والعلماء والكتاب في بحوثهم عما أسموه بالفردوس المفقود، وما يحويه من ينابيع الشباب ونوافيره!

الخلايا الأم وينابيع الشباب

الخلايا الباسلة، الخلايا الخارقة، ينبوع الشباب، ما تلك سوى بضعة ألقاب انهالت بلا حساب في الآونة الأخيرة، لا من كتاب يبحثون عن الإثارة والشهرة، وإنما من متخصصين يحظون بالتقدير، لما يتميزون به من موضوعية ودقة، بل شارك علماء باحثون في مقالات نشرت في مطبوعات ومجلات علمية مرموقة! لعل التفسير لكل تلك الضجة، وذلك التهليل، لا ينحصر فيما يفتحه ذلك الكشف من آمال في شباب دائم، وعلاج ناجع لعدد من المعضلات الصحية، مع أهميتها القصوى، بل السرعة المذهلة التي تم بها ذلك الإنجاز مع ما لقيته من عراقيل؛ عراقيل أثارتها عواصف المخاوف، إثر نجاح تجربة استنساخ النعجة الشهيرة «دوللي» من خلايا غير جنسية، ساهم الإعلام والصحافة في تضخيم مخاطر رياح تلك العواصف وصواعقها، إن تعرضت لها أجنة البشر من دون إبراز ما قد تحمله من أمطار خير وغيث، قد ينعم الإنسان بكلئها وكمئها، فتسرع المتطرفون والمتزمتون في التحريم، وسارع السياسيون في الغرب - وخاصة في بريطانيا والولايات المتحدة - إلى إصدار القوانين الصارمة المحرمة أو المعرقلة. فأصدر الكونجرس الأمريكي عام ١٩٩٦م قانوناً يحظر إجراء التجارب على الأجنة البشرية بحرمان العلماء والمختبرات الأكاديمية من الدعم الحكومي والمساعدات التي يتعذر عليها الاستمرار من دونها!.

ولكن العلم وطموح البشر أثبتا على مدى التاريخ الانتصار على كل ما يضعه المتزمتون والمتعصبون من عراقيل وقوانين، فما إن أدركت الدول الغربية ما سيحيق بها من تخلف، بعدما نجح علماء من اليابان والصين في تطوير تجارب الاستنساخ؛ حتى بدأت في تخفيف القيود، وتليين القوانين، فسمحت بإجراء التجارب ومنع المساعدات؛ إن أجريت على أجنة مجهضة.

ولم يمض وقت طويل، على تلك المرونة والتسهيل حتى أعلن اثنان من كبار العلماء والباحثين كان أولهما فريق الدكتور جيمس تومسون James Thomson من جامعة ويسكانسون، وثانيهما مجموعة الدكتور جون غيرهارت John Gearhart

من جامعة جون هوبكنز الأمريكيتين عن نجاحهما في عزل الخلايا الأم البشرية وفرزها.

أما السرعة المذهلة فيما تحقق من قفزات شاسعة في مضمار ذلك العلم الوليد، فقد تكون أسطع ما يعكسها موازنة بين مقالين عن عالم باحث واحد لا يفصل بينهما سوى سنة واحدة. فقد كتب البروفيسور روجر بيدرسن Roger Pedersen أستاذ أمراض النساء والولادة والعلوم الوراثية بجامعة كاليفورنيا مقالاً في مجلة علمية مرموقة يقول فيه ما معناه: إن إمكان استنبات خلايا بشرية يمكن زراعتها في قلب قاصر لمريض لا يزال في مرحلته النظرية، أي إن إمكان تطبيقه عمليًا لا يزال بعيد المنال، كان ذلك في شهر إبريل/نيسان ١٩٩٩م. لتكتب مجلة دولية موثوق بها مقالاً عما حققته تلك التقنية من نجاح باهر في حقل استنبات الخلايا الأم ذكرت فيه أن البروفيسور بيدرسن ذاته عقدت لسانه الدهشة حينما عاد بعد أيام إلى مختبره ليجد الخلايا الأم التي استنبتها، قد تحولت إلى عضلة قلبية نابضة بالحياة!!. تبارك الخالق العظيم في قوله عز وجل: *سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم*. **فصلت:٥٣.**

فإن تحققت توقعات المختصين أن التجارب السريرية البشرية لزرع الخلايا الأم قد تبدأ في غضون سنتين، بعدما حققت التجارب على حيوانات المختبرات نتائج باهرة، فستفتح الأبواب لتقف البشرية على أعتاب حقبة تعيد الشيخ إلى صباه.

وإن صحت تنبؤات الكثيرين بما سيحمله التوصل إلى خريطة المورثات الإنسانية الجينوم Genome من تعرف إلى



طفل مصاب بمرض الشيخوخة المبكرة (متلازمة هتشنسون - غيلفورد) النادر، والذي يتوقع الخبراء إمكانية عكسه بعد رسم خريطة المورثات البشرية (الجينوم) لإبطاء أعراض الكهولة والشيخوخة على الجنس البشري عامة

الجينات المورثة للأمراض المستعصية كالسرطان، والتخلف العقلي، بالإضافة إلى الشفرة الخاصة بشيخوخة الخلايا التي يتسبب اختلالها بالإصابة بمرض ما يعرف بمتزامنة هتشنسون - غليفورد - Hutchinson Gilford Syndrome التي يتوقع بعضهم إمكان علاجها مستقبلاً، فإنه قد يتم التوصل إلى أسلوب يبطئ تكهل الخلايا والأعضاء، لتنعم البشرية بحياة أطول.

إن تحققت كل تلك التوقعات في إمكان تجنب الأجيال القادمة الإصابة بالأمراض الفتاكة، والقدرة على استنبات أعضاء حيوية جديدة كلما كلَّ أو أخفق عضو حيوي كالقلب، والكبد، والرئتين، والكليتين، واستنباط ما يؤخر شيخوخة خلايا الجسم عامة، فإن شبه تضاعف متوسط الأعمار من ٤٧ سنة إلى ٧٦ عاماً قد يبدو هامشيًا - بمشيئة الله - بل قد يصبح من المألوف أن تنعى الصحف المأسوف على شبابه فلان ابن فلان إثر وفاته بحادث طريق وهو لم يتجاوز المئة والعشرين عاماً بعد!.

ولكن يبقى السؤال الأهم حول نوعية الحياة، فهل سيردد أبناؤنا وأحفادنا قول الشاعر:

تعب كلها الحياة فما أعـ

جب إلا من راغبٍ في ازدياد

أو يتذكرون معلقة زهير بن أبي سلمى المزني، وبيتها الشهير:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش

ثمانين حولاً، لا أبالك يسأم

ربما تكمن الإجابة بين دهاليز منظمة التجارة العالمية، وملفات الخطط الإستراتيجية للسلطة الأحادية..!!.

المراجع

١- قصة الحضارة، ويل وايريل ديورانت، المجلد الثاني، الباب التاسع، ص٢٥٨.
٢- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، المجلد الأول، ص٤٩.
٣- مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي، الجزء الثاني، ص١٦٦.
٤- صورة دوريان غراي، رواية لأوسكار وايدل، ١٨٩١م.
٥- صفوة التفاسير، الشيخ محمد علي الصابوني، تفسير الآية ١٤ من سورة (المؤمنون)، المجلد الثاني، ص٣٠٤.
٦- ساينتفيك أمريكان، عدد أبريل/نيسان ١٩٩٩م، ص ٤٤ - ٤٩.
٧- التايم الأمريكية، عدد ٨، مايو / أيار ٢٠٠٠م، ص ٥٤ - ٥٥.
٨- العربي الكويتية، عدد ٤٩٨، مايو / أيار ٢٠٠٠م، ص٧.

قصائد

البحر يروي سيرة السندباد



عبدالله بن صالح الوشمي
القصيم - السعودية

مولَعٌ بالرحيل قد مات فيه   من بعيدٍ صوتُ الزمان الأخيرِ
حطَّم البرَّ واستراح إلى البحـ   ـر ونامت أوتارُه في ضميري
تَخِذَ الموجَ مركبًا لو تراهُ   في ظلام الظلام يتلو سطوري
إسألوه عن البحار فكم بحـ   رًا تَوارَى تحت السؤال الكبير؟
كم تَمطَّى على البحار وكم نا   م وحيدًا بين المُنى والسعير
قادمٌ كالبُراق لا تَعذلوهُ   حين نام التاريخُ بين القبور
غاضبًا يهجر البلادَ لياليـ   ـه حبالى وفجرُه من حرير
لا تخفْ لا تَخفْ فهاهوَ موسى   بعد حَرْفين نائمٌ في سريري
أيَها السندبادُ مازلتَ فجْرًا   في ظلام السؤال أنت سميري
دونك الليل فاتَّخِذْه بساطًا   تَعِبَ الوردُ من سؤال العبير
لا تقولوا: معذَّبٌ، سوف يبدو   ما وَعاهُ العذابُ بين البحور
ليس قصرًا إنْ كان من سعَفِ النَّخـ   ـل تَحايا للهيكل المَنْثور
لا ولا الليل ليلُه إن دَجا الليـ   ـل وكانت أجفانهُ في الخدور
لا تُنادوا عليه قد صار شمسًا   ليس للشمس من مقامٍ أخير
قال عن همِّهِ حديثًا طويلاً   رحم اللهُ سيِّدي من أمير
أبدًا يكتب القصائدَ بالدمـ   ـع فلا جوقةٌ ولا من حُضور
إنْ يَغِبْ فالسؤالُ يبقى سؤالاً   وهجيرُ القلوب بعضُ هجيري
وعلى شاطئي نَمَتْ ألفُ شمسٍ   وفروعي تبعثرَتْ في جذوري

عبلة

مهداة إلى رمال الجزيرة
(مقطع من قصيدة مغامر إليك)

محمد علي مصطفى علي
الجيزة - مصر



-١-
كم يكره العاشقُ يا عبلةُ عتمةَ الغَلَسْ!
وتكره الخيولُ يا عبلةُ
سَرْجَها، وحَذْوةَ الفرَس!
ويكسر الشاعرَ غلَّةُ الخرَسْ

-٢-
أنا ابن عَبْسٍ
فاعلمي مَن ذا أكونُ..؟!
المِسْكُ لوني.. والشجونُ..
وشيمتي العذابُ يا عبلةُ
والذئبُ رفيقي.. والعَسَسْ
والأدْهَمُ الحزينُ
يُحسُّ يا عبلةُ بالجوى الذي أحسّْ

-٣-
لكم تمنّى القلبُ يا عبلةُ.. عينيكِ
وما في باطن الشفاه من مُسْتَعْذَبِ اللَّعَسْ
وكم تمنّى القلبُ يا عبلةُ..
آه كم تمنّى وانتكَسْ
ألم يَحِنْ يا عبلَ..
أن تُضوِّعي المِسْكَ على جسمكِ
هل ترَيْنَ يا نَمْشاءُ
كم يَحْسُن وجهٌ من عَدَس؟
لربّما أعيشُ يا عبلةُ..
أشْتهي البياضَ راغبًا وألْتمِسْ
وربما أموتُ يا عبلةُ...
وحدي عاجزًا ولا أ مَسْ
فلا تقولي مثلما يقولُ عمّي:
« يا ابنتي!
ما ألأمَ العبد الذي عشقْتِهِ
وما أخَسّ»

في الصحو توفضين



أحمد صالح الصالح
الرياض - السعودية

عندما.. استفتحتُ وجه الصبح
كان الصبحُ.. عينينِ
وثغرًا.. مستفيض الدفء
عذب الشفتينْ
كان للصبح.. حضور باهرٌ
والمواويل.. تُغَنّي عاشقينْ
أورَقتْ.. أضلاعنا السوسن
واخضرَّ المدى عشبًا
له نفح الرياحينِ
وماست لحظة الأُنْس
بحُسْنٍ مُتْرَفٍ
لما ارتدينا العبق المُفْتَرَّ عن حضنٍ
وعصفورين مأسورينِ
ما أبهاهما.. قَبْضَ اليدينْ
تنهض اللحظةُ.. فعلاً جازمًا
ينفض الليل على الآفاق
وجه الفجر
يمتدُّ على كل المسافات بهيًا
يَقْرئُ الشعر.. وأسرار الصبابات
ويُغوى شاعرين

وابتدأنا.. نتساقى كوثر الشعر
وضمتنا.. الثوانى
فوق أحلام الهوى
حتى إذا أغرى بنا العشقُ
اتحدنا.. واغتبقنا
شفةُ الورد.. استدارت أنجمًا.. زُهْرًا
إليها يستوي القلب أميرًا للهوى
فتضوعت.. عبير الوردتين
هذه.. أنت..؟!
الخزامى.. في يديْ

وعلى الصدر من الفُلِّ رحيقٌ
وعلى الثغر الشذى
يَنْفُذُ مَدَّ الخافقين
هذه أنت..؟!
تعالي.. أرسلي كلَّ ما فيك
صباحُ الشعر أحلى ما ترينْ
إنَّ هذا الفرح المنبثَّ في داخلنا
نشر الدفءِ.. وآوانا أليفينِ
كما يَرضى سماعٌ..
مثلما لذت صبابات المحبين لِعَيْنْ

التباس

لحسن باكور
مراكش - المغرب

رأيته يعبر الشارع بهرولة مضطربة، يحمل في يده كتاباً.. وكادت تدعسه سيارة مارقة، انطلق منها زعيق مشروخ، عندما عبر إلى الرصيف المقابل.. شيء ما فيه، ربما طريقة سيره التي تشي بعرج خفيف، قفاه المفرط النحافة، أو رأسه المندفع قليلاً إلى الأمام، جعلني أحس بأنه هو.. لم أواجهه أو أنظر إلى وجهه مباشرة، وإنما رأيته من الخلف.. في البداية لمحته فقط بطرف عين، فتحرك شيء ما بداخل ذاكرتي المتعبة.. وعلى الرغم من الزحام الشديد والسيارات الزاعقة والضجيج، فقد استطعت أن أميزه من بين الجموع.. التفتت بسرعة وتبعته ببصري، ثم سرت وراءه وأنا أتلافى الارتطام بالأجساد.. كان علي أن أحث الخطا حتى أستطيع أن أجاريه في مشيته التي أعرفها جيداً، والتي توحي بأنه دائم الانشغال بالركض خلف شيء ما.. ومن حين إلى آخر كنت أقف على أطراف أصابعي، وأمد عنقي عالياً كي لا يتيه عني.. ومن حسن حظي أن قامته الفارعة كانت تساعدني على تتبع مساره، كلما أخطأته وزاغ عنه بصري بسبب الزحام الشديد.. من المحتمل ألا يكون هو، لكنه وإن لم يكن هو فالأكيد أنه يشبهه إلى حد بعيد، إلى درجة أنه يمكن القول: إنه توأم له، مع أنني أعرف جيداً أنه ليس له سوى أخت تصغره بسنوات... قد تتساءلون عن سر اهتمامي بهذا الشخص (وهذا حقكم على كل حال ولا أستطيع أن أعدّه من قبيل الفضول المزعج)، أما أنا فلا يهمني هذا في شيء ولا أرى فيه ما يجعلني - الآن على الأقل - أعيره أي التفات.. ومع ذلك أقول لكم: إنه أكثر من صديق حميم، وأكثر من أخ، بل وأكثر من توأم لم تفصل بيننا سوى ثوان قليلة ونحن ننزلق من بطن الأم.. وأف!.. ما هذا؟ لقد أضعته بسبب انشغالي بهذه التفاهات والتفاصيل الجانبية التي لا معنى لها أبداً.. ومع ذلك فما كان عليّ الاسترسال في هذه الحماقات منذ البداية مع أني أعرف جيداً أن الزيادة من رأس الأحمق.. ذلك أن.. آه.. لقد وجدته أخيراً.. إنه هناك عند العجوز صاحب الكشك الصغير..

لا شك أنه يريد أن يبتاع شيئاً ما.. وكما توقعت تماماً، فإنه دفع رأسه إلى الأمام بشكل يثير الانتباه وأخذ ينظر إلى المعروضات بعين فاحصة قبل أن يبتاع شيئاً أقرب إلى قطعة «شيكولاطة».. أجل إنها قطعة «شيكولاطة» فعلاً.. وضعها في جيب سرواله، ثم واصل سيره الحثيث.. سرت وراءه وأنا أكاد أنخرط رغما عني في ركض محموم.. وفي تلك الأثناء كانت أشياء كثيرة تصطخب في صدري، وأحسست بأني في أمس الحاجة، أكثر من أي وقت مضى، إلى أن أتحدث إليه.. وعندما انعطف إلى اليمين وحجبه عني جدار المبنى الكبير، نطّطت من مكاني ورحت أركض بأقصى ما أستطيع وقد تملكني خوف غريب من أن أفقده في هذه اللحظة الخاطفة، لكني عندما بلغت نهاية الجدار وأردت أن أستدير، جمدت فجأة في مكاني ولم أتحرك عندما أحسست بأنه قريب مني إلى درجة لم أتوقعها، وبعثت في نفسي رجفة واضطراب.. لبثت في مكاني ريثما ابتعد، وأنا أفكر في ما كان سيحدث لو أنه أحس بي واستدار ليواجهني فجأة.. وعجبت من نفسي كيف أتعقبه وأركض خلفه، وعندما اقتربت منه، وجدتني راغباً عن مواجهته.. لما استجمعت أنفاسي، كان قد ابتعد، فاستدرت وتبعته.. هذه المرة بدت الطريق فارغة فسيحة، فاكتفيت بمراقبته عن بعد إلى أن توقف أمام أحد البيوت.. دق الباب وانتظر دون أن يلتفت، وبعد قليل اندفع إلى الداخل.. حينذاك وجدتني أتساءل في حيرة: ماذا أفعل؟

سرت ببطء نحو المنزل وأنا أقدم رجلاً وأؤخر أخرى، لكنني استجمعت عزيمتي.. أبعدت عني تساؤلات طفقت تنغل في رأسي، وأزحت شكوكاً غريبة راحت تنط أمام عيني، ثم تقدمت نحو الباب بهدوء واتزان.. نقرت الباب نقرات خفيفة متباعدة.. وبعد لحظة فتحت لي سيدة وانسحبت إلى الداخل.. لم تسألني من أنا؟ وماذا أريد؟. بل إنها لم تنظر إلى وجهي حتى..

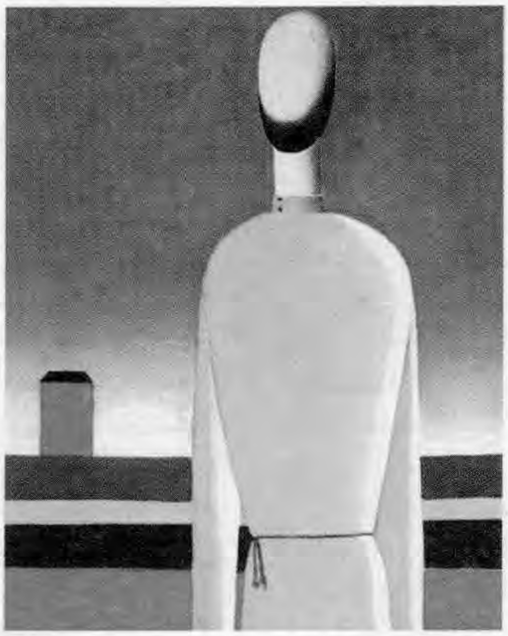
ياللغرابة! لقد تصرفت بشكل يفيد أنها كانت تعرف من الطارق.. لبثت هنيهة قرب الباب الموارب دون حراك، ثم غالبت تردداً تسلقني حتى قمة رأسي، ودخلت بخطا واجفة. ألفيت المرأة وسط الباحة الضيقة، تنظر إليّ بابتسامة ترحيب وادعة تعلو سحنتها، لكنها

سرعـان ما انشـغلت عني بـتنقيـة طبق الأرز. لكن ما هذا؟ إنها تشبه أمي إلى حد بعيد.. بل إني أكاد أقول: إنها هي، لولا أني تركتها في البيت الذي غادرته منذ فترة.. وفي أقصى الزاوية اليسرى للباحة أسلم عجوز يحمل الكثير من ملامح أبي نحولته وعظامه الهشة لرقدة يرجو أن تريحه من تعب عـمـر طويل ممهـور بالشـقـاء.. ياللمصادفة العجيبة!..

التـبس علي الأمـر، ولم أعـد أحـار صنيعًا.. أنا الآن وسط الباحة الضيقة.. لاشك أني أبدو كأبله تائه، وقد تملكتني الحـيرة والذهول.. جـامـد في مكاني أنتظر شيئًا ما.. السيدة منشغلة بتنقية الأرز وقد تناثرت فوق جبينها قطرات من العرق.. والعجوز عاد إلى سهومه وتحديقه في الفـراغ بعد أن رشـقني بنظرة محايدة باردة.. بالله عليكم ماذا علي أن أفعل؟.. عبثًا أبحث عن تركيز تائه ليـسندني في هذه الورطة.. ولم أستطع بعد احتواء الموقف حتى الآن.. الحقيقة أنني أحمد الله كثيرًا

- وأستـغـرب بالكثرة ذاتهـا - أنهم انشغلوا عني جميعًا وتركوا لي الوقت كي أستجمع شتاتي وأعيد القبض على كلمـاتي التي فـرت وتركت لسـاني متخشبًا مغلولاً.. ومع ذلك فإن إحساسًا ما بدا يساورني - وإن كان بشكل غامض - بأني وسط أناس أعـرفـهم وأستطيع أن أقتـرب من الكرسي وأجلس - كمـا أفعل الآن تمامًا - وأسألهم عما أريد دون أدنى حرج، وكل هذا بسبب مـوقفهم تجاهي، بحيث أزاحوا منذ البداية أي كلفة يمكن أن تقف بيننا.

بدأت أسـتـعـيـد بعض هدوئي وأعي تفـاصـيل المكان.. ورأيت نفـسي بشكل أوضح وأنا أقتعد كرسيًا وطيئًا قرب السيـدة. أدرت بصري في أنحـاء البيت، وتشويش ما لا يزال عـالقًا بذهني ويحول دون أن أرى الأشياء في بياضها التام.. تململت في مكاني حـتى أصدر الكرسي صريرًا مـزعجًا، ونجحت في أن أجعل السيـدة ترفع رأسـهـا إليَّ أخـيـرًا.. لقد قـررت في لحظة صـفـاء تـامـة وعـابرة انتابتني أن أحسم الأمر، وأسأل عما جئت من أجله، ثم أقوم لأنـصرف.. لاشك أنهم بدؤوا يستغربون من مـوقفي، ويحسون بالضيق الذي يخفونه بطيبتهم الزائدة.. لذلك فلا بد لي - كما قلت - أن أحسم الأمر كي لا أزعجـهم، وكي أقذف بنفسي إلى



الخـارج وأتنشق الهـواء عسى أسـتعيد كـامل صـفـائي، وأحـاول استـيـعـاب مـا حدث.. فـجأة انـفتح باب غـرفـة كـانت تواجهني، وانطلقت منها طفلة صغيرة أخذت تعدو باتجاهي وهي تضحك بمرح.. تملكني الذهول ولم أنتـبــه إلا عندمـا اصطدمت بي وهي تعانقني فسقط مني الكتاب الذي نسيته تمامًا، واستغربت كيف احتفظت به في يدي كل هذه المدة!! ثم بدأت الطفلة تعبث بيديها الطريتين في جيب سروالي، فـتـذكـرت في الحـال أني أحمل معي قطعة (شيكولاطة).. ابتعدت عني الفتـاة وهي تتـقـافـز بفـرح وتقذف قطعة (الشيكولاطة) إلى أعلى، ثم تعيد التـقـاطها وهي تضحك بجـذل.. زاد مـا حدث من إصراري على حـسم الموقف. فحولت نظري صـوب السيدة، وفتحت فمي للكلام وأنا أغـالب اضطرابي.. تحرك لساني بصعوبة بالغة وأخذت أطوح بيدي في الهواء بحركات مرتبكة غير مبررة.. خرج الكلام من فمي مبتورًا متقطعًا، لكن السـيدة اسـتطاعت أن تفـهـم - بعـد عنت شـديد - أني أسـأل إن كـان السيـد ل ب يقطن هنا فعـلاً.. أخذت تنظر إلـي وقد فغرت فمها دهشة.. وتغير لون وجهها فجأة وجحظت عيناها.. ثم التفتت إلى العـجـوز الغـافي صـامـتـة وبؤبؤاها يتحركـان بسرعة غريبـة، وبان عليها اضطراب شـديد.. زاد ذهولـي وأخـذت أبحث دون جـدوى عن مـبـرر هذا الارتباك.. ارتعشت شفتاها كأنما تجهش بالبكاء، وبتثـاقل رفعت يدها وأشـارت إلى الغرفة التي خرجت منها الطفلة منذ قليل، ثم تناثرت حـبـات الأرز فـوق الأرضية المتربة.

سرت نحـو الغرفة ببطء.. انتـابني خـوف بارد وعرتني رعشة، تمامًا كما حدث عندمـا اقتربت منه في الشـارع، على الرغم من أن هذه اللحظة هي التي انتظرتها منذ البداية.. حـاولت أن أسترد تماسكي.. لقد أصبحت الآن أمام الغرفة.. أمـامها تمامًا، إلـى درجة أني أستطيع أن ألمس الباب بحركة بسيطة.. رفعت يدي بتـردد ورهبـة ودفـعـتـهـا إلى الأمـام.. وضعـتـهـا على أكـرة الباب البـاردة ثم جـمـدت في مكاني.. بعـد هنيـهـة أدرت الأكـرة ودفعت الباب الـذي انفـتح بمهل وأصـدر أزيزًا وافق هوى غـريـبًـا في داخلي.. دفـعـت جـسـدي إلى الداخل، وانفرش على وجهي مشروع ابتسامة بلهاء، ولكنني - ويا لهول مـا حدث! - لم أجد أحدًا في الداخل.

كرامة أبي

فاطمة السويدي
الدوحة - قطر

آلامها تزداد.. تتقلص أحشاؤها وتنفك، تتسارع التقلصات، ويزداد الخدر في ساقيها المتهالكتين، يتصبب العرق غزيراً بين خصلات شعرها المتشابكة، تلتصق ملابسها وتضيق أنفاسها.. ربي يسّر ولا تعسر، يارب سترك.. استرني يا ألله.

هل حانت الساعة التي أترقبها بهلع، قرأت كثيراً، لكن ما يحدث شيء مختلف.؟!

أطلت من الباب بحذر.. الممر الضيق خال، تصطفق الجدران بها.. تنسل إلى الحمام الصغير.

تتصاعد الأبخرة الحارة، أنفاسها تضيق، الصنبور يضيق بالماء المندفع، يختلط الضجيج المائي بصرخاتها المكتومة، عرقه بعرقها.. يختلط الجسدان الفتيان، تلتصق حبات الرمل بصدره وشعرها، تترنم أمواج البحر في صمت الليل بغوايتها، ترسم حبات الرمل تفاصيل خطيئة الجسدين.

تعاودها الآلام الشديدة، تزفر زفرات قوية.. يحجم الطفل عن الخروج.. تملأ المغطس بالماء الحار، تضع جسدها المثقل فيه، يتصبب العرق، يخنقها البخار والحر الشديد، تضيع حواسها وتستعيده...

تثقل على صدرها إطلالة تلك الليلة القميئة.. تلك الليلة الموحشة في سماء شديدة السواد، في جزيرة تحصي على سكانها أنفاسهم.

في ليلتها الأخيرة وهي تحزم أمتعتها، بين دعوات الأم النحيفة ويديها اليابستين.. دعاء بالتوفيق.. دعاء بالستر.. دعاء.. ودعاء.

انسلت بعد العشاء لوداع خديجة، صديقة الطفولة التي لم يحالفها الحظ بالالتحاق بالجامعة في المدينة.. لقاء قصير وضحكات صاخبة، وأحلام كثيرة لفتاة الجزيرة ستحقق بلاشك في المدن الواسعة...

«لا تتكبري علينا بعد الشهادة».. قبلتها سريعًا متعللة بلملمة الأغراض.. اختفت خلف الجرف الرملي، كنخلة من النخيل الباسق الممتد على شاطئ البحر.. كان هو... بثوبه الأزرق الفاتح، بكوفيته المنقوشة، بشعره المجعد.. يملأ القلب والبصر.

بين فحيح أنفاسه والرطوبة الخانقة المشبعة بروائح البخور واللبان والحبة السوداء تنسل من النوافذ الخشبية، تطرد الشياطين، كانت هي تمارس طقوسًا في الشعوذة والسحر الحرام..

بين فحيح أنفاسه والتصاق حبات الرمل في جسده، أقسم أعظم الأيمان سيقف معي.. لن يتخلى عني..

بين فحيح أنفاسه ومواعيده الخلابة كان يعبر الجزيرة على ظهر أول «لنش» يفر بها عن عالمي...

في صباح رطب كنت أعبر مع أبي الضرير موج البحر إلى المدينة، ليسلمني إلى المشرفة.. أمانة الشرف.. حافظي يا ابنتي على شرفي.. لم يعلم أني أرقته على عتبات داره.

لن أفرط مرة أخرى يا أبي.. أعاهدك ببصري وعماك.. أعاهدك أن لن أترك ابنة الشيطان لترى النور..

في حوض الماء الساخن انسلت مني كتلة لحمية، وردية اللون مشبعة بالدم.. وأشياء أخرى.

شعرها ناعم فاحم.. وجهها جميل.. عاهدتك يا أبي...

وضعت أصابعها المرتجفة.. وعضلاتها الواهنة على الوجه البريء..

ما أجملك يا حبيبتي..! كم أتمنى أن أحتفظ بك..! تختزن خلايا جسدي ركلاتك الصغيرة بين حين وآخر.. تختزن ذلك السر المرهق الذي أرقني شهوراً عديدة..

رفعتها قليلاً، ألامس جسدها بجسدي، صرخت، بين نحيب قلبي وغضب روحي وصوت أبي، خنقت وجهها الصغير، وأنفاسها المتقطعة بكفي.. غطستها في الماء مرة ومرة.. رائحة أبيها فحيح أنفاسه.. خيانته.. كرامة أبي!

تأكدت من موتها.. لففت جسدها الضئيل في بعض ملابسي..

غسلت الحمام.. تلفت حولي مرات ومرات.. أتأكد من اختفاء الأدلة..

تسلقت النافذة البعيدة.. رميتها بكل ما أقوى.. سقطت على قارعة الطريق في الشارع الجانبي.

ارتجف صوت الضابط في بزته الداكنة وهو يكمل قصتي.. لابد من قصاصك.. إنه الحق العام...

نظرت هاجر في عينيه بعمق.. هل أنا مجرمة..

في الخريف

فاسيلي شوكشين*
ترجمة: **هاشم حمادي**
دمشق - سورية

انتهت نشرة الأخبار الإذاعية، وظل فيليب تيورين جالسًا إلى الطاولة، صامتًا بصرامة، ثم علق ساخطًا:

- إنهم مستمرون في عدوانهم.

- من تشتم هذه المرة؟ - سألت زوجته، وهي عجوز شمطاء، ذات يدين كأيدي الرجال، وصوت قوي كصوتهم.

ورد فيليب، وهو يشير إلى المذياع:

- إنهم يقصفون.

- من يقصفون؟

- الفيتناميين.

لم تكن العجوز راضية عن تعلق زوجها بالسياسة، لا بل إن هذا التعلق الأحمق يثير أعصابها، فكم من مرة تخاصما جديًا بسبب السياسة، غير أنها لا ترغب في الخصام الآن، لا وقت لديها فهي في طريقها إلى البازار.

ارتدى فيليب ثيابًا دافئة، وسار قاصدًا العبّارة، صارمًا غارقًا في أفكاره.

منذ عهد بعيد، وهو يعمل على العبّارة منذ الحرب، بعد أن أصيب بجرح في رأسه، أقعده عن متابعة العمل في النجارة، الذي يتطلب الكثير من الحركة والانحناء.

كان الوقت نهاية أيلول/سبتمبر، وبعد المطر هبت نسمات باردة، فوق الدرب الموحلة، وعند مخزن القرية راح المذياع يبث برنامج التدريبات البدنية الصباحية، فكانت الريح تتلاعب بمقاطع الموسيقى، وبصوت المذيع النشيط. وكان قباعُ الخنازير يتردد في أرجاء القرية، مختلطًا بصياح الديكة القوي والحاد.

كان أبناء القرية يلقون عليه التحية برؤوسهم، ثم يتابعون السير على عجل، نحو المخزن لشراء الخبز، أو باتجاه موقف الحافلة، في الطريق إلى البازار.

اعتاد فيليب قطع طريقه هذه صباحًا من البيت إلى العبّارة خالي البال. صحيح أنه يفكر بالكثير من الأمور، لكن أبدًا ليس بالعبارة ولا بالمسافرين، فكل شيء هنا واضح، أما اليوم فكل تفكيره مشغول بالبحث عن الطريقة الكفيلة بجعل الأمريكيين يتوقفون عن هذه الحرب. ويتساءل بينه وبين نفسه: «لماذا لا نردعهم بصواريخنا؟» وهو على يقين أن يومين اثنين لا غير كافيان لذلك.

وعلى النهر كانت الريح تهب قوية، تلسع وتدفع.. وكانت القلوس تصفر. ولحسن الحظ أن الشمس برزت من خدرها.

راح فيليب يقود عبارته جيئة وذهابًا، وبعد أن نقل أولئك الأكثر عجلة من أمرهم، أصبح العمل أسهل لا يثير الأعصاب، وأصبح بمقدوره العودة إلى التفكير بالأمريكيين، إلا أن موكب عرس وصل.. إنه عرس على الطريقة الحديثة: في سيارات تاكسي، مزدانة بالشرائط والبالونات. لقد وصلت هذه الموضة إلى الريف أيضًا. كانت ثلاث سيارات.. على الضفة ترجّل الموكب صاخبًا، نشوانَ قليلاً.. إنه موكب غاية في التظاهر والتفاخر. صحيح أن السيارات والشرائط أصبحت موضة، لكن مثل هذا البذخ مازال نادرًا، فالحصول على السيارات لم يكن في متناول الجميع.



راح فيليب يراقب الموكب باهتمام. إنه لا يعرف هؤلاء الناس، فهم ليسوا من الجوار، إنهم يقصدون مكانًا ما. كان الأكثر حماسة بينهم رجل في قبعة.. واضحٌ أنه من دبّر السيارات، فكان يحاول جعل الحفل فخمًا ومثيرًا، فتراه يدفع عازف الهارمونيكا إلى العزف على العبّارة، وتراه ينبري للرقص، وهو يطلق الصيحات، ويطقطق بقدميه، ويوزع نظرات النسر الجارح. لكن منظره كان محرجًا، مخجلاً. العريس والعروس كانا خجلين، يبدو أنهما أكثر الجميع صحوًا ووجدانًا، لَكَمْ نطوط ذو القبعة وتمايل، لكن عدوى مرحه المصطنع لم تنتقل إلى أحد، وأرهق..

وصلت العبارة إلى الضفة الأخرى، فغادرتها السيارات. وانطلق الموكب متابعًا طريقه، تاركًا فيليب يفكر بحياته، وما حدث له مع الزواج في شبابه. كان في قريتهم فتاة حسناء اسمها ماريا، ذات وجه مدور، وردية الخدين، بشوشة.. تقر لمرآها العين، إنها عروسة، محط أنظار جميع الشباب.

وقع فيليب بحبها، وبدورها بادلته حبًا بحب، وأوشكا أن يتزوجا، لكن فيليب تعلق بمنظمة الشبيبة، صحيح أنه لم ينتسب إلى عضويتها، لكنه لم يتخلف عن أعضائها في الزعيق والصراخ، والتمرد على العادات والتقاليد البالية. وانبرى معهم في مناصبة العداء للزواج الكنسي، شيء لا يصدق.. وقف الشيوخ ساخطين - عاجزين، وجردوا السياط، علها تنفع في إعادة الصبية إلى جادة الصواب، لكنهم

زادوهم بذلك عنادًا.

كان فيليب في عداد الرافضين للتكليل، بينما ماريا من أنصاره، وهكذا وجد فيليب نفسه في وضع لا يحسد عليه. وقد بذل قصارى جهده من أجل استمالة ماريا إلى صفه، والواقع أنه كان ماهرًا في فنون الحديث والإقناع، وهذا شيء نادر في الريف. ومن يدري فقد تكون هذه الصفة وراء حب ماريا له. ومن أجل إزالة غشاوة الجهل عن بصيرتها راح يقرأ لها المقالات التنويرية والتعليقات الساخرة. لكنه أدرك، وقلبه يكاد ينفطر، أن كل ذلك دون جدوى، فماريا لا ترعوي، وهي لا تزال مصرة على التكليل.

أدرك فيليب الآن، وهو يستعرض حياته، أنه فوت حينذاك فرصة لا تعوض، بافتراقه عن ماريا. إنه ليس بنادم على شيء إلا على هذا الفراق. إن قلبه لا يزال يبكي وينزف. ويندر أن يمر يوم واحد لا يتذكر فيه ماريا، وكم من مرةٍ راودته فكرة أن يضع لحياته حدًا. ومع مرور السنوات لم يتلاش هذا الألم ولم يمح. لقد تزوج زواجًا مدنيًا، ورزق بأولاد، بيد أن حنينه إلى ماريا مازال جياشًا. وحين اكتشفت زوجته «فيكلا» هذا الحزن الدفين لديه بدأت تكرهه. وظل هذا الكره العميق الهادئ يلازمها. أما فيليب فلم يكن يكرهها، كلا، لكنه في الجبهة، وحين كانوا يرددون على مسامعهم: «إنكم تدافعون عن أمهاتكم وزوجاتكم...» لم يكن يفكر بزوجته الحقيقية، بل بماريا، ولو أنه استشهد آنذاك، إذن لاستشهد واسم ماريا على لسانه. صحيح أن الألم لم ينحسر مع مرور الزمن، لكنه لم يعد كاويًا، حارقًا، كما في السنوات الأولى. ومنذ ذلك الحين أصبح مُقلاً في الكلام، وحين كان يتحدث، محاولاً إقناع الآخرين، كان كلامه مشوبًا بالإحساس بالمرارة.. أما ماريا... فقد نقلت آنذاك من القرية. أحبها أحدهم، ليس أحدهم، فقد التقاه فيليب عدة مرات، وهو شاب غني من كرايوشكين. جاءها خاطبًا، ثم تزوجها وحملها. لقد تكللا طبعًا. فبعد مرور عام سأله فيليب، واسمه بافل:

- ألم تخجل من الذهاب إلى الكنيسة؟

- وما المخجل في ذلك؟! - رد بافل باستغراب.

- لقد رضخت لرغبة الشيوخ.

- لم أرضخ، فأنا نفسي كنت راغبًا في التكليل.

وارتبك فيليب.

- وهكذا فأنا أسأل: ألم تخجل؟ الشيوخ معذورون، أما أنت.. إننا بذلك لن نتخلص من الجهل.

- كلام فارغ.

وفيما بعد لاحظ فيليب أن بافل ينظر إليه، حين يلتقيان، نظرة ملؤها الحقد، لا بل الألم، لكأنه يريد أن يفهم شيئًا، فلا يستطيع إليه سبيلاً. وحين بلغت مسامع فيليب أخبارٌ مفادها أن ماريا ليست سعيدة في حياتها، وأنها حزينة كئيبة، اندفع، تحت تأثير الألم الجديد، إلى الشراب، ثم لم يلبث أن تركه، غير أنه ظل يحمل في داخله هذا الألم - الأفعى، ينهشه وينهشه دون رحمة، وبقي فيليب صابرًا.

أثار موكب الزفاف هذه الذكريات الحزينة، التي ظلت ترافق فيليب في عبوره جيئة وذهابًا، فصمم على تناول قدح من الفودكا على الغداء، عله بذلك يخفف من غلواء البرد القارس، الذي نفذ في جسمه حتى العظم، ويعيد إلى قلبه، الذي يكاد ينفطر حزنًا وأسى، بعض الهدوء.

- «سأقوم برحلتين أخريين، ثم أذهب للغداء» - قرر فيليب.

ولدى الاقتراب من الضفة الغربية - كان لديه ضفتان: القريبة، وهي التي تقع عليها قريته، والغربية، وهي الضفة الأخرى، المقابلة - رأى شاحنة مغطاة، تحيط بها جمهرة من الناس. وبحكم التجربة، أدرك فيليب أي نوع من السيارات هي، وأي نوع من الحمولة داخلها - إنها تقل ميتًا. فالجميع ينقلون موتاهم على نحو واحد: يترجلون من صندوق الشاحنة عند رصيف العبارة، ويقفون بجوارها، وهم ينظرون إلى النهر بصمت، يكفي أن ترى منظرًا كهذا حتى تدرك جلية الأمر.

- تُرى من هو الميت؟ - تساءل فيليب، وهو ينظر إلى الناس - لابد أنه من إحدى قرى أعالي النهر، فهو لم يسمع بموت أحد في الجوار، لكن من أين جاءوا به؟ لعله لم يتوفَّ في بيته، فجاؤوا به ليدفنوه في مسقط رأسه».

لم تكد العبارة تقترب من الرصيف حتى وقعت عينا فيليب بين جمهور المحيطين بالسيارة على شخص يعرفه، إنه بافل، زوج ماريا، وللحال أدرك فيليب هوية الميت، إنهم ينقلون ماريا.

وعادت به الذاكرة إلى بداية الصيف، حين سافرت ماريا لزيارة ابنتها في المدينة، فقد تبادلا أطراف الحديث على العبارة، حيث أخبرته أن ابنتها أنجبت طفلاً، وأنها بحاجة إلى من يساعدها. كان حديثًا ذا شجون.

أكدت ماريا أنها لا تشكو من شيء، وأن كل شيء يجري على ما يرام، فالأولاد، وهم ثلاثة، يعملون، أما هي فمتقاعدة، وكذلك زوجها، لكنه يقوم ببعض أعمال النجارة في البيت. القطيع عندهم ليس كبيرًا، ومع ذلك فلا شيء ينقصهم.. حتى إنهم يربون الدجاج الرومي. وحين قاموا، العام الماضي، بترميم البيت، جاء الولدان للمساعدة.

أخبرها فيليب بدوره أن كل شيء لديه على ما يرام، وأنه متقاعد، ولا يشكو من صحته بعد، وإن كان يشعر ببعض الصداع عندما يسوء الطقس. وهنا أخبرته ماريا أنها تشكو من قلبها أحيانًا.. إنه طبيعي - طبيعي، وفجأة ينقبض، يكاد ينفطر.. وفي الليل يصبح الألم لا يطاق، حيث يتفاقم إلى درجة تدفعها إلى البكاء.. وهكذا يبدو أنه توقف أخيرًا.

ما إن تعرف فيليب إلى بافل حتى أطلق أنيناً خافتاً، ودبت القشعريرة في جسمه.

اصطدمت العبّارة بجدار الرصيف العتيق، وربطت سلسلتها بالحلقات، ثم ثبتت بالعتلات، وها هما عجلتا الشاحنة الأماميتان تلامسان أخشاب الرصيف، فتصر هذه وتطقطق وتئن.

كان فيليب يقف لدى مجداف التوجيه ينظر إلى الشاحنة ذاهلاً..! يا إلهي. إنها ماريا.. ماريا.. كان من المفروض أن يوجه السائق لكي يوقف الشاحنة في المكان المناسب، فثمة سيارتان أخريان قادمتان، لكنه ظل واقفاً في مكانه لا يريم، وعيناه مثبتتان على الشاحنة، على صندوقها.

وجاءه صوت السائق يسأل:

- أين أوقفها؟

- آه!

- أقول أين أوقفها؟

- طيب، أوقفها...



ثم لوح بيده بشكل غير مفهوم. إنه لا يستطيع أن يصدق أنهم ينقلون ماريا ميتة.. كانت الأفكار تدوّمُ في رأسه مشوشة، عاجزة عن التركيز، تارة تحمله إلى لقائه الأخير بماريا، هنا على هذه العبارة، وحديثها عن حياتها ومرضها، وأخرى يراها فتاة، وهي... يا إلهي... ماريا... أهذه أنت فعلاً؟

أخيراً انتزع فيليب قدميه من مكانه، ودنا من بافل.

كانت السنوات قد أتت على بافل القديم، صحيح أن محياه مازال نضيراً، وعينيه على ذكائهما وإشراقهما، لكنه بدا محدودبَ الظهر، وفي عينيه الذكيتين يمور حزن كبير هادئ.

- ماذا حدث يا بافل؟ - سأل فيليب.

ألقى بافل عليه نظرة خاطفة، لكأنه لم يفهم مغزى السؤال، وعاد ينظر إلى الأسفل، إلى أخشاب العبّارة. وشعر فيليب بالحرج من أن يعود إلى السؤال.

ومرة أخرى انفصل من مكانه، قاصداً الدفة. وفي طريقه دار من خلف الشاحنة المغطاة، وألقى نظرة فرأى النعش. كان قلبه يقفز من بين جنبيه، وتجمعت كل أفكاره في بؤرة واحدة. نعم إنها ماريا.

انطلقت العبّارة. وبشكل آلي راح فيليب يوجه مجداف الدفة، وهو بكل كيانه في وادٍ آخر. إنه، وللمرة الأخيرة، ينقل أغلى الناس لديه.

على مدى الأعوام الثلاثين الأخيرة سافرت ماريا معه على العبّارة عدة مرات، إنه يعرف عددها بدقة، وكلها - على الأغلب - لزيارة أولادها في المدينة: حين كانوا يدرسون، وحين أصبحوا يعملون، وحين أنجبوا الأطفال،... وها هي ذي الآن ترقد...

اقتربت العبّارة من الضفة، ومن جديد تردد رنين السلسلة، وعوت المحركات... ومن جديد وقف فيليب عند المجداف، وعيناه لا تفارقان صندوق الشاحنة. شيء لا يصدق... لم يسبق له في حياته أن سأل نفسه هذا السؤال:

- ماذا لو ماتت ماريا؟

لم تخطر هذه الفكرة في باله أبداً. الشيء الوحيد الذي لم يكن مستعداً له هو موتها.

حين أخذت الشاحنة تتحرك مغادرة العبّارة شعر فيليب بألم لا يطاق في صدره، ولم يعد يعرف ماذا يفعل، ولا كيف يتصرف؟ لسوف ترحل الآن، إلى الأبد، لكن هذا لايجوز، حتى إنه لم يودعها، إلا بعينيه، كيف هذا؟ وتزايد إحساسه بالقلق، لكنه لم يحرك ساكناً، وهذا ماضاعف معاناته.

- كان يجب أن ألقي عليها النظرة الأخيرة - قال لنفسه، والشاحنة تتسلق التلة - آه لو أودعها، لو أراها للمرة الأخيرة، فالتابوت لم يغلق بعد، أستطيع أن أراها!.

وخيل إليه أن جميع هؤلاء الذين ينقلون ماريا بعيداً عنه، ما كان يجب أن يتجاهلوه، فإذا كان موتها فجيعة لأحد فهو فجيعة له هو أكثر من أي مخلوق آخر... ماريا في النعش! يا إلهي، لكن إلى أين يأخذونها؟... وانهالت على فيليب كل منغصات حياته، كل ما لم تمحه الأيام، كل مازال حيّاً في ذاكرته، الأعز عليه والأغلى لديه... كل حياته الطويلة تمثلت أمام ناظريه - الأهم عنده، الأكثر ضرورة، مصدر بقائه... لم ينتبه إلى أنه يبكي، وهو يتابع السيارة المشؤومة، حيث النعش الغالي.. تجاوزت الشاحنة التلة، ثم انطلقت عبر الشارع واختفت. الآن ستأخذ حياة فيليب مجرى آخر. لقد اعتاد أن ماريا موجودة، وحين كان يشعر أنه يختنق من صعوبة الحياة، كان يكفي أن يذكر أن ماريا موجودة حتى تتحسن حالته. لكن ما الذي سيحدث الآن؟ يا إلهي أي فراغ هذا؟ وأي ألم!؟!..

الهوامش

* فاسيلي شوكشين (١٩٢٩ - ١٩٧٥م): كاتب ومخرج سينمائي روسي، بدأ حياته الأدبية عام ١٩٥٩م بكتابة القصة القصيرة، ومن أشهر ما كتبه مجموعة قصصية بعنوان «سكان الريف» في عام ١٩٦٣م، ورواية بعنوان «أسرة ليوبافين» في عام ١٩٦٥م، وأخرى بعنوان «قدمت لأعطيكم الحرية» في عام ١٩٧١م.

كيف يثار الابتكار لدى الصغار والكبار؟

أنور طاهر رضا
إزمير - تركيا

بدأت البحوث والدراسات الكثيفة في ميدان علم النفس قبل أكثر من قرن من الزمان، وكان ميدان الاختبارات أكثر الميادين التي لقيت اهتماماً بالغًا من علماء النفس، وأخذت الميادين الأخرى نصيبها من هذه البحوث والدراسات بمرور الأيام. كان موضوع الابتكار ينظر إليه بكثير من التخوف والتجنب، وقد يعود سبب ذلك إلى تلك الشائكة التي تتمخض عن صعوبة إجراء البحوث والدراسات في هذا الميدان العويص بالذات، وبقيت البحوث والدراسات نتيجة لذلك شحيحة في هذا المجال، وظلت الحال على هذا المنوال إلى العقود الأخيرة من القرن العشرين، فظهر حين ذاك الاهتمام المتزايد بشكل جدي وملحوظ.

نبع الاهتمام الجديد بمجال الابتكار من أهمية هذا الموضوع في عقود انفجرت فيها المعلومات انفجاراً عظيماً، وانتشرت فيها وسائل التقانة (التكنولوجيا) انتشاراً منقطع النظير. وأضحى إنتاج الشيء الجديد المبتكر هو الضمان الأساسي للترجيح والمفاضلة. لقد زادت أهمية الابتكار بسبب المنافسة الشديدة بين الشعوب والمجتمعات في مجال العلم والتقانة (التكنولوجيا) من حيث إن الابتكار يضمن تقدم هذه الشعوب والمجتمعات وبقاءها حية نشيطة قوية صلبة.

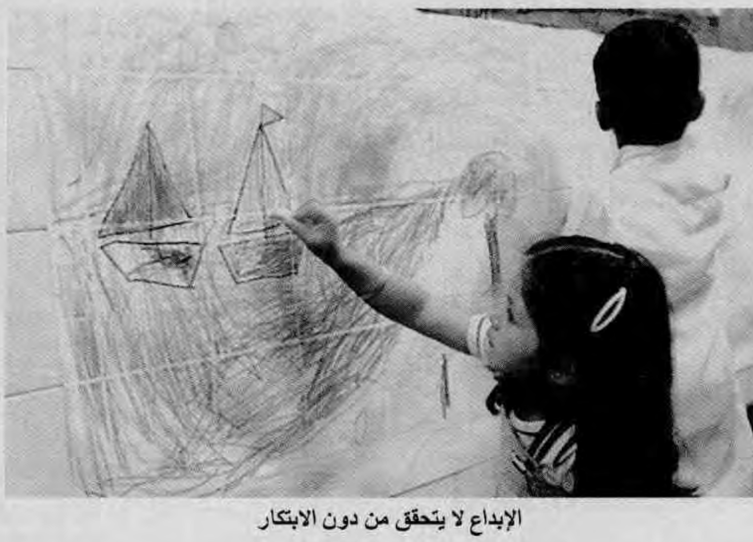
ونتيجة لهذه البحوث والدراسات وُجد أن الابتكار في طبيعته يختلف عن الذكاء الذي سبق أن أولي كثيراً من البحث والدراسة. فالذكاء لا يتأثر كثيراً بالتربية. بينما يتضاعف الابتكار أضعافًا مضاعفة بواسطة التربية. لا يستطيع أن يكون كل فرد ذكيا، فالذكاء يعود إلى الوراثة، ومساهمة التربية فيه هي في إخراج تلك الوراثة إلى حيز الوجود. فتختلف المسألة بالنسبة إلى الابتكار، إذ يستطيع كل فرد أن يكون مبتكرا إذا ما دُرِّب على وسائل تحقيق الابتكار، ووجِّه العوامل التي تؤثر فيه توجيهًا حسنًا. ومادامت التربية تؤتي أُكُلَها كل حين، فيكون الابتكار جديرا بالاهتمام والبحث والدراسة.

وبعد هذا العرض القصير يمكن أن تخطر في بال القارئ أسئلة متعددة حول هذا المجال: ترى ما الابتكار؟ وما العوامل التي تؤثر في الابتكار؟ ما موقع المثير من هذه العوامل؟ ما المثير؟ كيف يمكن توجيه الانتباه إلى المثيرات؟ هل ينبغي تجمع المثيرات في اتجاه واحد؟ كيف ينشغل الفكر بموضوع الابتكار كليًا؟ هل تختلف المثيرات في الحضر عنها في الريف، أو في الصيف عنها في الشتاء؟ كيف تتطور المثيرات في حياة الإنسان؟ ما علاقة المثيرات

بالابتكار؟ هل يولِّد كل مثير استجابة ابتكار واحدة؟ كيف يستقبل المبتكرون المثيرات؟ ما الذي يُهتَمُّ به في الابتكار؟ كيف يمكن التدريب على تحقيق الابتكار؟ كيف يُحقَّق الابتكار؟

ما الابتكار؟

تستخدم في هذا المجال، إضافة إلى الابتكار، تعابير أخرى، تختلف عن الابتكار في جوانب، وتشترك معه في جوانب أخرى؛ على أن هذه التعابير جميعاً تندرج في الميدان نفسه، وتحتاج إلى الابتكار. يدرج الإبداع والكشف والاختراع ضمن هذه التعابير. فالإبداع هو الإجادة في عمل شيء ما إجادة بالغة بإتقانه إتقاناً تاماً؛ فالجودة أو الكيفية تظهر نتيجةً لاكتساب مهارات معينة، وإتقانِ أعمال خاصة، وأدائها بشكل يَختلف عن أداء الآخرين، وابتكار شيء ما فيها بشكل ملحوظ يجلب نظر الأشخاص الآخرين. الكَشف هو التوصل إلى شيء جديد لم يَسبق إليه أحد من قبل. يتطلب الكشف المبادأة والمبادرة والجرأة والتضحية والابتكار. أما الاختراع فهو إيجاد آلة أو جهاز جديد، أو تطوير وظيفة من وظائف آلة أو جهاز موجود. وجدير بالذكر أن كلاً من الإبداع والكشف والاختراع إنما يحتاج إلى الابتكار حاجة ماسة، ولا يمكن من دونه تحقيق شيء من ذلك. وهكذا تكون هذه التعابير التي قد تبدو مختلفة أول وهلة متداخلة بعضها ببعض.



الإبداع لا يتحقق من دون الابتكار

الابتكار في أوسع معانيه: تحطيم القوالب الموجودة، أو الخروج عن المألوف، أو كسر قيود الفكر المفروضة على الفرد، أو ارتياد طريق آخر غير الطريق الرئيس الذي يسلكه الآخرون، أو الانفتاح على خبرات الآخرين، أو المباشرة بأول خطوة نحو المجهول، أو وضع خط فكر جديد، أو طرح أبدال مختلفة لمشكلة معروضة، أو إيجاد شيء جديد يؤدي إلى إيجاد أشياء أخرى، أو التوصل إلى إيجاد علاقات جديدة بين الأفكار المطروحة، أو طرح فكرة جديدة، أو إيجاد وسيلة أو طريقة غير معروفة سابقاً، أو ارتياد مكان جديد، أو كشف شيء لم يسبق إليه أحد، أو اختراع آلة أو جهاز جديد يفيد الإنسان.

ما المثير؟

المثير أو المنبه أو الحافز هو كل شيء نراه أو نسمعه أو نلمسه أو نتذوقه أو نشمه، أي نتلقاه عن طريق حواسنا الخمس التي تعدّ القنوات التي توصل الدماغ بما هو كائن في بيئة الإنسان المحيطة به. فوجود المثير بالنسبة إلى شخص معيَن رهن باستقباله عن طريق حاسة واحدة أو أكثر، وبواسطة هذه الحواس يتنبّه الفرد لوجود هذه المثيرات. فالانتباه ضرورة من ضرورات تلقي المثيرات، ويعني انتباهُ المرء لمثير معين: تَلَقِّيه هذا المثيرَ واستجابته له. ويضيف هذا المثير بذلك خبرة معينة إلى ذاكرة الشخص. وعدم انتباه الشخص إلى مثير معين يعني عدم وجود هذا المثير بالنسبة إلى الشخص.

فالمثيرات كثيرة في الكون، لا تُعدّ ولا تحصى؛ ذلك لأن المثير هو أي شيء موجود على البسيطة وفي أعماق الذاكرة الإنسانية التي تبدو، للوهلة الأولى، أنها في السطح كالبركان الذي هدأ وسكن منذ فترة طويلة. فقد يكون المثير إنساناً أو حيواناً أو نباتاً أو جماداً أو أي شيء آخر، وقد يكون مقالة أو فصلاً من كتاب أو كلاماً مأثوراً أو برنامجاً من محطة إذاعية أو قناة تلفاز، أو كلاماً مع شخص قد يكون بائع فواكه، أو موزع بريد، إلخ... وقد يكون المثير منظراً طبيعياً مرسوماً على لوحة، أو تلاطم أمواج بحر، أو دعايةً ما على صفحة صحيفة أو مجلة، أو يلقاه الفرد في أثناء البحث في رفوف مكتبة ما، أو في أثناء التجارب التي يجريها في المختبر أو العملَ في الورشة، أو خطأ ارتُكب من دون قصد واضح، أو مجرد مشي في سوق أو محلَ عمل أو تجارة. وقد يكون

هذا المثير نابعًا من وجود الإنسان في بيئة معينة عدة ساعات والتفكير في أمر ما يشغل باله كثيرا.

المثير والانتباه

يحيط الفرد الاعتيادي في حياته اليومية بالآلاف من المثيرات المختلفة، ويكون من المستحيل أن يستجيب لكل هذه المثيرات لما يمكن أن تسبب له من تعب وإرهاق، ومن هنا يكون اختيار المثيرات أمرًا طبيعيًا، فيستجيب الفرد إلى بعضها استجابة عميقة ويتفاعل معها، ويمر ببعضها الآخر مر الكرام، أو يستجيب لها استجابة سطحية، بينما لا ينتبه لغيرها مما قد يشكل الغالبية العظمى منها. ولا تعدّ الفئة الأخيرة مثيرات بالنسبة إلى هذا الفرد، ولن يكون لها وجود في خبراته. ترى ما الذي يجعل فردًا ما متلقيًا مثيرًا



الربط بين الخبرات القديمة والجديدة من أهم أسس الابتكار

دون غيره؟ يشكل الانتباه عاملاً أساسيًا في هذا المجال. فالانتباه هو تركيز الذهن في عدد محدود من المثيرات في فترة زمنية معينة، وقد يكون هذا التركيز مقصودًا من قبل الفرد أو مفروضًا عليه من الخارج. وفي هذا الخصوص يشير أنجل وسنيلكروف-Engle and. Snell-grove;1977,224-225 إلى مجموعتين مهمتين من العوامل، لهما دورهما في جلب انتباه المرء لمثيرات معينة دون غيرها. تتعلق المجموعة الأولى بالمثير بحد ذاته، وتتعلق المجموعة الثانية بالفرد نفسه.

العوامل المتعلقة بالمثير: تتضمن العوامل المتعلقة بالمثير خصائص المثير الأساسية، منها الشدة والحجم واللون والتباين والحركة والتغيير والجدة والتكرار. ومع تجمع خصائص كثيرة في مثير معين يزداد احتمال انتباه الفرد لهذا المثير. فالدعاية الضوئية تجلب انتباه الفرد لحركتها وألوانها الزاهية.

العوامل المتعلقة بالفرد: تتضمن العوامل المتعلقة بالفرد حالته النفسية حال حدوث المثير. كما تتضمن هذه المجموعة الحاجات والاتجاهات والتوقعات والدوافع والخبرات السابقة. فالشخص الذي يريد أن يشتري قميصًا - على سبيل المثال - ينتبه للقمصان في المعارض أكثر مما ينتبه لأي شيء آخر.

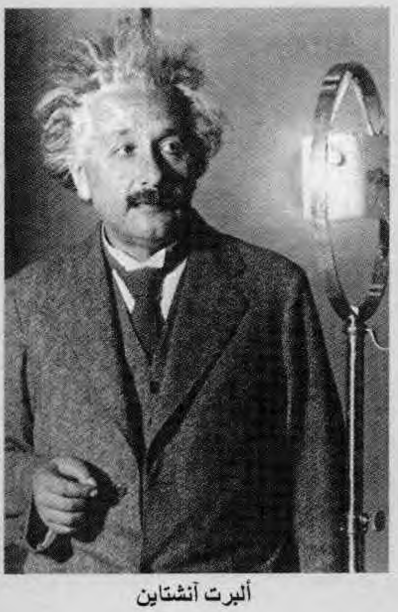
تجمع المثيرات في اتجاه واحد: إنّ وجود المثيرات أو تجمعها في اتجاه واحد يولد الإثارة والتبصر في العقل الإنساني بإيجاد علاقة ما بين هذه المثيرات؛ فقرد كوهلر لم يتنبّه لوجود العلاقة بين الحصول على الموز والصناديق عندما كان موليًا ظهره بعض هذه الصناديق الموجودة في الغرفة. على أنه تبصّر في هذه العلاقة عندما كانت الصناديق جميعا والموز في اتجاه واحد وأمام بصره. فبوضع الصناديق بعضها فوق بعض، وبحصوله على الموز انحلت المشكلة. وكانت الحالة نفسها بالنسبة إلى العصي، إذ لم يتبصر في تركيب هذه العصي بعضها ببعض إلا عندما كانت جميعا أمام مرآه.

انشغال الفكر الكلي بالمشكلة: على أن الإنسان يختلف عن الحيوان من حيث الذاكرة، إذ يتميز الإنسان في الاحتفاظ بخبراته في ذاكرته فترة طويلة من الزمن، فيستخدم خبراته السابقة، ويتأمل في الأمر، ويكوّن العلاقة بينها وبين المثيرات الجديدة التي يتلقاها عن طريق حاسة من حواسه. وإذا ما كان أمر ما يشغل باله كثيرًا، ويبحث عن حل له، فإنه قد يربط بينه وبين أي شيء آخر يراه أو يسمعه أو يتحسسه أو يشمه أو يتذوقه هنا وهناك. ومن أجل أن يشغَل أمرٌ ما بال الإنسان لابد أن يعيشه بكل ما أوتيه من إمكانات. أي أن يحتل هذا الأمر جزءًا من حياته أينما دبَّ وحلَّ، فلا يفكر إلا به في كل آن وحين، في كل زمان ومكان. وهذا ما يجعل الإنسان في تحفز لتلقي الإلهام، وتكوين الارتباطات الجديدة. وإذا دخلت المشكلة التي هو واقع فيها أحلامه، فإن ذلك يعني أنه منشغل بها

انشـغـالاً تـامـًا، وأن الانشـغـال إنما وصل إلى الدرجـة القصوى التـي يمكن أن يصل إليها، وما بعـد هذا الانشغال الكثيف المركز إلا إنارة في الذهن كـإنارة البرق السـريعة، تمر بالبال مراً خاطفًا سريعًا جداً، وما عليه إلا أن يخطفها خطفًا سريعًا. فيكون تسجيل الأفكار - إذن - ضرورياً جداً. فما على المرء إلا أن يسجل أفكاره بطريقة ما دون أي نقص؛ وإلا فإن الخطفة السريعة هذه معرضة للنسيان لا محالة، وقد لا تخطر هذه الأفكار بالبال مرة أخرى. ولا ينفع الندم عند ذاك شيئًا.

وتظل هذه الذاكرة فعّالة في أثناء اليقظة عندما يختلي الشخص بنفسه في الفراش قبل النوم أو بعده. أو عندما يدخل الحمام، أو يحتل مقعداً في الحافلة أو يوجد في أي مكان آخر. ومهما تظهر المشكلة منسية في الظاهر، ومهما ينشغل المبتكر عنها بقضايا أخرى غيرها، إلا أنها تمر بمرحلة من الاختمار، وتكون محفوظة في لاشعور الفرد، وقد تقفز إلى الشعور في وقت يقابل فيه الإنسان مثيراً جديداً كفيلاً بإثارته والتبصر في إيجاد علاقة جديدة.

وتبيت هذه الذاكرة فعّالة حتى في أثناء النوم. وقد يظهر التبصر على شكل رؤيا. ومن العلماء من توصلوا إلى إيجاد العلاقات بين المثيرات التي شغلت بالهم في النهار في أحلامهم. وقصة أوتو لوي Otto Loewi معروفة للباحثين في ميدان علوم الحياة. يذكر في تأريخ الاكتشافات أن هذا العالم كان يجري تجارب مضنية مستمرة على الخلية الحيوانية سنوات طويلة لا يستطيع حل المشكلة التي كانت تشغل ذهنه بأي حال من الأحوال، واستطاع أخيراً أن يحل هذه المشكلة في رؤياه، فأفاق من نومه، وسجل ملاحظاته في الظلام، ثم نام مرة أخرى. على أنه لم يستطع أن يقرأ خط يده بعد أن نهض من نومه في الصباح. وهكذا، فقد نسي الحل الذي انتظره بصبر فارغ سنوات طويلة. على أن هذا العالم كان محظوظاً جداً. فقد رأى الرؤيا نفسها في الليلة الثانية. وما إن أفاق من نومه في هذه المرة حتى أضاء المصابيح، وعجّل بالذهاب إلى مختبره، وسجّل رؤياه بالكامل دون أن يدع أي مجال للنسيان. لقد حصل هذا العالم - نتيجة أعماله هذه - على جائزة نوبل العالمية الشهيرة.



ألبرت آنشتاين

تشبه قصة اختراع آلة الخياطة القصة السابقة. يذكر اونيل O`neil,1995, 25l قصة إلياس هوي Elias Howe مع غيرها من قصص الاختراعات في الأحلام؛ إذ كان مخترع آلة الخياطة «هوي» قلقًا جداً؛ لأن جهوده في تركيب الخيط بالإبرة كانت تبوء بالإخفاق على الرغم من المحاولات المضنية التي كان يبذلها. لقد آوى المخترع إلى الفراش بعد عمل متعب، ورأى في منامه أنه قُبض عليه من قبل رجال قبيلة وحشية، وأُخذ إلى رئيس القبيلة الذي أمره إما أن يصنع آلة خياطة متكاملة، أو أن يفتك به. فباءت محاولات «هوي» في النوم بالإخفاق أيضًا. ازداد رئيس القبيلة غضبًا، وأمر بالفتك به. وتقدم رجال القبيلة نحوه، وهم يحملون في أياديهم الرماح. انتبه هوي في هذه اللحظة أن الرماح مثقوبة. أفاق المخترع من هول ما رأى. استنتج من حلمه أن الإبرة كالرماح، وينبغي إجراء ثقب في هذه الإبرة، وتركيب الخيط فيها من هذا الثقب، وهو ما يحصل الآن في آلة الخياطة.

وهناك أمثلة أخرى من غير لوي، وهوي ممن توصلوا إلى اختراعاتهم في الأحلام. يذكر عن توماس أديسون Thomas Edison مخترع المصباح الكهربائي أنه قال إن أفضل أفكاره كانت تأتيه في أثناء النوم. وذكر الفيزيائي المشهور ألبرت آنشتاين Al-bert Enstein كلامًا شبيهًا بذلك. لقد كتبت القصاصة الشهيرة شارلوت برونتي Charlotte Bronte قصتها المشهورة جين آير Jane Eyre بناء على ما شاهدته من أحلام خلال النوم. ذكر الملحن ايجور سترافنسكي Igor Stravinsky مرة أن أحسن طريقة لحل مشكلات الألحان الموسيقية هو النوم عليها.

ومن أجل أن يشاهد الإنسان شيئًا ما لابد أن يكون هذا الشيء قد ركز فيه تركيزاً تاماً، وفكر فيه تفكيراً عميقاً وطويلاً، وشغل ذهنه كثيراً. إن الانشغال الزائد بمشكلة ما

يدفع الإنسان إلى التوصل إلى أفكاره المبتكرة سواء أكان ذلك خلال اليقظة أم في أثناء النوم. يحافظ المخ بالانشغال الزائد على فعاليته فترة طويلة من الزمن. وتلهم فعالية المخ المستمرة الإنسان الأفكار الجديدة والجيدة. ومن أجل المحافظة على فعالية المخ الدائمة لابد من التفكير العميق بأمر من الأمور. وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تحث على هذا النوع من التفكير: *كذلكَ نفصِّلُ الآيات لقوم يتفكّرون*. **يونس: ٢٤**. وقوله سبحانه: *إنّ في خَلْق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب. الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جُنُوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض*. **آل عمران: ١٩٠ - ١٩١**. فالآيات مثيرات للفرد سواء كانت عبارات موجودة في القرآن أو أي شيء من خلق الله موجود على الأرض أو في الكون.

المثيرات في الحضر والريف

تختلف المثيرات في الحضر عنها في الريف من حيث العدد والنوع، ويختلف بذلك الحضري عن الريفي في تلقيه للمثيرات المختلفة. فالمثيرات قليلة في الريف ومعظمها طبيعي، ويستجيب الريفي بناء على ذلك استجابة عميقة لهذه المثيرات. أما المثيرات في المدينة فتكون كثيرة جدًا، ولا يمكن للساكن في المدينة أن يستجيب استجابة عميقة لكل هذه المثيرات؛ ذلك لأن الاستجابة لكل هذه المثيرات إنما تتطلب صرف طاقة كبيرة، وتتعب الجهاز العصبي لدى الإنسان، ولهذا السبب تكون استجابة المدني للمثيرات بشكل عام استجابة سطحية.

المثيرات في الصيف والشتاء

تختلف المثيرات من فصل إلى آخر. يكون النهار في الصيف طويلاً، بينما يكون في الشتاء قصيرًا، ويتساوى مع الليل في الربيع والخريف. ولما كان الإنسان يعمل في النهار ويأوي إلى بيته في الليل فإن المثيرات التي يتعرض لها في نهار الصيف الطويل أكثر مما يتعرض له في نهار الشتاء القصير. ويتعب الإنسان في أيام الصيف أكثر مما يتعب في أيام الشتاء. لقد حدَت هذه الوضعية بعالم الاجتماع دوركهايم إلى أن يعزو ارتفاع نسبة الانتحار في أشهر الصيف عنها في أشهر الشتاء إلى كثرة المثيرات التي يتلقاها المنتحر في أشهر الصيف.

المثيرات في الطفولة والمراهقة

يعيش الجنين الإنساني في بيئة آمنة مطمئنة في رحم الأم، تكون مثيرات الجنين في هذه البيئة محدودة جدًا، إذ يحصل الجنين على هذه المؤثرات عن طريق الحبل السري. على أن هناك من الأدلة ما يشير إلى أن الجنين يستجيب للمؤثرات الموسيقية بزيادة الحركة. ينتقل الوليد الإنساني بعد الولادة إلى بيئة غنية بالمثيرات، تكون بمجموعها جديدة بالنسبة إليه؛ فيتعلم عنها ما يصل إليه عن طريق حواسه الخمس. ويميز الوليد منذ البداية بين نوعين من المثيرات: تلك التي تعطيه اللذة فيقبل عليها، وتلك التي تولِّد لديه الألم فيتجنبها. فتكون استجابات الوليد لهذه المثيرات في بداية الأمر أفعالاً انعكاسية لا إرادية.



شارلوت برونتي

تتضمن بيئة الطفل الأولى في الأسرة عددًا محدودًا من المثيرات موازنة بالبيئات الأخرى الموجودة خارج هذه الأسرة. ومع نمو الطفل المطرد، وتعلمه المشي، وانتقاله من مكان إلى آخر، تزداد المثيرات التي يستقبلها في البيت أولاً، وفي البيئة الخارجية التي تحيط بهذا البيت ثانيًا. يحاول الطفل أن يكتشف كل ما يحيط به من أشياء لما هو مزود به من دافع حب الاستطلاع. ومع تعلمه اللغة يبدأ بالتعبير عما يصل إليه عن طريق حواسه أو ما يفكر به بالألفاظ. ويسأل الطفل كثيرًا عن كنه الإنسان والحيوان والنبات والأشياء والكون. وتكون أسئلته في كثير من الأحيان مربكة للكبار الذين يحيطون به. تكون الإجابات عن أسئلة الأطفال، بالشكل الذي يستطيع معه أن يفهمها، مفيدةً في تنمية إدراكه للواقع الذي يعيشه. يمر الطفل بفترة يقلد فيها الكبار فيما يقومون به من أعمال وما يتحدثون به من أقوال. ويشكل التقليد المرحلة الأولى من الابتكار.

يتميز طفل اليوم بأنه أوفر حظًا من طفل الأمس بما يستقبله من مثيرات كثيرة من وسائل الاتصال. تؤدي هذه الوسائل وعلى رأسها التلفاز والحاسوب دورًا مهمًا في نقل مثيرات كثيرة موجودة خارج البيت إلى داخل البيت. يتنبه

الطفل إلى هذه الأجهزة منذ السنوات الأولى من حياته، ويتابع ما يعرض فيها من برامج متنوعة. فالتلفاز والحاسوب يتضمنان مثيرات غنية لا تعد ولا تحصى، وتتميز هذه المثيرات بأنها تتغير بسرعة كبيرة. تجلب الأفلام والألعاب، ولا سيما الكارتونية منها، أنظار الأطفال لما فيها من خيال وافر وحركة سريعة، وألوان زاهية تسر الناظرين. يتطلب جميع الإنتاجات التي تعرض في التلفاز والحاسوب أصلا الابتكار. ومن هنا تؤدي هذه الأجهزة دوراً مهماً في تنمية الابتكار لدى الأطفال.

ومع عمر رياض الأطفال تتوسع بيئة الطفل كثيرا، وتزداد المثيرات التي يستقبلها، ويزداد الخيال لديه في هذه الفترة الزمنية، ويصل إلى أقصى مستواه في عمر الخامسة. والخيال والتفكير مثيران داخليان تتم فيهما تصفية المثيرات الخارجية وترشيحها وتطويرها، وتنظيمها بطريقة صالحة للخزن في الذاكرة الإنسانية، ومقبولة في كثير من الأحيان من الطفل ومن يحيط به.

تتوسع بيئة الطفل لما يكسبه من سهولة في الانتقال مع تقدم العمر. وتزداد المثيرات كثيراً في عمر المدرسة الابتدائية بما يتعلمه من قراءة الكتب المختلفة، وما يصل إليها من مجلات وجرائد متنوعة. تحتل الحكايات لدى الأطفال مرتبة خاصة بين المنشورات لما فيها من خيال خصب يغني خيالهم الكامن.

وفي فترة المراهقة تتوسع بيئة المراهقين كثيراً، وتتميز الاهتمامات الجديدة لديهم وتتكون الهوايات وما يولع به، وتتطور شيئاً فشيئاً. تتطور صداقاتهم وتتقوى مع أقرانهم، ويتعلم المراهق أشياء كثيرة من هؤلاء الأقران، ويكون تأثيرهم فيه كبيراً، وتتكون لدى المراهقين أحلام اليقظة حيث يبنون لهم قصوراً من الخيال، والخيال مفيد جداً إذا أمكن عكسه على شكل نواتج علمية أو أدبية. يتعلم المراهق ويمتص القيم والمعايير الاجتماعية من الأشخاص المهمين في حياة الفرد كالوالدين والمدرسين والقادة والمقرّبين، ويكون هذا التعلم والامتصاص من الأهمية بمكان إذا كان هؤلاء الأفراد بشكل خاص، والمجتمع بشكل عام، يولون أهمية كبيرة للابتكار والأعمال المبدعة والنواتج الرفيعة، ويسعد المراهق بمشاركة الآخرين في الخبرات والمشاعر والاتجاهات والأفكار. ويكون من المرجح توجيه المراهقين في المدارس إلى الأعمال الذهنية والعملية الجماعية التي من شأنها البحث والتقصي؛ ذلك لأن المراهقين المبتكرين يتميزون من غيرهم بدافع شديد إلى حب الاستطلاع، والبحث عن مثيرات جديدة، والكشف عن كنه الأسرار التي تحيط بالأشياء التي يجهلونها.

يدخل المراهقون الجامعة في المرحلة المتأخرة من المراهقة، وينمو تفكيرهم المجرد نمواً مطرداً في هذه المرحلة. وينمو معه التفكير المنطقي والتفكير المبتكر، وتزداد القدرة على الفهم والصياغة النظرية، ويستطيع المراهق



مع عمر رياض الأطفال تتوسع بيئة الطفل

في هذه الفترة حل المشكلات المعقدة، ويتبلور لديه التخصص ويتضح، ويخطو المراهق خطوات جدية نحو الاستقرار في المهنة. وتزداد القدرة لديه على التحصيل، وتتطور سرعته في القراءة كثيراً، ويستطيع ـ نتيجة لذلك ـ استيعاب مصادر المعرفة المتزايدة أكثر من أي وقت مضى. وبسبب التطور المعرفي والتقاني (التكنولوجي) حصول طالب اليوم على فيض من المعلومات أكثر مما كان يحصل عليه من سبقوه قبل عقد أو عقدين من الزمان. يهتم الطالب الجامعي بالقراءات في التخصص من ناحية، وفي الثقافة العامة من ناحية ثانية، وفي الأدب من ناحية ثالثة،

ويحتل الجمع بين هذه الأنواع من القراءات مع ما للمراهقين من هوايات ورغبات أهمية كبيرة من زاوية الابتكار.

تؤثر وسائل الإعلام كثيراً في هذه الأيام في المراهقين لانتشار المذياع (الراديو) والتلفاز والحاسوب في كل مكان، ويحتل الحاسوب بشكل عام، وشبكة المعلومات (الإنترنت) بشكل خاص، أهمية كبيرة في إيصال الطالب إلى عالم المعرفة والمثيرات الجديدة والغنية المتنوعة، ومن مصادرها الأولى. وهذا الأمر مهم جداً من وجهة نظر الابتكار.

ومع انتهاء فترة المراهقة يدخل الإنسان مرحلة الشباب، فيزاول الفرد المهنة، ويصل إلى التوازن في نضجه



إلياس هاو



لويس

الجسمي والعقلي والعاطفي والاجتماعي. وكلما كبر الفرد سناً تراكمت الخبرات لديه. ومع الزيادة في العمر وتأثير المجتمع بعاداته وتقاليده وأعرافه، يقل الخيال لدى الشبان، ويميلون إلى الواقع الذي يعيشونه. يميز دي بونو De Bono,1993,43,45 بين نوعين مختلفين من الابتكار لدى الصغار والكبار؛ فالابتكار لدى الأطفال يرجع إلى قلة الخبرة، إضافة إلى ما لهم من قابلية على الخيال الذي لم يطمسه المجتمع بعد؛ ذلك لأن كثرة الخبرات تحد من رغبة الفرد في النظر إلى الأمور من زوايا مختلفة. ويرجع الابتكار لدى الكبار إلى الزيادة في الخبرات التي تتراكم مع مرور الأيام. وعلى الرغم من أن هذه الخبرات مهمة جدا فإنها تقيِّد الفرد كثيراً، فينظر إلى الأمور من منظار هذه الزاوية الخاصة. وكما أن استشارة الصغار للكبار ضرورية جداً، فإن استشارة الكبار للصغار فيما يجابههم من مشكلات مهمة أيضاً من زاوية الابتكار؛ فالصغار يزودونهم بأفكار تنفعهم في مثل هذه المواقف. ويؤكد عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الحقيقة بالذات مشيراً إلى الاستشارة بالرأي بحديثي السن، ومعللاً ذلك بأن العلم ليس على حداثة السن وقدمه؛ ذلك لأن الله تعالى يهب العلم لمن يشاء.

علاقة المثيرات بالابتكار

يولَد الإنسان وهو مزود بنظام عصبي فريد في نوعه بين الحيوانات لكونه وصل إلى القمة في التطور، ويتصل هذا النظام بقنوات الاتصال الخمس بالعالم الخارجي لفهم كنه ما يجري فيما يحيط به وإدراكه. وهو بنظامه هذا يتفاعل مع البيئة المحيطة به فور ولادته. والأشياء التي تنقلها هذه الحواس إلى النظام العصبي هي مثيرات، وتكمن غرابة الإنسان في أنه يخزن هذه المثيرات في نظامه العصبي. وليس هذا فحسب، بل يرشحها من الدماغ بشكل قد يختلف عن أصلها كماً ونوعاً، ثم يخزنها في ذاكرته. وكلما تعرض الإنسان إلى مثيرات أكثر، كان مخزونه أوفر، وكان جهازه العصبي أكثر تطوراً. وهو يعود إلى مخزونه لكي يقيم علاقات بين هذه المثيرات من ناحية، والمثيرات الجديدة التي يتلقاها في كل آن وحين من ناحية أخرى. وقد تكون هذه العلاقات بسيطة أو معقدة. وكلما زاد تعقد هذه العلاقات، كان الابتكار أوفر حظاً. فالإنسان لا يولد مبتكراً أو مبدعاً أو مكتشفاً أو مخترعاً، بل يكتسب ذلك فيما بعد. وكلما كثرت المثيرات التي يتلقاها الإنسان من البيئة، نما هذا الجهاز العصبي، وكان أقدر على تكوين علاقات جديدة، وكان أكثر حظاً في الابتكار.

يرتبط المثير إذن بالابتكار ارتباطاً وثيقاً. وتفيد زيادة أعداد المثيرات الابتكار كثيراً. أما ابتكار المحرومين من المثيرات فيكون محدوداً جداً. وتنويع المثيرات مهم كأهمية زيادة أعداد المثيرات. لقد حاول بعض الباحثين توضيح العلاقة بين المثيرات والابتكار على شكل معادلة تتضمن عدة عناصر. ابتكر هول وويكر Hall and Wecker:1996:6 المعادلة الآتية للاختراع من أجل توضيح هذه العلاقة:

الاختراع = (المثير + نظام عمل الدماغ)الهذل.

تبين هذه المعادلة أهمية المثيرات والهزل في الاختراع الذي يتطلب الابتكار، وتبرز أهمية الهذل أكثر من المثيرات. على أن المعادلة كلٌ واحد، وعدم وجود عنصر منها يؤدي إلى الخلل فيها. إذا قبلنا الاختراع نتيجة من نتائج الابتكار، فإن المعادلة تظهر أن المثيرات إنما تشكل نقطة البداية للابتكار. ومن دون هذا المثير لن يحصل الابتكار.

هل يولّد كل مثير استجابة ابتكار واحدة فقط؟

إذا كان المثير يُولِّد استجابة عند فرد فقد لا يُولِّد هذا المثير استجابة عند فرد آخر. ووجود المثير بالنسبة إلى شخص معين رهن بإثارة هذا المثير استجابة ما. فكل مثير يتلقاه الفرد يولد استجابة معينة مادام أن الإنسان قد تلقاه. فالمثير الجيد هو ذاك المثير الذي يولد سلسلة من الاستجابات، والمثير الأحسن هو ما يثير سلسلة من الاستجابات التي تؤدي إلى سلسلة أخرى غيرها. وتختلف نوعية الاستجابات أيضاً من شخص إلى آخر. وجودة الاستجابة في كثرة ما تثير من استجابات لدى الفرد نفسه أو لدى الأفراد الآخرين، فتكون بذلك كالحجارة التي ترمى في بحيرة ماء راكدة، فتثير أمواجاً، وتتلاطم هذه الأمواج بعضها ببعض، فتثير أمواجاً أخرى غيرها.



سترافنسكي

تبنى الاستجابات على إيجاد علاقات أو ارتباطات جديدة بين الاستجابة الجديدة والاستجابات الأخرى الموجودة في الذاكرة. وكلما كانت الارتباطات كثيرة في الكم، كان الاحتمال عالياً في ظهور نوعية الاستجابة؛ إذ إن هناك علاقة إيجابية عالية بين الكم والكيف، فكثرة كمّ الأفكار تحسّن الجودة. إن الكم يولد الكيف عاجلاً أم آجلاً.

عندما ينتبه المرء إلى مثير جديد موجود في الطبيعة، فإن سلسلة من الأفكار تتفتق في ذهنه، وتدوم فترة من الزمن. ومن هنا يكون استقبال المثيرات مهماً جداً. فكلما كانت هذه المثيرات أكثر عدداً، كان احتمال تشكيل علاقات وارتباطات جديدة أكثر. ففكرة واحدة قد تولد أفكارا كثيرة، شأنها شأن حبة تولّد سبع سنابل، في كل سنبلة مئة حبة، ويلهم الله من عباده من يشاء أفكاراً أخرى غيرها.

كيف يستقبل المبتكرون المثيرات؟

لاشك أن المثيرات التي تولد أفكاراً مبتكرة تختلف من شخص إلى آخر، ويرجع السبب إلى أن لكل شخص تراكماً متشابكاً من الخبرات، فريداً في نوعه، ويختلف عما هو موجود لدى شخص آخر. فما يكون مثيراً لشخص، ويولد استجابات معينة يولد استجابات أخرى غيرها لشخص آخر. وهذا الانفراد في الاستجابات هو الخروج على المعتاد المألوف الذي يكمن فيه سر الابتكار.

يتميز المبتكر من غيره بأنه يكون ملاحظاً جيداً، ومدققاً في الأمر أكثر من غيره، ومتأملاً ومتفحصاً دقيقاً. فما يراه هذا المبتكر لا يراه غيره، وينتبه لما لا ينتبه له أحد. وما لا يثير غيره يثيره هو. تكون عيون قلوبهم مفتوحة، ويتبصرون بها ما لا يتبصره الآخرون. يظهرون حساسية أكثر من غيرهم. فالمبتكر هو ذلك الملاحظ الجيد لما يتلقاه من البيئة من مثيرات، والمتفحص والمدقق في ما يلاحظه من مثيرات، والمستجيب لما يتفحص ويدقق من مثيرات مهما كانت قيمتها الظاهرية تبدو لغيره بسيطة وتافهة.

توصيات

انطلاقاً مما سبق يمكن تقديم التوصيات الآتية:

- توفير المثيرات الكثيرة في البيئة التي يعيش فيها الطفل؛ فقلة المثيرات تؤدي إلى حرمان الأطفال من كثير من الخبرات التي قد تكون سبباً في إثارة الابتكار لديهم. أما الزيادة في المثيرات فإنها رهينة بإثارة الابتكار لديهم.
- تعليق الصور والمناظر الطبيعية في غرفة الطفل، وخاصة من تلك الأنواع التي يمكن تغييرها في كل يوم عن طريق القلب، لتعريضه لمثيرات أخرى مختلفة.
- تنويع المثيرات التي يتعرض لها الأطفال في بيئتهم التي يعيشون فيها. فالتنويع يشمل الكتب والمجلات والصحف والأفلام والشرائح والمسجلات.

- التوجه نحو استخدام التقانة (التكنولوجيا) الحديثة وخاصة جهاز الحاسوب وشبكة المعلومات (الإنترنت) لما فيهما من مثيرات غنية جداً لا تعد ولا تحصى، ومتنوعة تنوعاً هائلاً جداً تشمل جميع ما يمكن أن يرغب الإنسان أن يطلع عليه.

- تدريب الصغار منذ نعومة أظفارهم على تلخيص الأفكار باستخدام ألفاظهم الخاصة، كأن تعطى لهم فقرات من كتابات معينة، ويطلب منهم تلخيصها بشكل معين بطريقة فردية أو جماعية. وتوازن الملخصات بعضها ببعض، ويكافأ الجيد منها.

- تعويد التلاميذ منذ السنوات الأولى من المدرسة الابتدائية الوقفة المبتكرة عند كل شيء موجود في هذه الطبيعة. تكون الوقفة المبتكرة على شكل تأمل وتفحص وتدقيق وتركيز دقيق وتفكير عميق في موضوع معين لفترة قد تستغرق عدة دقائق.

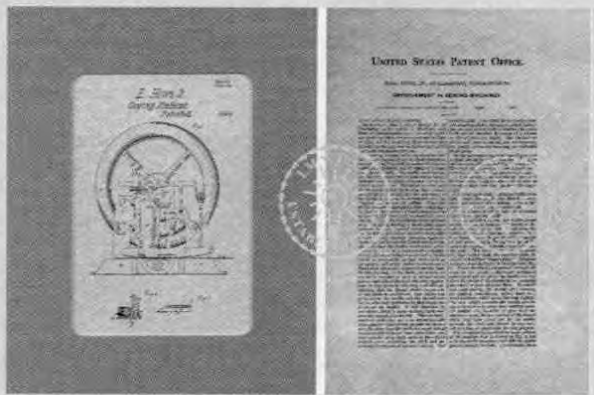
- تعويد الصغار منذ نعومة أظفارهم أخذ الملاحظات التامة وتسجيلها في دفتر عن كل ما يجدونه في الحياة أو يقرؤونه، ويكون الاحتفاظ بهذه الدفاتر ضرورياً طوال الحياة، كما أن إلقاء النظر في محتويات هذه الدفاتر بين فترة وأخرى يكون مفيداً من زاوية الابتكار من حيث إنها تشكل مثيرات، وتساعد على إيجاد علاقات جديدة بين المثيرات المختلفة.

- الأفكار التي تراود الإنسان لا تأتي مرة واحدة وبالكامل. ولو كان الأمر كذلك لما كانت هناك مشكلات على وجه الأرض. إن الأفكار إنما تقفز إلى الفكر بين فترة وأخرى بشكل خاطف، ثم تختفي مباشرة. ويكون تسجيلها ضرورياً: أين ومتى أتت دون أي ضياع في الوقت.؟

- تعويد التلاميذ إنهاء واجباتهم البيتية قبل فترة مناسبة من الموعد المطلوب، ليصرف الوقت المتبقي للتفكير من أجل التطوير، وبعبارة أخرى تحتاج الأفكار إلى أن تمر من مرحلة ما يسمى بالاختمار، وفي اختمار الأفكار إبداع وابتكار.

- دعوة الطفل إلى أن يكون ملاحظاً ومراقباً جيداً لكل ما يحيط به، وتوجيه أسئلة لكشف دقة انتباهه بعد زيارة لبيت صديق للعائلة أو سوق أو أي مكان آخر.

- اللعب بالدمى والألعاب التي تحتاج إلى بناء وهدم يثير لديهم الخيال ويظهر ابتكاراتهم.



وثيقة اختراع آلة الخياطة

- عدم ترك أسئلة الأطفال من دون إجابات مهما كانت، والإجابة عنها بالشكل الذي يفهمونه. وإثارة أسئلة مستمرة وتوجيهها للأطفال، وخصوصاً تلك الأسئلة التي تكون من النوع المفتوح لكي يتوجه إلى البحث والاستقصاء والدراسة المنظمة.

- توجيه الأطفال إلى الاحتكاك المباشر بالطبيعة وما فيها من السهول والهضاب والأودية والجبال والكهوف والصحاري والبحار والأنهار.

- مصاحبة الأطفال في زيارة الأسواق والمحلات التجارية، وتفحص المعروضات المختلفة وما فيها من أشياء جديدة، ودراسة مزاياها وخصائصها.

- توجيه انتباه الطفل نحو السماء وما فيها من نجوم وشمس وقمر.

- توجيه انتباه الطفل نحو الحيوانات والنباتات وأهميتها الطبيعية في حياة الإنسان.

- توجيه انتباه الطفل نحو المظاهر الطبيعية التي تشمل على البرق والرعد والغيوم والأمطار والثلوج والرياح والعواصف والزلازل والبراكين.

المراجع

- زهران، حامد عبد السلام، علم نفس النمو (الطفولة والمراهقة)، القاهرة، عالم الكتب ١٩٨٢م.
- Engle, T. L. Snellgrove, L. (1977) Psychology: Its Principles and Applications. New York: Harcourt Brace Jovanovich.
- Epstein, R. (1996) "Capturing Creativity." Psychology Today, 29(4), 36-40.
- De Bono, E. (1993) Serious Creativity: Using the Power of Laterall Thinking to Create New Ideas. London: Harper Collins.
- Hall, D. and Wecker, D. (1996) Jump Start Your Brain. New York: Warner.
- O'neill, R. Duchworth, M. & Gude, K. (1995) Success at First Certificate. Oxford: Oxford University Press.
- Riza, E. T. (1999) Yaraticiligi Gelistirme Teknikleri. Izmir: Anadolu Mat.

محمد خانجيتش

حياته ومؤلفاته

خانجيتش وإثبات وجود علماء الدين البوسنيين في النصف الأول من القرن العشرين

أنس كاريتش
سراييفو - البوسنة والهرسك

إنه لمن المستحيل أن تجد في تاريخ الفكر ونشاطات علماء الدين الإسلامي في البوسنة والهرسك في النصف الأول من القرن العشرين شخصية مفكرة يمكن تشبيهها بمحمد خانجيتش، من حيث الموهبة والمعرفة وعدد المصنفات المنشورة وجودتها والنشاطات الاجتماعية والسمعة. نقول هذا آخذين في الحسبان آفاق أعماله وتنوع اهتماماته المتبينة في ما نشر له من الكتب والبحوث والرسائل والمقالات والتحليلات والترجمات والوعوظ والمناظرات والدوريات وهو لا يزال على قيد الحياة، ثم كثرة مخطوطاته المكتوبة باللغة العربية والبوسنية التي ينشر بعضها الآن للمرة الأولى. ومما يزيد من قيمة ما ذكرناه أن خانجيتش قد انتقل إلى الرفيق الأعلى وهو ابن ثمانية وثلاثين عاماً.

بالنظر إلى قصر حياته والإشعاع الفكري الذي دام ما يقرب من سبعين سنة منذ مماته عام ١٩٤٤م حتى يومنا هذا يمكننا تشبيه هذه الشخصية البوسنية المسلمة بشهاب كبير؛ وذلك أن خانجيتش قد برز وأشرق إشراقاً قوياً ثم احترق بسرعة وهو يضيء الآفاق الكثيرة، كما يمكن تشبيهها كذلك بالقمر إذ إن عمله لا يزال يضيء في سماء فكرنا الإسلامي.

ما الخصائص والمقومات الدائمة لفكر خانجيتش ونشاطاته الاجتماعية؟

عند المحاولة لوضع إجابة صحيحة عن هذا السؤال نبدأ من الافتراض أن خانجيتش، قبل كل شيء عالم، لأن خانجيتش، بسيرته وأعماله، هو أحد علماء الدين البوسنيين الذين اكتملت لديهم جميع الصفات التي تحملها هذه الكلمة بمعناها الصحيح.


محمد خانجيتش

بعد إنهاء المدرسة الإسلامية الشرعية العليا في سراييفو عام ١٩٢٦م، التحق خانجيتش بأقدم الجامعات الإسلامية - الأزهر الشريف في القاهرة، فأنهى فيها دراسة العلوم الإسلامية عام ١٩٣٠م بدرجة الامتياز، وكان مدرسوه وزملاؤه يخاطبونه احتراماً بلقب الشيخ. ولا أدل على ذلك الاحترام من أن كتابين عليهما تعليقاته نشرا حينذاك في القاهرة تحت رعاية المدرسين المتخرجين في الأزهر، فجاء في مكان بارز من غلاف أحدهما أن خانجيتش خادم السنة النبوية(١)، وفي غلاف الكتاب الآخر أنه العالم الفاضل الأستاذ الشيخ(٢).

وعاد خانجيتش إلى البيوسنة وهو يتمتع بمكانة علمية رفيعة، وكان في الرابعة والعشرين من عمره.

دور علماء الدين في المجتمع

ومع أنه اليوم في مقدور الباحثين أن يكتبوا عن خانجيتش وأعماله المكتوبة المحفوظة، وكذلك عن مجموع نشاطاته الاجتماعية التي يشهد عليها كثيرون، من أمثال الحافظ محمود أفندي تراليتش، إلا

أنه لا يجوز لنا أن نخضع عند تقدير نشاطاته الاجتماعية لمقاييس الحاضر، نقول هذا لمعرفتنا أن محمد خانجيتش كان يشارك الجمعية الإسلامية في مصيرها السيئ في عهد المملكة اليوغسلافية وعهد الدولة الكرواتية المستقلة على حد السواء. إن الفترة التي بين عامي ١٩٣٠ و ١٩٤٤م والتي اشتغل فيها خانجيتش بوصفه شخصية مفكرة بارزة قل ما كانت تعطي من الفرص للتأثير في ذلك المصير فضلاً عن تغييره أو صياغته بشكل مقبول. فيما قبل الحرب العالمية الثانية وفي أثنائها كانت النشاطات الاجتماعية لكبار علماء الدين من البشانقة ناتجة في الغالب من الاضطرار وسوء الأوضاع العامة، لا من الاختيار الحر. إلا أن خانجيتش - حتى بنشاطاته الاجتماعية - قد بقي في تاريخ

الجد والشهامة والسرعة في العمل هي التي مكنت خانجيتش من إنجاز كل هذا الكم من الأعمال الصالحة والقيّمة في حياته القصيرة

البوسنة والهرسك شخصية كبيرة، وذلك لكونه البادئ بنشر البيانات المشهورة ضد جرائم السلطات الكرواتية على الصرب واليهود والغجر والبشانقة وغيرهم من الشعوب المضطهدة في البوسنة والهرسك في أثناء الحكم الكرواتي فيها.

نعود لنؤكد مرة أخرى أن خانجيتش كان ينتمي إلى طبقة علماء الدين، وكانت نشاطاته الاجتماعية تنبع من هذه الصفة، في وقت بدأ فيه علماء الدين يفقدون مكانتهم المستحقة والمكتسبة على مدى القرون ليس في البوسنة والهرسك فحسب، بل في العالم الإسلامي كله.

ومشكلة غياب علماء الدين عن المسرح الاجتماعي يتطرق إليها اليوم الكثير من المؤلفين، ومن بينهم كيت زبيري Kate Zebiri في رسالة الدكتوراه التي كتبتها عن مدير جامعة الأزهر محمود شلتوت (ت: ١٩٦٣م)(٣).

ترى كيت زبيري أن العوامل الاجتماعية التي تسببت في انهيار علماء الدين ودورهم في المجتمعات الإسلامية الحديثة كثيرة، كالاعتقاد الذي فرضه المثقفون الحداثيون بأن علماء الدين عقام، وبلا معارف فعالة، وأنهم منعزلون عن الحياة والمجتمع؛ لأنهم، كما كان متردداً في كل مكان، متأخرون عن الزمان والحداثة.

في تفسير القرآن في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين نشأ الفراغ، ومما قالته كيت زبيري في ذلك: «إن أسباب الفراغ في فكر علماء الدين عديدة ومن أكثرها وضوحاً الاعتقاد السائد بأن من يأتي بأي فكر فعال أصيل لا يحتمل أن يكون إلا من صفوف غير علماء الدين. إن الانخفاض العام لمكانة العلماء المسلمين الذي حدث بصورة خاصة في هذا القرن - باستثناء العلماء الشيعة في إيران - أكيد ولا شك في ذلك، وأما أسبابه فلا تصعب معرفتها. فمنذ أن بدأ محمد علي في مصر بعملية التحديث المؤلمة في أوائل القرن التاسع عشر، مؤسساً المؤسسات الحديثة التي كانت تسعى إلى تخطي المؤسسات الدينية التقليدية قبل سعيها إلى القضاء عليها - وكانت العملية نفسها جارية كذلك في الدول الإسلامية الأخرى - بدأ تأثير العلماء المسلمين يتقلص»(٤).

والحقيقة الأخرى التي لا تقل أهمية عن الأولى، هي - كما قال محمد عرقون - نشوب الصراع في القرنين التاسع عشر والعشرين بين العلمانيين العصرانيين وعلماء الدين من أجل المراقبة على ما يسمى بالثروة الرمزية للإسلام. إن كلا الجانبين يعترفان للإسلام بقيمه الخالدة، لكنهما ينازع بعضهما بعضاً في الصراع من أجل حق الاحتكار على تفسير تلك القيم والمراقبة الاجتماعية عليها.

ومحمد خانجيتش بوصفه عالماً متميزاً كان يعمل أيضاً في الفترة التي بدأ فيها علماء الدين يفقدون مكانتهم والدور الذي أدوه في البوسنة على مدى القرون، إذ لم يعد علماء الدين هم المفسرون الوحيدون للإسلام وإنما تنازعهم فيه دوائر فكرية بوسنية كثيرة هذا الحق، بل اغتصبوه منهم.

لا رهبانية في الإسلام

وفي الثلاثينيات من القرن العشرين بدأت الأوساط البوسنية الفكرية العصرانية في ترديد مقولة: «لا رهبانية في الإسلام»، والمقصود به نفي الحاجة إلى علماء الدين. وممن كتبوا عن ذلك من زاويتهم الطبيب محمد علي متيليفيتش من طوزلا في كتابه «الإسلام على ضوء الحق» (طوزلا، ١٩٣٤م) الذي نشر فيه بحثه في هذا الموضوع.

رداً على مثل هذا الإنكار لدور علماء الدين نشر خانجيتش في مجلة البلاغ (العدد ١٢ للسنة ١٩٣٣م، ص ٢ - ٦) التي كانت تصدرها المشيخة الإسلامية في البوسنة والهرسك رسالة بالعنوان نفسه «لا رهبانية في الإسلام». وتبين اللهجة الحادة التي تغلب في مقالته أنه يريد أن يرد على هؤلاء الذين روجوا لمقولة عدم وجود الرهبان في الإسلام بقصد الإنكار المطلق لدور علماء الدين في المجتمعات الإسلامية. مدافعاً عن ضرورة وجود علماء الدين: «كثيراً ما نسمع مقولة «لا رهبانية في الإسلام» التي ذكرناها في العنوان، يستعملها الناس في محلها وفي غير محلها. فيرى بعضهم أن معناها أن كل إنسان له حق الشروع في شرح المسائل الدينية ووضع الحلول لها، وذلك بزعمهم أن الإسلام لا يقبل الرهبان، وأن جميع المسلمين متساوون في ذلك الحق حتى إن كانوا غير مؤهلين في علوم الدين». (ص٢).

ثم يقول: «صحيح أن الإسلام لا يعرف

الرهبانية التي عند المسيحيين، لكنه غير صحيح أنه لا يقبل وجود علماء الدين وهم المؤهلون وحدهم لشرح المسائل الدينية. إذ لا يجوز لأي واحد أن يغني في الأزقة فضلاً عن أن يشرع في شرح المسائل الدينية، كما يقول المثل». (ص ٢ - ٣).

ثم يمضي خانجيتش في مقالته ليحدد الفارق بين عالم الدين الإسلامي والراهب، فيقول: «إنه يقبل عدم وجود رهبانية في الإسلام، بينما أن وجود علماء الدين فيه لا بد منه، مشيراً إلى أعداء الشيوخ وعلماء الدين». وينهي مقالته قائلاً: «من هذا كله يتبين أن أعداء علماء الدين الذين يأخذون لأنفسهم حق شرح المسائل الدينية المهمة ليسوا على حق وليسوا أهلاً لذلك، وإذا وجهت لهم اللومة قالوا: لا رهبانية في الإسلام. ومع أن كل مهنة تحتاج إلى المعرفة والأهلية يرى الكثيرون أن فهم المسائل الدينية وشرحها يستطيع أن يقوم بها كل إنسان حتى إن كان جاهلاً في علوم الدين الإسلامي». (ص٦).

إن هذه المقالة التي كتبها خانجيتش للدفاع عن علماء الدين والفهم الصحيح لدورهم في المجتمع الإسلامي هي من أحسن المناظرات المكتوبة في البوسنة عن علماء الدين بحيث إنها حتى اليوم - وبعد مضي أكثر من ستين سنة على نشرها - يمكن استعمالها للإجابة عن السؤال: ما دور علماء الدين في المجتمع البوسني المسلم؟

لقد كان خانجيتش يعود إلى هذه المسألة في مناسبات مختلفة. وكان يلاحظ بوضوح نشأة طبقة من المفكرين العلمانيين في البوسنة والهرسك الذين كانوا يأبون منافسة علماء الدين في شرح الإسلام، بل كانوا يرفضون الدين على الإطلاق.

ولقد كتب خانجيتش عن ذلك في مقالته المشهورة: «تجديد الإسلام» التي صدرت قبيل مماته (نشرت في ٢٢ يوليو/تموز عام ١٩٤٤م في مجلة الهداية، السنة ٧، العدد ١١-١٢) يقول: «عندنا في البوسنة والهرسك فئة من الناس ليسوا مسلمين إلا بأسمائهم. إنهم نشؤوا في أسر مسلمة،

انهيار الخلافة الإسلامية هزّ أوساط علماء الدين، والمؤسسات الإسلامية التعليمية والثقافية، مما نتج منه ظهور أفراد عوضوا بعملهم عن فقدان المؤسسات الإسلامية العامة



محمد خانجيتش صغيراً



من مؤلفاته

وأنهوا بعض المدارس أو أنهم لم ينهوها إطلاقا، ثم بدؤوا يتحمسون لثقافة الغرب المعاصرة والحضارة الحديثة والقوانين العلمانية. يقولون: إن الشريعة الإسلامية لا تناسب الظروف الحالية، ولا يمكن بناء الدولة والنظام الصحيح على أسسها، وإن أحكام الإسلام عاجزة عن أن تسعد الناس لذا يجب تركها وتبني كل شيء من الغرب. إذ يجب على كل شعب مسلم أن يختار لنفسه القوانين التي تناسبه وإلا فمصيره الهلاك. ويقول بعض هؤلاء لا بأس أن يتمسك الناس بالدين وأحكامه إذا لم تكن تخالف الحضارة الحديثة. أما الآخرون فيرون ذلك أيضاً مضرا وغير لازم. على كل حال، هؤلاء فئات كثيرة تربط بينها رابطة واحدة وهي عدم المبالاة بالإسلام إن لم نقل: إن بعضهم أعداء صرحاء له. ويرى أن بعضهم قال بجواز الاعتناق والدعوة إلى معتقدات مختلفة حتى إن كانت غير إسلامية، هذا مع أنهم لا يتنازلون بصورة علنية عن أسمائهم».!!

شهادات معاصريه

ومن شهادات معاصري خانجيتش الذين كانوا على معرفة جيدة بأعماله وشخصيته،

ما قاله عبدالله شكاليتش في مجلة الهداية ضمن الخبر عن موت خانجيتش: «فقدت الهداية رئيسها للسنوات الطويلة، ومرشدها الحكيم وداعيها المواظب. توقف محركها الرئيس الذي كان يدفعها ويمهد لها الطريق ويحدد لها الاتجاه الصحيح»(٥).

أما حازم شعبانوفيتش فقد لقب محمد خانجيتش بلقب شمس العلماء في البوسنة ويقول: «استناداً إلى علمه ومعرفته للعلوم الإسلامية يعد خانجيتش من نخبة علماء الدين الإسلامي في البوسنة على مدى القرون الخمسة الماضية»(٦).

أما محمد فوتشاك فيقول عنه: «إن خانجيتش عمله كثير، يفوق ما عملته أجيال كاملة، ولا شك أننا بموته نفقد رجلاً ومجاهداً وعالمًا لا يولد مثله خلال قرون»(٧).

ويقول قاسم دوبراتشا: «اتبع خانجيتش في دراسة العلوم الإسلامية منهج القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، أي كان يدرس جميع مواد العلم الإسلامي كمادة واحدة يتكون الدين الإسلامي من جملة أقسامها. وهذا المنهج نفسه قد اتبعته كذلك المدارس الإسلامية التقليدية من زمن بداية

التعليم الإسلامي، حين كان جميع ما يعد من الإسلام من الأحكام والمبادئ، عقائدية كانت أو اجتماعية أو أخلاقية، يعدّ علمًا واحداً ـ علم الإسلام»(٨).

ويقول إبراهيم تربيناتس في شهادته: «كان خانجيتش أفضل واعظ لنا، فحالما عاد من الأزهر بدأ بنشاطات واسعة يستفيد منها الناس كافة، ينفع البعض بصفته مدرسًا في المدارس الإسلامية والبعض الآخر بصفته واعظاً ممتازاً في المساجد»(٩).

يقول مصطفى بوصولاجيتش، وهو طالب من طلاب خانجيتش في مدرسة الغازي خسروبك الإسلامية: «كان خانجيتش موسوعة حية للعلوم الإسلامية»(١٠).

لم يكن خانجيتش راديكاليًا إسلاميًا متطرفًا، ولا ثائرًا أو متمردًا، بل كان ساعيًا إلى مداواة الأمراض الاجتماعية لدى المسلمين في بلاده بالحكمة والموعظة الحسنة

أما حمديا كرشيفلاكوفيتش فيقول بمناسبة الاحتفال بذكرى مرور ٤٠٠ سنة على إنشاء مسجد الغازي خسروبك في سراييفو: «وفد إلى سراييفو بتلك المناسبة عدد كبير من علماء الدين، والتقى خانجيتش بكل واحد منهم. يبدو لي أنه منذ ذلك الوقت تصادق صداقة خاصة مع المرحوم سالم أفندي مفتيتش. أما الاحتفالات فقد كتب عنها خانجيتش شيئاً باللغة العربية. وأما سالم أفندي فقد كان يعرف عمله باللغة العربية، وكان يمدحه حتى قبل عودة خانجيتش من القاهرة. إنه من المعروف أن سالمًا أفندي كان قليل الكلام، ولكنني أتذكر جيداً أنه، على غير عادته، تكلم مرة ساعة كاملة عن قدراته وإلمامه بمختلف مسائل العلم الديني»(١١).

أما الحافظ محمود تراليتش فيصف عمل خانجيتش في منصب مدير مكتبة الغازي خسروبك، بقوله: «عندما انتقل عام ١٩٣٧م إلى المكتبة شرع في الحال في العمل بكل طاقاته؛ لأنه كان يعرف من ذي قبل ما يجب عمله لتطوير هذه المؤسسة. وقد كان أول همه عمل فهرسة جيدة للكتب الموجودة في المكتبة، فبدأ بالعمل الذي لم يكن أمراً سهلاً وبسيطًا، إذ وجب عليه الاطلاع على كل كتاب ثم وصفه. ولإنجاز هذا العمل كثيراً ما اضطر إلى قراءة كتاب بكامله والرجوع إلى عدد كبير من المعاجم والفهارس كي يجد جميع المعلومات اللازمة عند تسجيل الكتب. وكان خانجيتش يستوعب كل هذا العمل بمهارة بالغة وسرعة، وقد ساعده على ذلك كثيراً معرفته الواسعة بالكتب الإسلامية عامة. وقد وصف على مدى سبعة أعوام لعمله في المكتبة ٣٢٤٠ كتاباً أغلبها بشكل المخطوطة. ودوّن لكل كتاب عنوانه واسم مؤلفه وموجز محتوياته. أما المخطوطات فقد ذكر نوع الخط فيها ومقاس الصفحة واسم الناسخ وزمان ومكان النسخ. أما المخطوطات المكتوبة بخط يد المؤلف فقد ذكر ذلك ذكراً خاصاً. وأما الكتب المطبوعة فقد ذكر مكان وزمان طباعتها. إن أغلبية الورقات (دوّن كل كتاب على ورقة خاصة) جاء فيها ذكر المراجع عن مؤلف الكتاب، مما يسهل العمل عند مطالعة الفهرس واستعماله. ولأغلبية الكتب ذكر الوقف الذي تنتمي إليه؛ وذلك لأن مكتبة الغازي خسروبك مؤلفة من عدد من المكتبات العامة والخاصة في سراييفو، وهذا الأمر يعطي قيمة خاصة لعمل خانجيتش(١٢).

والبحوث الحديثة التي تتناول مختلف نواحي تاريخ البوسنة والهرسك في القرن العشرين تؤكد كذلك تأكيداً واضحاً أن محمد خانجيتش كان عالمًا مشهوراً. فيقول مصطفى إماموفيتش: «إن خانجيتش من أعظم علماء البوسنة على مدى القرون(١٣). أما شاكر فيلاندرا فيقول: «إن خانجيتش قطب روحاني وسياسي للشعب البوسني ولا سيما منذ عام ١٩٣٩م حين عين رئيساً لرابطة الهداية، وحرر ما سمي بالبيان السراييفي عام ١٩٤١م»(١٤).

كان خانجيتش بمجموع أعماله عالمًا مثقفًا ثقافة واسعة، نقول هذا لعلمنا بأن أعماله (وهي أكثر من ٣٥٠ عملاً منشوراً ونحو ١٥ عملاً غير منشور، إضافة إلى عدد كبير من المخطوطات غير المنشورة) تتناول جميع الموضوعات التي كان يتناولها من كان على مستواه من علماء الدين في العالم الإسلامي في القرنين التاسع عشر والعشرين.

كانت الأعمال الكتابية لكبار علماء الدين في هذه الفترة ونشاطاتهم العامة متنوعة؛ لأن أصحابها وجدوا أنفسهم في عالم مصاب بتغيرات عميقة هائجة. كان انهيار الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤م قد هزّ أوساط علماء الدين هزاً عنيفًا حتى بدا لهم من شدته أن العالم القديم يتلاشى من دون رجعة. وأصابت الأزمة بشكل خاص المؤسسات الإسلامية التعليمية والثقافية، مما نتج منه ظهور أفراد عظماء من بين العلماء يعوضون بعملهم عن فقدان المؤسسات الإسلامية العامة وتشتتها.

فرد ومؤسسة

إن محمد خانجيتش بالنسبة إلى البوسنة والهرسك هو رجل من هذا النوع بالذات ـ فرد ومؤسسة، فهو مدرس في المدارس الإسلامية يؤلف الكتب المدرسية، وواعظ في المساجد يكتب ويلقي المحاضرات والوعوظ على امتداد البوسنة والهرسك (ذات مرة ألقى في منطقة بوسانسكا كرايينا ثلاثًا وعشرين محاضرة)، وأديب يكتب مقالات تحليلية من تاريخ الأدب في البوسنة والهرسك، وبوشناق يحب وطنه يكتب البحوث حول انتشار الإسلام في البوسنة والهرسك.. وفوق ذلك كله كان

خانجيتش صحفياً يمارس العمل الصحفي وفقاً لمتطلبات الزمان. صدرت أعماله الأولى التي يتناول فيها قضايا من التاريخ الثقافي عام ١٩٢٨م في مجلة «نوفي بهار»، وبدءاً بعام ١٩٣١م أخذت مقالاته تصدر في مجلة «الحكمة» التي نشر فيها كذلك خلال العام نفسه، وعلى مدى بضعة أعوام لاحقة، كتابه «السنّة». وبظهور مجلة «البلاغ» التي كانت تصدرها المشيخة الإسلامية في البوسنة والهرسك منذ عام ١٩٣٣م نشر فيها خانجيتش أولاً سلسلة من أعماله عن تاريخ أدب البوشناق، تحت عنوان «عمل مسلمي البوسنة والهرسك في مجال الأدب»، وهي أصلاً نسخة جديدة من كتابه «الجوهر الأسنى» الذي نشره باللغة العربية عام ١٩٣٠م في القاهرة، فأجرى فيها تغييرات عميقة بحيث يمكن القول بأنها كتاب جديد، كما نشر في «البلاغ» أعماله باللغة العربية.

منذ تأسيس رابطة علماء الدين «الهداية» عام ١٩٣٦م كان خانجيتش عضواً في هيئة التحرير مجلة «الهداية»، ثم أصبح رئيساً لها عام ١٩٣٩م، كما كان على مدى السنوات الطويلة رئيساً لرابطة الهداية نفسها.

وبانتقاله إلى مكتبة الغازي خسروبك كان خانجيتش يكتب مخطوطاته باللغة العربية، وهو أغنى علماء البوسنة والهرسك في القرن العشرين بعدد المخطوطات باللغة العربية(١٥).

إن القائمة بأعمال محمد خانجيتش التي بحث فيها بحثاً مفصلاً كل من الحافظ محمود تراليتش والبروفسور أسعد دوراكوفيتش (راجع المجلد السادس للمؤلفات المختارة هذه) تؤكد أن خانجيتش كان على وعي تام بما يحيط به من خصائص الزمان والمكان والناس والأشياء والظواهر والقضايا والمشكلات... ولذا فقد كان يكتب بتدفق وبسرعة. يقول حمديا كرشيفلاكوفيتش: «كان خانجيتش سريعاً للغاية في عمله، وهذا ما يمكن ملاحظته في بعض أعماله»(١٦).

ويشير قاسم دوبراتشا كذلك إلى شهامته وسرعته في الكتابة إذ يقول: «إن الجد والشهامة والسرعة في العمل التي اتصف بها خانجيتش هي التي مكنته من إنجاز كل هذا المبلغ من الأعمال الصالحة والقيمة في حياته القصيرة»(١٧).

مصادر فكر خانجيتش وعمله

لنعد الآن إلى مسألة الكتب والمراجع التي استقى منها خانجيتش معارفه، والتي شكلت شخصيته، وجعلته عالماً متميزاً في الحديث والتفسير والفقه وغيرها من علوم الدين.



من مؤلفاته

عمق خانجيتش تعليمه التقليدي للعلوم الإسلامية واستكمله في الأزهر. وكان الحديث والتقاليد الإسلامية عامة تحتل المكانة المركزية في تعليمه واهتماماته، مما يؤكده معاصروه، مثل مصطفى بوصلاجيتش الذي يقول: «في مدرسة الغازي خسروبك الإسلامية كان خانجيتش مدرساً للغة العربية والأدب العربي والعقيدة الإسلامية والفقه وتفسير القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. ومن جملة العلوم كان الحديث أحب علم إليه. إنه كان متفوقاً في جميع العلوم الدينية، لكن تفوقه في الحديث كان الأوضح. أظن أنه ليس من المبالغة إذا قلت: إن خانجيتش أكبر المحدثين المعاصرين من بين المسلمين الذين يعيشون في الجنوب الشرقي للقارة الأوربية على أقل التقدير. وفيما يخص الحديث كان لخانجيتش روح تبصر قوي وذوق تحليلي رقيق لم يكن لأحد منا مثله»(١٨)، بإصدار كتابه «مدخل لعلوم التفسير والحديث» الذي تمّ وهو لا يزال على قيد الحياة (جاءت الطبعة الأولى عام ١٩٣٧م وهي طبعة خاصة لنوفي بهار، ثم جاءت طبعتان له عام ١٩٧١م)، قدم خانجيتش نفسه في مجال العلوم الإسلامية في البوسنة والهرسك عالماً رفيع الشأن في علم التفسير والحديث والفقه.

ولابد عند ذلك من تقديم الاعتراف له لأنه في فترة عمله الفكري المكثف التي دامت ثلاثة عشر عاماً - إن لم نأخذ في الحسبان إلا فترة ما بعد تخرجه في الأزهر- كان في مؤلفاته في مجال التفسير والحديث والفقه المكتوبة باللغة البوسنية يستعمل من العبارات ما اتخذه العلماء في البوسنة والهرسك في الأزمنة اللاحقة مقياساً وأنموذجاً لهم عند الكتابة في العلوم الإسلامية.

ومن المعروف عامة أن إحدى المسائل الأساسية لكل علم مسألة مصطلحاته العلمية، أي وضع جهاز اصطلاحي مناسب له. وخانجيتش بصفته رائداً في مجال إنشاء المصطلحات البوسنية في علم الكلام والتفسير والحديث والفقه جدير بكتابة رسالة دكتوراه قيمة عنه، ذلك أنه بلغته ومنهجه وعمله التأليفي بين جيلين من العلماء في البوسنة والهرسك - القديم الذي كان أبناؤه يستعملون في كتاباتهم ومحاضراتهم اللغة التركية والعربية، والجديد الذي يتقن أبناؤه المصادر الإسلامية التقليدية، لكنهم ينتقلون في محاضراتهم إلى اللغة البوسنية. كان مئات من خريجي مدرسة الغازي خسروبك الإسلامية منذ ثلاثينيات القرن العشرين يتعلمون مصطلحاتهم الأولى في علوم الحديث والتفسير والفقه كما استعملها محمد خانجيتش في مؤلفاته المكتوبة باللغة

البوسنية. ويقول عن ذلك مصطفى بوصولاجيتش: «قبل وصوله إلى مدرسة الغازي خسرويك كانت دراسة علوم الحديث والتفسير تجري باللغة العربية، وكان خانجيتش أول من بدأ بتدريس هذه المادة باللغة البوسنية بحيث إننا أخذنا من الدروس خلال سنة واحدة ما كانت توازي ما تدرسه الأجيال السابقة خلال بضع سنوات، وكانت الدراسة دقيقة ومفصلة»(١٩).

من الكتب التي استقى منها خانجيتش للتعمق في علوم الحديث مؤلفات أبي محمد الرامهرمزي، وأبي عبدالله الحاكم وأبي نعيم والخطيب البغدادي وتقي الدين أبي عمرو بن صلاح ثم العراقي والسيوطي والنووي.. هذا بالنسبة إلى مراجعه في علم الحديث. وأما بالنسبة إلى مجموعات الحديث النبوي الشريف فقد كان يستعمل كل أنواعها استعمالاً مكثفًا - المسند والصحيح والسنن والجامع.

وكثيراً ما كان يرجع خانجيتش إلى كتب الحديث لكل من أحمد بن حنبل وأبي حنيفة والشافعي ومالك، وكذلك إلى الكتب الستة للبخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، كما يدرس ويستعمل ويستدل بما ورد في كتب البيهقي والدارقطني والطبراني وإلخ.. وقد سبق لنا ذكر إخراجه لكتاب من كتب البيهقي محققًا ومخرجًا أحاديثه.

كانت المجالات المحببة لخانجيتش بصورة خاصة في علوم الحديث النقد وتراجم المحدثين ومسألة تواتر الأحاديث وغيرها. وكثيراً ما كان خانجيتش يحذر من قلة التواتر في الكتب الدينية المكتوبة باللغة العربية والتركية التي كانت متداولة في البوسنة والهرسك في وقته بشكل مجموعات وعوظ أو حكايات أو غيرها. في رسالته القيمة التي كتبها باللغة العربية تحت عنوان «نقد بعض الكتب الدينية وبيان عدم جواز الاعتماد عليها»، والتي نشرت بشكل متسلسل في مجلة «البلاغ» عام ١٩٣٤م شرح خانجيتش بصورة واضحة المقاييس التي يجب مراعاتها عند اختيار المراجع. ورسالته هذه منشورة في كتاب أعماله المختارة بترجمتنا، فنلفت أنظار القراء إلى ما له من قيمة علمية.

إن مؤلفات خانجيتش في علوم التفسير كثيرة ومتنوعة؛ فهو يراجع باستمرار مؤلفات الطبري وابن كثير والسيوطي، وكان تقديره لهذه المؤلفات عظيمًا؛ ولابد من ذكر تقديره لرواية التفسير ذات الطابع الشرعي. وكثيراً ما كان يورد في مؤلفاته عبارة «أحكام القرآن»، وهي متصلة



من مؤلفاته

بالمؤلفات التي تتناول أحكام القرآن الشرعية بصورة عامة فتسمى في الغالب، طبقًا لهذه العبارة، بتفاسير القرآن الشرعية.

إشارة إلى المصادر التي راجعناها نجد أن أحب المؤلفين إليه في مجال ما يسمى بأحكام القرآن هو أبو بكر الرازي الملقب بالجصاص وأبو بكر بن العربي، كما راجع خانجيتش كذلك كثيراً تفسير القرآن للقرطبي «الجامع لأحكام القرآن». فنجده ينقل سطوراً كثيرة من تفسير القرطبي. ويقول خانجيتش عنه: «بدلاً من الحكايات والأقوال الفارغة إنه أدخل في تفسيره البحوث عن الأحكام الشرعية وطريقة استخراجها من القرآن الكريم، وإضافة إلى ذلك جاء بذكر القراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ. (راجع الكتاب «مدخل في علوم التفسير والحديث، ص٥٥»).

كثيراً ما كان يذكر كذلك الزمخشري وتفسيره «الكشاف» مشيراً إلى قيمته، ومنبهًا على عقائد المعتزلة فيه. ويقول في الصفحة ٥٢ من كتابه «مدخل في علوم التفسير والحديث» وهو لا يخفي قيمة هذا التفسير:

«يدخل التفسير المسمى بالكشاف في الصفوف الأولى للتفاسير التي تتناول الروائع الإبداعية للقرآن، وعيبه الوحيد أن المؤلف أدخل فيه الكثير من آراء المعتزلة الشاذة».

وتأثر خانجيتش تأثراً أكثر بجلال الدين السيوطي وكتابه «الإتقان في علوم القرآن»، فكان يقدر تقديراً بالغًا، وكان يصفه بأنه عالم موسوعي في التفسير والحديث، وفي رسالته «تجديد الإسلام» (مجلة الهداية، السنة ٧، العدد ١١ - ١٢ من ٢٩ يونيو/ حزيران ١٩٤٤م، ص ٣٣٥ - ٣٣٦) يذكره على أنه مجدد محتمل للإسلام في القرن التاسع الهجري.

كما كان تفسير القرآن للبيضاوي «أنوار التنزيل» من الكتب التي استخدمها خانجيتش في دروسه استخدامًا مكثفًا، فقد كان يستعمله، بجانب المؤلفات الأخرى، في دروسه الخاصة بالمثقفين التي كان يعقدها لعائلات تلاميذه وأصدقائه. يقول فيض الله حجيباريتش مشيراً إلى نشاطات خانجيتش المذكورة التي تتبين من خلالها معرفته للعلوم التقليدية: «ابتداءً من ديسمبر/كانون الثاني ١٩٣٨م حتى يوليو/تموز ١٩٤٤م كان الحاج محمد أفندي خانجيتش - الأستاذ في المدرسة الإسلامية الشرعية العليا ورئيس رابطة الهداية - يعقد دروسه ويقوم بشرح كل من «مقامات الحريري»، وهو كتاب عربي مشهور في اللغة والأدب لأبي محمد قاسم الحريري، ثم قصيدة «البردة» لشرف الدين البوصيري في مدح سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، و«المعراجية» للعالم

البوسني ثابت أوجيتشانين، و«الطريقة المحمدية»، وهو كتاب في الأخلاق للعالم الكبير الإمام البركوي، والتفسير للقاضي البيضاوي»(٢٠).

ويتبين من استدلالاته بالأسماء الكثيرة للمؤلفين أن خانجيتش راجع كذلك تفاسير كل من ابن عطية والنسفي وأبي حيان وأبي السعود والشوكاني والآلوسي. كما يظهر في صفحات عدد من بحوثه أنه كان يقدر محمد عبده ورشيد رضا وتفسير القرآن لهما «المنار». فعندما سمع خانجيتش عن موت رشيد رضا أبّنه بمقالة (راجع مجلة «نوفي بهار» السنة ٩، العدد ٧ ـ ٨، ص ١١٥ ـ ١٥٦).

توضح محتويات مخطوطة «دروس من أصول الفقه» لخانجيتش أنه أبدى اهتماماً كبيراً بفلسفة الفقه الإسلامي. وبهذا المعنى عالج كتاب «الأشباه والنظائر» لزين العابدين بن إبراهيم بن نجيم.

وكان خانجيتش يعقد دروسه من فلسفة الفقه الإسلامي اعتماداً على المذاهب الأربعة كلها.

إن خانجيتش بهذا الخصوص، مع الأخذ في الحسبان اختلاف السياق التاريخي، هو متمم لحسان كافي بروشجاك الذي كان خانجيتش بالذات أول من قام بترجمة كتابه «روضات الجنات» من العربية إلى البوسنية. وكان حسان كافي بروشجاك ملهماً لمحمد خانجيتش كذلك عند تأليف مصنفاته القيمة والكتب المدرسية في العقيدة الإسلامية. وكتاب خانجيتش «علم الكلام» ـ وهو كتاب مدرسي لمادة علم الدين الإسلامي للصف الثامن في المدارس الثانوية (سراييفو، ١٩٣٤م) يتكون من ثمانين صفحة ـ لا يزال حتى اليوم له أهمية بالغة. وفي مجال العقيدة الإسلامية له بحث بعنوان «النظرة العامة إلى نشأة الطوائف في الإسلام» (مجلة نوفي بهار، السنة ١٠، العدد ١ ـ ٣، ص ١٤ ـ ١٨) ويمكن النظر إليه على أنه تتمة لكتاب «علم الكلام».

نشاطات خانجيتش الاجتماعية

إن الفترة التي بين الحربين العالميتين والتي تحول فيها خانجيتش إلى أكبر شخصية عالمة مفكرة في البوسنة والهرسك هي فترة تختص بكلمة «بين» فالمسرح الأوربي السياسي والاجتماعي في فجوة بين الفاشية والشيوعية. والبوسنة والهرسك في فجوة بين الصربية والكرواتية، والمشيخة الإسلامية ومؤسساتها في فجوة بين التقاليد المعروفة لكنها عقيمة ومقتضيات الزمان الجديدة المجهولة.

ولم يكن خانجيتش راديكاليًا إسلاميًا متطرفًا، ولا ثائراً أو متمرداً. وإنما كان يدعو إلى الدين بالحكمة والموعظة والمقالة المؤدبة والكلمة الطيبة. كان يسعى بعمله إلى «مداواة الأمراض الاجتماعية لدى المسلمين في بلاده». كان الحافظ إبراهيم تربيناتس وقاسم دوبراتشا يكتبان الكتب حول «الأمراض الاجتماعية لمسلمي هذه البلاد»، كتب الأول وخانجيتش لا يزال على قيد الحياة، وأما الثاني فبعد مماته لكنه على كل حال متأثر بخانجيتش، وكان كتاب تربيناتس تحت عنوان «بضعة أمراض اجتماعية خطيرة لدينا»، وكتاب دوبراتشا بعنوان «أترك الشر».(٢١) كانت وعوظ خانجيتش كلها بلا استثناء، والجزء الغالب من رسائله وبحوثه كذلك، موجهة باتجاه إيقاظ المسلمين بهذه الطريقة.

وإضافة إلى ذلك فقد كان خانجيتش لا يشغل باله في أعماله بمواجهة الإسلام مع المذاهب الأوربية الفلسفية، ولا بالبحث عن الإسلام خارج الإسلام.

ولهذا السبب نقول: إن خانجيتش كان مقلداً معتدلاً في تقليديته، وإنه لم يكن ساعياً إلى موازنة الإسلام بالمذاهب الغربية الحديثة. (ذات مرة أعطى حمدي كرشيفلاكوفيتش لخانجيتش كتاباً مدرسياً لمادة التربية يتناول المناهج الحديثة في الدراسة، فأعاد له خانجيتش الكتاب بعد يومين أو ثلاثة وهو يقول: إن علم التربية ليس بعلم) وفقًا لذلك كان خانجيتش يعتقد أن المسلمين مصابون بالشهوات والأمراض الاجتماعية؛ لأنهم أهملوا الإسلام، وأن الحل بسيط كل البساطة ـ عودتهم إلى الإسلام.

بالتمعن في كلية نصوصه كان خانجيتش مقلداً معتدلاً وذلك بمعنى أنه كان يقبل تجديد الإسلام، ولكن بشرط فهم كلمة الإسلام كشهادة الإيمان للمسلمين في أماكن وأزمنة محددة. ماذا يقصد خانجيتش بعبارة تجديد الإسلام بالضبط؟ من الأفضل أن نتركه يجيبنا بنفسه: «إن التجديد في الإسلام خلافاً للأديان الأخرى وذلك حسب رأي جميع المسلمين المخلصين، لا يجوز أن

اعتقد خانجيتش أن المسلمين مصابون بالشهوات والأمراض الاجتماعية لأنهم أهملوا الإسلام، وأن الحل هو العودة إليه

يتم بالإكمال والتغيير لأن الإسلام كامل بنفسه، ولا يمكن التجديد إلا عن طريق العودة إلى أصالة الدين الإسلامي بإزالة كل ما تعلق به من الضلالات والفهم الخاطئ»(٢٢).

كنا استنتجنا من هذا المقتبس أن خانجيتش مقلد صارم لو لم نأخذ في الحسبان أنه كان ناقداً صارماً للمقلدين. فحين يمدح خانجيتش حركة الوهابيين، على سبيل المثال، يشير إلى الفوائد الكثيرة من نشاطاتهم(٢٣). والدليل على أنه ليس مقلداً صارماً تقديره الكبير، الذي عبر عنه مراراً، للطرق الصوفية التي لها فضل كبير في نشر الإسلام ولا سيما في الأماكن البعيدة عن المدن(٢٤).

عندما نقول: إن خانجيتش كان مقلداً معتدلاً فلا نقول: إنه صرح بتقليديته هذه وعبر عنها بصورة هندسية دقيقة، وإنما نقصد بذلك أن الاعتدال حالة غالبة في موقفه من التقليدية الإسلامية.

وهكذا نجد في نصوصه الكثير من الأفكار التنويرية والإصلاحية، كما نجد فيها كذلك الموضوعات المحببة للمنورين مثل عدم جواز الاستعانة والاستغاثة بالموتى وزيارة القبور والمعابد لهذا الغرض ونقد عادة بناء النصب على المقابر وإلخ.... ورأينا كذلك أنه ضد ذكر الأساطير والإسرائيليات في الخطب وضد الميل إلى الأساطير بصورة عامة.

يقول خانجيتش في مقالته الافتتاحية لمجلة الهداية، السنة ٧ من ١سبتمبر/أيلول ١٩٤٣م: «إننا ندين الجهالة والرجعية، ونطلب من المسلمين أن يكونوا من أولي الألباب. فمما أفادت به التقارير في الاجتماع السنوي لرابطة الهداية لهذه السنة أن بعض الرجعيين قاموا بطباعة منشوراتهم الباطلة والمبنية على أحلام بعض العلماء المزعومين، أو بالأحرى على الخرافات التي لا يقبلها الإسلام ولا العقل السليم. مثل هذه الحماقات يدينها كل مسلم وكل إنسان عاقل».

وبينما نجد خانجيتش في هذا المقتبس منوراً مسلماً يجاهد ضد الرجعية والاعتماد على الأحلام و«كرامات» شخصيات مريبة نجده في المقتبس نفسه مصلحاً ينتقد التعفن والفساد في المجتمع، إذ يقول: «ومثلما تضرنا جاهلية ورجعية بعض الأفراد من جانب، يضرنا فساد بعضهم الآخرين من جانب آخر. ففي أيام الهلاك الشامل للمسلمين في البوسنة والهرسك هناك عدد كبير من المفسدين الذين يحسبون أنه قد حان وقت المتاع الأكبر لهم. المقاهي والملاهي تكتظ بالزبائن الذين يدنسون بأفعالهم الرذيلة صيت الجماعة كلها، ويجعلونها في أعين الأجانب جمع الهالكين الذين لا يشعرون بآلام إخوانهم».

ومثل هذه الاقتباسات المفردة التي يمكن بها وصف خانجيتش منوراً أو مصلحاً وناقداً للمجتمع كثيرة، وبإمكاننا سرد مزيد منها، لكنه إذا قيست أعماله بمجموعها فمن الأفضل وصفه مقلداً معتدلاً.

كان خانجيتش يدافع بعزم عن مواقفه في مسائل الشريعة الإسلامية حتى حين فعل ذلك بالمناقشة مع كبار ممثلي المشيخة الإسلامية. وله مناقشة من هذا القبيل مع مفتي البوسنة فهيم أفندي سباهو.

كان المفتي قد دعا في مقالة له بعنوان «شرح المسائل الشرعية لدينا» (مجلة ناردنا أوزدانيتسا - تقويمها لعام ١٩٣٩م، ص٢١ - ٢٥) إلى شرح جديد للشريعة الإسلامية في المسائل التي لها طابع ديني محض، مثل الزواج المشترك والربا والتقاويم، قائلا: إنه يجب أن يتم ذلك وفقاً لتطور الحياة والعلوم الحديثة. ومما قال كذلك: إن الأحكام العامة لا يجوز مسها، وأما التفاصيل فلابد من تغييرها، ثم انتقد بعد ذلك مواقف محمد خانجيتش من بعض المسائل الراهنة.



من مؤلفاته

فرد خانجيتش على ذلك بمنشورة له كتبها تحت العنوان نفسه، فقال منطلقاً من منهج العلم الإسلامي التقليدي الذي كان يعرفه معرفة جيدة، إن كل مسألة في الإسلام هي مسألة دينية سواء كانت متصلة بالإيمان أو العبادات أو المعاملات. ورفض إمكان تغيير محتويات الأحكام الشرعية عن طريق الشرح مستدلا على ذلك بالتعريف السائد لعبارة «شرح الحقوق». وقال أيضاً: إنه لا يجوز أي اجتهاد في الأمور التي أمر بها أو نهى عنها القرآن والسنة، كما رفض كذلك، مستدلاً بأحكام الفقه الإسلامي، القول بأن الأحكام التفصيلية تقل أهمية من الناحية الدينية عن الأحكام العامة، ومن ثم فإنها غير قابلة للتغيير. إضافة إلى ذلك دعا خانجيتش في هذه المنشورة وغيرها من منشوراته إلى منع أنواع الربا كافة ووضع الأموال في البنوك، وأشار إلى أهمية الملابس الخاصة للمسلمين على أنها معلم ظاهري للدين الإسلامي(٢٥).

وكان خانجيتش يسعى إلى جمع كلمة المسلمين وعدم التشتت، إذ يقول: «كان محمد صلى الله عليه وسلم لا يكف عن المذنبين مهما كبرت ذنوبهم، بل يقول في حديث له: شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» (مطبوعة تحت عنوان «الوعوظ»، سرايفو ١٩٤٣م).

تيسير لا تعسير

ثم نجده يسعى كذلك إلى تيسير الأمور لا إلى تعسيرها، إذ يقول: «كان محمد عليه الصلاة والسلام، وهو يسعى إلى تيسير الأمور على أصحابه، يأمرهم بأداء نوافل العبادات ما تيسر لهم منها. وقال عليه الصلاة والسلام: إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق».

يشير خانجيتش، ضمن قوله عن صيانة المسجد (الوعوظ، ص٨٢ - ٨٣)، إلى أن المساجد هي مرآة المسلمين، إلا أنه بوصفه رجلاً يعرف الظروف التي يعيش فيها، ويسعى إلى الجمع وعدم التشتت يشير إلى أن المساجد في البوسنة والهرسك تعد حقيقة ثقافية تؤدي جزءاً من وظيفتها حتى بهذه الطريقة، فيقول: «إذا كانت صيانة المساجد لا تتم للأغراض الدينية فيجب صيانتها كشهادات لماضينا الثقافي كي تكون دليلاً واضحاً لغيرة أجدادنا وعملهم للصالح العام».

ولغرض جذب قلوب المستمعين كثيراً ما كان خانجيتش يحكي ضمن وعوظه بعض النكت والفكاهات الخفيفة. وهكذا مثلاً حكي قصة جحا واللص (الوعوظ، ص١٣١ - ١٣٢).

كان خانجيتش في كل وعوظه - حتى في تلك التي تتناول البيع وإدارة الأعمال، يلتفت إلى أوضاع المسلمين في البوسنة والهرسك. فمشيرا في أحد وعوظه (الوعوظ، ص١٥٧ وما بعدها) إلى ضرورة البيع وغيره من الحرف والصناعات فيضرب خانجيتش مثلاً

الخليفة عمر بن الخطاب الذي كان يعتني بتطوير البيع بين المسلمين: «كان عمر بن الخطاب يعدّ البيع أساسا لقوة الدولة، وعنصراً أساسيًا لقدرات الأمة واستقلاليتها. إنه قد تحقق اليوم بالكامل ما كان يخافه سيدنا عمر إذ إن المسلمين في معظم بلادهم صاروا متعلقين بالأجانب في كل شيء، من الإبرة والخيط إلى أغلى وأهم المنتجات والأمور، ولذا فلا عجب أنهم مضطرون الآن إلى التبعية والخضوع لهم».

وكان خانجيتش كذلك لا يستحيي من أن يلتفت في وعوظه إلى الكساد والفساد في اقتصاد المسلمين فيقول (الوعوظ، ص١٥٩) وهو يحرض على تطوير الحرف والصناعات: «إنه لخطأ كبير أن مسلمي البوسنة والهرسك، في الوقت الذي كانت أملاكهم وأراضيهم في أيديهم، كانوا لا يسعون إلى أن يتعلم كل فرد من أفرادهم حرفة ويتأهل في مهنة من المهن ويشتغل بها. إن القول بأن فلان ابن فلان لا يحتاج إلى مهنة ولا شغل لأنه ابن بك أو آغا والذي كان متداولاً على ألسن الناس آنذاك لذنب كبير وعيب يهين كل مسلم عاقل، فهناك عدد كبير من أبناء البكوات والآغوات اضطروا اليوم إلى السؤال من الناس لحماقة آبائهم».

وكان خانجيتش يميل إلى جذب الأمثال لتقريب أفكاره إلى أذهان من يقوله إليهم برسالته.

طريق وحيد

لم يكن خانجيتش مواجهًا بمشكلة الاشتراكية والشيوعية مثلما كان مواجهاً بها حسين جوزو إذ إنه عاش في الوقت الذي كانت فيه الاشتراكية والشيوعية مذهبين بعيدين عن البوسنة، أو إنهما على الأقل كانت تبدو هكذا والوقت الذي لم يكن يحسب لهما فيه حساب جدي في أوساط علماء الدين. فبدلاً من إجراء المناقشة والحوار مع المذاهب العالمية مما كان واجب المصلحين من علماء الإسلام من أمثال حسين جوزو كان المقلدون المعتدلون من أمثال محمد خانجيتش يقتصرون على القيم الداخلية للإسلام، ويعملون على النهضة الأخلاقية في المجتمع. وكثيراً كان خانجيتش يشير إلى هذه المهمة مثلما قال في إحدى مقالاته الافتتاحية لمجلة الهداية: «إن رابطة الهداية بعيدة عن السياسة فهي تعمل فقط لصالح المسلمين ساعية إلى تصحيح ما يحول دون تقدمهم وتطورهم الحر. إن إدخال الهداية في السياسة ووصف عملها بصفات السياسة لأمر خطير، ولذا فيخطئ كثيراً أولئك الذين يقدمون أنفسهم للناس بهذا الشكل، ويظنون أنهم يكسبون من ذلك لأنفسهم رأسمالاً سياسياً. ولابد من تحديد اتجاه الهداية ودفع الأكاذيب الباطلة عنها»(٢٦).

في أثناء الحرب العالمية الثانية

كان خانجيتش مقلداً معتدلاً، ولم يكن يوازن الإسلام بالمذاهب الغربية الحديثة

والأوضاع سيئة في البوسنة والهرسك يشجع خانجيتش الرابطة التي يرأسها فيقول: «إننا ندين الخوف وضعف القلب، ولن نسمح للمصائب مهما كانت شديدة أن تجعلنا جبناء وضعفاء القلب فنتخذ خطوات قد تؤدي بنا إلى وضع أسوأ، وتساعد أعداءنا. نحن نحب وطننا ولا نتركه حتى عند المصائب. أجدادنا بنوا هذه المآذن الجميلة في أنحاء بلادنا لينتشر منها تسبيح الله عز وجل وتعظيمه إلى يوم القيامة. وإن دمر العدو الوحشي مسجداً من مساجد فأبناؤنا الأفاضل قادرون على تجديده، إذ إنه إذا كان الشكل أو الهيكل مدمراً فلا يزال الروح حيًا ونشيطاً، وهو الذي تتدفق منه القوة. ولذا ننصح المسلمين ألاّ يبدوا في حبهم لوطنهم ودينهم أي ضعف أو خوف»(٢٧).

وكان خانجيتش، وهو يتبع قول العلماء المقلدين «عظ نفسك ثم الناس»، لا ينتابه الضعف ولا الخوف. فعند البلايا الشديدة والمختلفة التي أصابت المسلمين في البوسنة والهرسك في أثناء الحرب العالمية الثانية بقي في بلده ولم يتركه لحظة. إنه منذ عام ١٩٣٩م كان على رأس رابطة علماء الدين «الهداية» وكان المبادئ الأول والمؤلف الرئيس لبيان الرابطة المشهور ضد جرائم الكروات الفاشيين الذي أصدره مجلس الرابطة في اجتماعه المنعقد يوم ١٤ أغسطس/آب من عام ١٩٤١م. وبهذا الشكل بدأ ما يسمى بالبيان السراييفي ١٢ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٤١م، وما والاها من البيانات نفسها في كل من موستار ٢١ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٤١م، وتوزلا ١١ديسمبر/كانون الأول ١٩٤١م، وبيلينا ٢ديسمبر/كانون الأول ١٩٤١م، وبريدور ٢٣ سبتمبر/أيلول ١٩٤١م.

إن علماء الدين في البوسنة والهرسك يقدرون ما عمله خانجيتش في أثناء الحرب العالمية الثانية. وهذا الأمر أكسب له شرفًا ومكانة عالية بين الناس مما أدى إلى أن تولى هو نفسه قيادة ما يسمى بلجنة الخلاص القومي التي أسست في ٢٦ أغسطس/آب عام ١٩٤٢م. وكانت هذه المؤسسة تضم جميع ما كان للمسلمين البوسنيين آنئذ من المنظمات والجمعيات والرابطات، وهدفها إنقاذ القيم المادية والروحية للمسلمين، وتأمين بقائهم في هذه الأنحاء في ظروف الحرب الشرسة والمصائب الشديدة. وكانت تعمل اللجنة كذلك على التغلب على الخلافات بين المنظمات والجمعيات المسلمة. وحسبما يفيد الحافظ محمود أفندي تراليتش الذي شارك في تلك الوقائع كان عمل هذه اللجنة يتصف بثلاث خصائص هي:

- كانت اللجنة هي التي عرفت العالم الإسلامي بأوضاع المسلمين في البوسنة والهرسك.
- كانت اللجنة تدعم ماديًا وبالأسلحة المسلمين الذين كانوا يدافعون عن منازلهم.
- كانت نشاطات اللجنة وجهًا منظمًا وحيدًا لتدبير أمور المسلمين في البوسنة

والهرسك حينذاك، مما جعل لها أهمية بالغة بالنسبة إلى أوضاعهم النفسية والسياسية(٢٨).

كان خانجيتش يمارس نشاطاته الاجتماعية ممثلاً لعلماء الدين، وكان يعبر عن احتياجات المسلمين والدين الإسلامي في ذلك الوقت. وكان عمله على وضع الدستور الجديد للمشيخة الإسلامية بهدف توفير مكانة أفضل لمؤسسة الأوقاف والمدارس الإسلامية وغيرها من المؤسسات الإسلامية في البوسنة والهرسك، لاعتقاده أن إعادة تنظيم الطائفة الإسلامية من الناحية الدستورية والإدارية ستؤدي إلى تحسين وضعه المسلمين والدين في البوسنة والهرسك آنذاك.

بهذا المعنى كان يحذر مستمعيه ويأمرهم بأهمية الحفاظ على كرامتهم والدفاع عن شرفهم، إذ يقول في أحد وعوظه، وهو يحذر فيه من سوء استعمال المسلمين في الانتخابات آنئذ، وهو أمر يحتمل وقوعه لكون الناس فقراء:الرزق على الله وحده. جاء هذا التحذير ضمن قوله عن الجهاد والشجاعة وهو كما يلي: «كان أبطالنا القدامى يقاتلون وهم يغنون: «لا موت بلا أجل»، ولو كنا نحن نؤمن بالأجل والقدر في الرزق مثلهم لما كان بعضنا، وهم يخافون على رزقهم، يعطون أصواتهم لغير من تحبه قلوبهم إن كانت لهم قلوب، ولما سمع من المسلم قول مثل: أعطي صوتي لمن يطعمني».

يقول الحافظ محمود تراليتش وهو يصف سلوكه: إنني لم أر قط الحاج محمد أفندي خانجيتش إلا بالجبة أو المعطف الطويل. عمامته الملفوفة بعناية ودقة بالغتين كانت دائماً نظيفة ولامعة، وقد كان يلبسها بطريقة خاصة تفيد الشرف والاحترام.

كان محمد أفندي خانجيتش يحترم تيارات خاصة للإسلام في البوسنة والهرسك، وقد نشر عام ١٩٣٤م في مجلة البلاغ التي تصدرها المشيخة الإسلامية في البوسنة والهرسك (السنة ٢، العدد ٤، ص٢٠٤/١٩٧) مقالة بعنوان «مسألة التكايا في يوغسلافيا» وقف فيها موقف الاعتدال منها، كما أن له أعمالاً كثيرة عن الصوفيين وشعرائهم ومفكريهم. ويذكر في أعماله الدور الإيجابي للسنوسية في شمال إفريقية، وغيرهم ممن أدوا دوراً مثل دورهم.

المراجع والهوامش

١. هو كتاب «حياة الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين» لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، القاهرة ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م.
٢. هو كتاب «الكلم الطيب من أذكار النبي صلى الله عليه وسلم»، القاهرة ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م.
٣. كيت زبيري Kate Zebiri، بحثها بعنوان «محمود شلتوت والعصرانية الإسلامية» نشر في المجلد الثاني من كتاب «القرآن في العصر الحديث»، أعده أنس كاريتش، سراييفو ١٩٩٧م، ص٣٣٩.
٤. المصدر السابق، ص٣٣٩.
٥. عبدالله شكاليتش، في مقالته تحت عنوان «حداد الهداية»، مجلة الهداية، العدد ٢ - ٣، سرايبفو ١٩ سبتمبر ١٩٤٤م، ص٤١.
٦. حازم شعبانوفيتش في مقالته «شمس العلماء الحاج محمد أفندي خانجيتش»، مجلة الهداية، العدد ٢ - ٣، سرايبفو في ١٩/٩/١٩٤٤م، ص ٤٢ - ٤٣ ويقول شعبانوفيتش أيضاً: أظن أنه ليس من المبالغة إذا قلت: إن في العالم الإسلامي كله يقلّ اليوم عدد علماء الدين الذين يمكن تشبيههم بالحاج محمد أفندي خانجيتش».
٧. محمد فوتشاك في مقالته «حياة الحاج محمد أفندي خانجيتش طالباً في الثانوية وفي الجامعة»، مجلة الهداية، العدد ٢ - ٣، من ١٩/٩/١٩٤٤م، ص٥٣.
٨. قاسم دوبراتشا، في مقالته «خانجيتش كعالم الدين»، مجلة الهداية ٢ - ٣، سرايبفو في ١٩ سبتمبر ١٩٤٤م، ص ٥٣ - ٥٨.
٩. إبراهيم تربيناتس، في مقالته «أفضل واعظ لنا»، مجلة الهداية، العدد ٢ - ٣، سرايبفو في ١٩ سبتمبر ١٩٤٤م، ص ٥٨ - ٦١.
١٠. مصطفى بوصلاجيتش في مقالته، «خانجيتش كالمدرس» مجلة الهداية، العدد ٢ - ٣، سرايبفو في ١٩ سبتمبر ١٩٤٤م، ص ٦٦.
١١. حمديا كرشيفلاكوفيتش، في مقالته «صداقتنا»، مجلة الهداية، العدد ٢ - ٣، سرايبفو في ١٩ سبتمبر ١٩٤٤م، ص ٦٩.
١٢. الحافظ محمود تراليتش، في مقالته «مكتبة الغازي خسروبك بإدارة الحاج محمد أفندي خانجيتش»، مجلة الهداية، العدد ٢ - ٣، سرايبفو في ١٩ سبتمبر ١٩٤٤م، ص ٩٢.
١٣. مصطفى إماموفيتش، البشانقة اللاجئون، سرايبفو ١٩٩٦م، ص١٤٩.
١٤. شاكرفيلاندرا، سياسة البشانقة في القرن العشرين، سرايبفو ١٩٩٨م، ص١٦١.
١٥. انظر مقالة عثمان لافيتش بعنوان «مخطوطات محمد خانجيتش في مكتبة الغازي خسروبك، حوليات مكتبة الغازي خسروبك، العدد ١٣/١٤، سرايبفو ١٩٨٧م.
١٦. حمديا كرشيفلاكوفيتش، المصدر السابق، ص٧٠.
١٧. قاسم دوبراتشا، في مقالته «عمل خانجيتش في رابطة الهداية ونشاطاته الاجتماعية العامة»، مجلة الهداية، العدد ٢-٣، ١٩/٩/١٩٤٤م، ص٨٧.
١٨. مصطفى بوصلاجيتش، المصدر السابق، ص ٦٣ - ٦٤.
١٩. المصدر السابق، ص٦٤.
٢٠. فيض الله حجيبايريتش، مقالته بعنوان «الحاج محمد أفندي خانجيتش ونشر الثقافة الإسلامية عندنا»، مجلة الهداية، ٢-٣ من ١٩ سبتمبر ١٩٤٤م، ص٩٠.
٢١. راجع كتاب الحافظ محمود تراليتش «البشانقة البارزون»، سرايبفو ١٩٩٨م.
٢٢. محمد خانجيتش، تجديد الإسلام، المصدر السابق، ص ٣٢٩ - ٣٣٠.
٢٣. المصدر السابق، ص٣٣٨.
٢٤. المصدر السابق، ص٣٣٨.
٢٥. د. فكرت كارتشيتش، في كتابه «الناحية الاجتماعية الشرعية لحركة الإصلاح الإسلامية»، سرايبفو، ١٩٩٠م، ص٢٢٢ - ٢٢٣.
٢٦. مقالة افتتاحية لمحمد خانجيتش بعنوان «على مشارف رمضان»، مجلة الهداية، السنة ٤ في أكتوبر ١٩٤٠م، العدد ٢، ص٣٤.
٢٧. محمد خانجيتش، في مقالته بعنوان «في بداية السنة الرابعة للهداية، مجلة الهداية، العدد ١ - ٢، من ١سبتمبر ١٩٤٣م، ص٢.
٢٨. شاكر فيلاندرا، المصدر السابق، ص١٦٨. إن نشاطات خانجيتش الاجتماعية والبيانات التي بادأها ثم تعيينه على رأس لجنة الخلاص القومي وإلخ... إن هذا كله أحسن إشارة إلى موقفه مما سمي بالدولة الكرواتية المستقلة؛ إذ إن ميله إلى الكرواتية لم يكن ميلاً بنفسه ولا لنفسه، وإنما كان ميلاً مضادا لليوغسلافية، مثله في ذلك كمثل غالبية المثقفين المسلمين البوسنيين حينئذ. نعتقد أنه بهذا المعنى يجب فهم مقالته الافتتاحية لمجلة الهداية من ١٤ يوليو ١٩٤١م (العدد ٩ - ١١) والتي قال فيها: «أراد الله عز وجل أن يهب لنا كنعمة منه في هذه الظروف الصعبة دولة كرواتيا المستقلة. هو الذي أراد أن تكون تلك الدولة الجديدة والحديثة والقوية بإذن الله تعالى نعمة حتى لمسلمي هذه الأنحاء».
ومما يؤكد كذلك أن خانجيتش كان لا يدعم دولة كرواتيا المستقلة لكونها دولة كرواتية مستقلة، وإنما لظلم السلطات اليوغسلافية السابقة نحو المسلمين قوله التالي: «بعد عودة المسلمين إلى منازلهم عام ١٩١٨م، لم يكن بإمكانهم أن يسمعوا ويروا إلا: قُتل مسلم هنا وهنا، احترق بيت فلان هنا وهنا، سحقت قرية مسلمة هنا وهنا، وفي كل مكان يسمعون الوعيد مثل: ليس هذا عام ١٩١٤م، سننتقم عن عام ١٩١٤م وإلخ... المسلمون مخدوعون بالحل الظالم لما سمي بمسألة الملكية الزراعية حيث أصبح الكثير من وجهاء قومهم وأغنيائهم نتيجة لذلك الحل بما لا تسد الرمق من أملاكهم.
والمسلمات المتحجبات اللائي كن محفوظات في بيوتهن مثل الجواهر بدأن يخرجن منها ليكسبن خبزهن اليومي ببيع الصواني التي ورثنها من آبائهن أو للسؤال من الناس».
«ومع أن المسلمين البوسنيين هم من أبناء هذه البلاد إلا أن يوغسلافيا لم تكن تبدي أي شكر لوفائهم، بل كانت تنظر إليهم نظرة الغرباء الذين يجب التخلص منهم بأية طريقة وطالما كانت تعتبرهم أقلية».
ولنقل أخيراً إن خانجيتش - ومعه فئة من علماء الدين وهم يصدرون البيانات المذكورة - قد وقف بشكل علني في وجه جرائم دولة كرواتيا المستقلة، مما وفر له مكانة خاصة في تاريخ البوسنة والهرسك.

مسابقة الفيصل

أسماء الفائزين في مسابقة العدد (٢٩٠)

شعبان ١٤٢١هـ - أكتوبر/نوفمبر ٢٠٠٠م

الفائز الأول: **أيمن محمود السمري - مصر.**

الفائز الثاني: **صالح محمد صالح الميموني - اليمن.**

الفائز الثالث: **هنادي بكرو بنت حافظ - سورية.**

الفائز الرابع: **محمود زكريا سعيد جلغوم - الأردن.**

حل مسابقة العدد (٢٩٠)

(١) فرغانة: **مدينة إسلامية شهيرة في أزبكستان.**

(٢) الدايوتومات: **نوع من الطحالب المجهرية الوحيدة الخلية ذات مظهر زجاجي شفاف.**

(٣) دييجو فيلازكيز: **رسام إسباني شهير من فناني القرن السابع عشر.**

(٤) التكويخ: **طريقة يتم بها صيد الصقور في الخليج العربي.**

(٥) ضدان لما استجمعا حسنا والضدُّ يظهر حسنه الضدُّ

قائل البيت هو: دوقلة المنبجي.

أسئلة مسابقة العدد ٢٩٣

ضع علامة ☑ أمام الإجابة الصحيحة:

(١) روبرت كوخ: ☐ عالم بكتيريولوجي ألماني اكتشف الجراثيم التي تسبب التيفوئيد والسل والكوليرا.
☐ فيزيائي وفيلسوف نمساوي أنكر وجود الزمن المطلق والفضاء المطلق.

(٢) من قائل هذا البيت: فيا لك من ليل تقاصرَ طولُه وما كان ليلي قبل ذلك يقصرُ ☐ قيس بن ذريح ☐ عمر بن أبي ربيعة.

(٣) الأوبال: ☐ حجر كريم تتغير ألوانه تغيراً جميلاً ☐ أداة لقياس مقدار الجهد الذي تبذله الرئتان في التنفس.

(٤) الكوكلوكس كلان: ☐ جمعية سرية أميركية، عنصرية النزعة، نشأت بعد الحرب الأهلية لترسيخ سيطرة البيض على الزنوج.
☐ عشيرة من المهاجرين الإنجليز سيطرت على حصن كلوكس العسكري بالقوة ونسبت إليه.

(٥) (الاستشراق) كتاب شهيرمن تأليف: ☐ إدوارد سعيد ☐ حمد الجاسر.

الاسم: **ص.ب:**

العنوان: **الرمز البريدي:**

المدينة: **هاتف:**

الدولة: **ناسوخ:**

شروط المسابقة

- **الإجابة عن جميع الأسئلة بشكل صحيح.**
- **لا تقبل إلا الإجابات المدونة على هذه القسيمة.**
- **إرسالها خلال ٤٥ يومًا من بداية الشهر العربي الذي صدر فيه العدد.**
- **أن يكتب المتسابق اسمه وعنوانه كاملاً داخل القسيمة.**
- **أن يكتب على الظرف (مسابقة العدد .....).**

طريقة اختيار الفائزين

- **تفرز جميع القسائم التي ترد من القراء.**
- **يتم استبعاد القسائم التي تكون ناقصة الإجابات.**
- **تجمع الإجابات الصحيحة، وتعمل قرعة بينها للفائز الأول، وقرعة أخرى للفائز الثاني، ثم قرعة للفائز الثالث، وقرعة أخيرة للفائز الأخير.**
- **ترسل الجوائز إلى أصحابها فور الوصول إلى النتيجة، وتدفع بالريال السعودي أو ما يعادله بالدولار الأمريكي.**

الجوائز

الجائزة الأولى:
١٥٠٠ (ألف وخمسمئة ريال سعودي).
الجائزة الثانية:
٧٠٠ (سبعمئة ريال سعودي).
الجائزة الثالثة:
٥٠٠ (خمسمئة ريال سعودي).
الجائزة الأخيرة:
(اشتراك لمدة عام في مجلة الفيصل).

عنوان المجلة:
ص.ب (٣) - الرياض ١١٤١١ ـ المملكة العربية السعودية. هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ / ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

حاليًا في الأسواق

الشيخ الإمام

محمد بن عبد الوهاب

ومنهجه الإصلاحي

تأليف

الدكتور محمد بن رشيد البارود الماجد

١٤٢١هـ/٢٠٠٠م

زرع الأعضاء البشرية بين التطور الطبي والشريعة الإسلامية

مراجعة: أحمد المكينسي
فاس ـ المغرب

صدر هذا الكتاب في شهر ربيع الثاني سنة ١٤٢٠هـ الموافق لشهر يوليو /تموز عام ١٩٩٩م وهو العدد الثامن من سلسلة شهرية اسمها «المعرفة للجميع» تصدر عن ثلة من العلماء المبرزين في عدة تخصصات علمية بالرباط في المغرب.

تمّت الإشارة إلى نبذة من حياة المؤلف الدكتور عبدالحميد سحبان في الغلاف الأخير للكتاب، وهو حاصل على الدكتوراه في العلوم السياسية تحت عنوان «البيعة في الإسلام» بكلية الدار البيضاء للحقوق والعلوم القانونية والاجتماعية والاقتصادية، كما حاز الإجازة في الأدب العربي من كلية الآداب التابعة لجامعة سيدي محمد ابن عبدالله بفاس عام ١٩٩٩م. ويهتم بميدان الفكر السياسي الإسلامي. له مجموعة من الدراسات منشورة بالجرائد الوطنية والمحلية وكذا أخرى لم تنشر بعد. كما يهتم بميدان الإبداع الأدبي.

صدرت له بصدد هذا الموضوع مجموعة قصصية بعنوان: «التعويذة» الطبعة الأولى ١٩٩٦م. كما ستصدر له قريبًا رواية بعنوان «الهجرة المعكوسة».

يقع الكتاب في ١٥٢ صفحة من الحجم الصغير. قدم له الدكتور أحمد رمزي عضو أكاديمية المملكة المغربية ووزير الأوقاف والشؤون الإسلامية السابق. هذا التقديم الذي أعرب فيه صاحبه عن أهمية هذا البحث وجدارته بالمتابعة لكونه موضوعاً له جوانب علمية طبية وقانونية تشريعية ودينية فقهية. كما استعرض المُقدِّم التطورات التي عرفها العلم والطب ولاسيما ميدان زرع الكلى والقلب وبعض الأعضاء الأخرى كالكبد والرئتين.. وحسب رأي الدكتور رمزي هناك عقبتان اثنتان مازالتا تعترضان سبيل جراحة غرس الأعضاء وهما:



زرع الأعضاء البشرية
بين التطور الطبي والشريعة الإسلامية
د. عبد الحميد سحبان
الرباط:
سلسلة «المعرفة للجميع»،
يوليو ١٩٩٩م.

ـ قلة توافر الأعضاء السليمة القابلة للغرس، فالجمهور لم يتقبل بعد أن يؤخذ عضو من جسم أحدهم، بل يريد أن يطمئن إلى كمال الجسم الميت الآخذ طريقه إلى الدفن.

ـ تعلق سلامة الغريسة بقضايا قبولها أو رفضها من قبل الجسم المستقبل مع استعمال الأدوية. ويضيف مقدم الكتاب أن الخبراء مازالوا يبحثون عن حلّ لهذا الإشكال. وعدَّ موضوع الكتاب شائقًا وخطيرًا.

يتضمن الكتاب خمسة مباحث وملحقًا خاصًا بمشروع القانون المغربي المتعلق بنقل الأعضاء البشرية وزرعها.

المبحث الأول: زرع الأعضاء

استعرض المؤلف في هذا البحث الأسرار التي مازالت تلف الجسم البشري، وأشار إلى كتاب ألكسيس كارليل «الإنسان ذلك المجهول»! وأنه، على الرغم من التقدم الكبير الذي عرفه الميدان العلمي والطبي، مازالت هناك عدة أسرار تهم هذا الكائن (الدماغ ـ الخلايا...إلخ) كما تحدث عن ماهية الإنسان، وعرّف الجسم الإنساني بأنه مجموعة من الخلايا والأعضاء والأجهزة تقوم كل منها بوظيفتها، ولها متطلبات لأداء هذه الوظائف من غذاء وطاقة ووسط يحيط بها في توازن دقيق، في اعتماد واستجمام مع الآخر ، فإذا اختلت وظيفة عضو أثّر ذلك في أداء الأعضاء الأخرى لوظائفها بدرجات متفاوتة».. ومن بين التعريفات التي أوردها المؤلف قوله: إنّ «الإنسان مخ يحمل نفسًا إنسانية..».

وبخصوص مصطلح زرع الأعضاء البشرية أو غرسها ذكّر باقتراح الدكتور محمد أمين صافي بضرورة استبدال عبارة «غرس الأعضاء» بعبارة «زرع الأعضاء البشرية» في بحثه المقدم إلى الدورة الرابعة لمجمع الفقه الإسلامي «المجلة عدد:٤ الجزء الأول عام ١٩٨٨م ص: ١٣٥». ويرى المؤلف أن عبارة «غرس الأعضاء» هي الأصوب، كما أن المعاجم العربية اللغوية تؤكد ذلك، ولسان العرب يأتي بلفظة الإثبات (الجزء ٦ ص١٥٤ الجزء ٨ ص ١٤١ دار صادر طبعة ١٩٩٢م). أما غرس الأعضاء فيقصد به نقل عضو سليم من جسم متبرع (معطٍ أو مانح) سواء أكان إنسانًا أم حيوانًا أم أي كائن حي وإثباته في الجسم المُسْتَقْبِل (الآخذ أو المتلقي) ليقوم بأداء وظائف العضو التالف. أما عناصر غرس الأعضاء فهي ثلاثة:

- المتبرع
- المُستقبِل (بكسر الباء)
- الغريسة أي العضو المنقول

أما الغرائس فمختلفة وهي:

الغرائس الذاتية: وهي المتمثلة في تحويل غريسة الجسم نفسه من مكان إلى آخر، كما هو الشأن بنقل جزء من جلد مصاب بحروق أو جزء من غضاريف الضلوع للمصابين في حوادث كسر العظام.. إلخ...



زراعة اليد قد تكون بديلاً للأجهزة التعويضية

الغرائس المتماثلة: وهي نقل غريسة أخ توأم..

الغرائس المتجانسة: وتسمى غرائس متباينة؛ لأنها تؤخذ من إنسان إلى إنسان، أو من حيوان إلى حيوان من النوع نفسه (أرنب لأرنب مثلاً).

الغرائس الدخيلة أو الغريبة: وهي تلك الغرائس المنقولة بين نوعين حيوانيين مختلفين (كالنقل من قط إلى كلب) أو من حيوان إلى إنسان، وهذا الصنف ـ حسب قول الكاتب مازال في طور التجربة ـ وقد أورد المؤلف دليلاً على استخدام عظام الحيوانات كسقالة لعظام الإنسان من خلال كتاب المؤرخ زكريا القزويني الذي ذكر في كتابه: «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» أن من خواص عظم الخنزير أنه يوصل بعظم الإنسان، ويلتئم سريعًا، ويستقيم من غير اعوجاج.

وقد خلص المؤلف إلى أن ميدان الزرع يطال كذلك غرس الأعضاء والغدد التناسلية، وهو يدخل ضمن ما يسمى بالتلقيح الصناعي. كما أشار إلى أن

المؤتمر الرابع لمجمع الفقه الإسلامي المخصص لموضوع زرع الأعضاء البشرية المنعقد في جدة بالمملكة العربية السعودية بتاريخ ١١فبراير/شباط ١٩٨٨م لم يدمج موضوع الأعضاء التناسلية ضمن قراره النهائي، وهو دليل دامغ - كما يقول الأستاذ سحبان - على استبعاد إدخال هذه الأعضاء ضمن مجال الزرع المباح شرعاً.

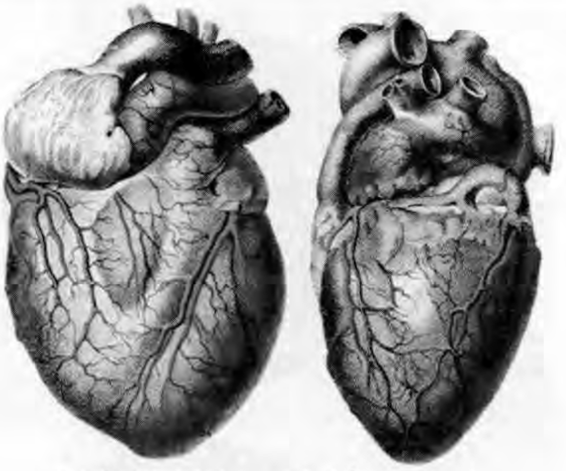
كما تضمن هذا المبحث الأول إشارة إلى مدى تحمل الغرائس لنقص التروية الدموية بنوعيها الدافئة والباردة أو التبريد، وقد وضع جدولاً بيّن فيه المؤلف زمن تحمل بعض الأعضاء القابلة للنقل والزرع.

غرس الأعضاء في التاريخ

لقد عرفت الإنسانية منذ التاريخ أشكالاً بدائية لطريقة غرس الأعضاء، وقد مارس الهنود تقنية الرقع الذاتية بشكل بارع منذ ٧٠٠ سنة قبل الميلاد. ولاتزال هذه الطريقة تستعمل مع بعض التعديلات الطفيفة عليها. وفي عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وفي غزوة أحد حين أصيبت عين قتادة بن النعمان رضي الله عنه أتى بها الرسول صلى الله عليه وسلم فردها عليه بيده الكريمة، فكانت أصح عينيْه وأحسنهما، أخرجه البيهقي وابن عدي والطبراني وأبو نعيم وأبو يعلى.

وإن كان هذا الأمر - حسب رأيي - يدخل في باب معجزات الرُسل والأنبياء، فإن الدكتور محمد علي البار في عرضه المقدّم للدورة الرابعة لمجلد مجمع الفقه الإسلامي حول زرع الأعضاء البشرية بمجلة المجتمع عدد: ٤ جزء أول ص٩٤ ينعت عملية الرسول صلى الله عليه وسلم بأنها أول عملية زرع للعين -replanta tion وإعادة الزرع في التاريخ القديم.

وفي هذا المبحث قام المؤلف بسرد مختلف العمليات المقامة منذ القرن ١٨ حتى قرننا الحالي، وبالخصوص زرع القلب من طرف الدكتور كريستيان برنارد عام ١٩٦٧م بجوهانسبورغ (جنوب إفريقية) ثم عدَّد مختلف عمليات الزرع بعد هذا التاريخ إلى الآن.

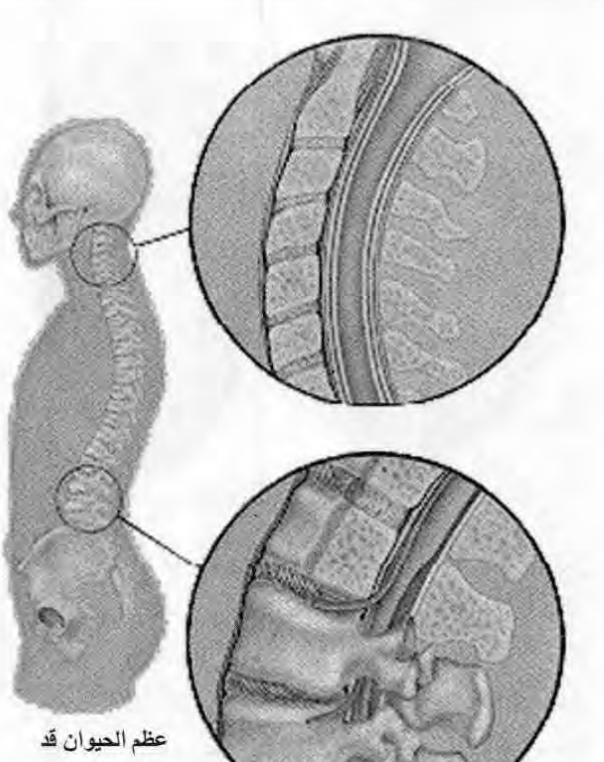


زرع القلب من أولى تجارب عمليات زراعة الأعضاء

وفي فقرة موت الدماغ أشار صاحب الكتاب إلى أن أول من نبه على موضوع موت الدماغ كان المدرسة الفرنسية عام ١٩٥٩م التي سمته «مرحلة ما بعد الإغماء»، ثم أعقبتها المدرسة الأمريكية عام ١٩٦٨م، والمقصود بموت الدماغ هو توقفه نهائيًا عن العمل، وعدم قابليته للحياة، فإذا مات المخ والمخيخ من أجزاء الدماغ، لا يمكن للإنسان أن يحيا حياته العادية الطبيعية الواعية، كما أن موت جذع الدماغ تتأكد به نهاية الحياة الإنسانية عند معظم الأطباء الغربيين. كما يورد المؤلف تعريف الدكتور مختار مهدي «أن توقف القلب عن العمل لا يعني بالضرورة الوفاة (فترة الاحتضار)، كما أن استمرار القلب في العمل بعد المخ لا يعني الحياة» (مجلد مجمع الفقه الإسلامي عدد: (٣) الجزء الثاني ص ٥٣١). وفي آخر المبحث الأول أورد المؤلف علامات تشخيص موت الدماغ، ذلك أن التحقق من هذا التشخيص الذي تحيطه القوانين - المنظمة هذا النوع من العمليات بالكثير من العناية - يعد أساس مشروعية نقل الأعضاء البشرية.

المبحث الثاني:
مشروعية نقل الأعضاء البشرية

يقع هذا المبحث بين الصفحة ٥٠ إلى الصفحة ٧٩ وفيه يتعرض الكاتب إلى موضوع مشروعية نقل الأعضاء البشرية التي أدت إلى وقوع كثير من



عظم الحيوان قد
يتصل بعظم الإنسان
ويلتئم سريعًا

الجدل والنقاش بين رجال الطب والقانون حول مدى مشروعية هذه التقنيات. ويرى أن عليهم - أي رجال الطب والقانون - مواصلة أبحاثهم جنبًا إلى جنب لتجاوز المشكلات المرتبطة بالموضوع. كما يطرح المؤلف إشكالية بالنسبة إلى المانح السليم هل سيضر ذلك بحياته؟ وبالنسبة إلى الميت، هل هذا البتر يصبح مساسًا بحرمته؟ ويوازن بين القانون الجنائي المغربي ونظيره قانون العقوبات المصري فيما يخص هذا الموضوع، فالقانون المصري يشوبه عيب حصر الاعتداء على السلامة الجسدية في الضرب والجرح بينما نظيره المغربي باستعماله للفظة «الإيذاء» يكون قد جرَّم كل أشكال المساس بالسلامة الجسدية، ومن ثم فكل تقنيات الزرع مجرمة بمقتضى قانون العقوبات المغربي.

كما تناول هذا الفصل أسباب إباحة نقل الأعضاء البشرية وزرعها وأولها الضرورة، أو حماية مصلحة اجتماعية جديرة بالرعاية.

القوانين الوضعية الخاصة بنقل الأعضاء وزرعها

يستند القانون الفرنسي رقم ١١٨١ - ٧٦ بتاريخ ٢٢يناير/كانون الثاني ١٩٧٦م، ويطلق عليه قانون كايافيه Caillavet، إلى تمييز كلاسيكي يميز بين نقل الأعضاء وزرعها بين الأحياء ونقل الأعضاء من الموتى، وهو التقسيم نفسه الذي اعتمده مشروع القانون المغربي الخاص بالزرع والنقل، أما قانون الانتفاع بأعضاء جسم الإنسان رقم ٣٣ المؤرخ في ٢٤ أبريل/نيسان ١٩٧٧م والقانون المعدل له رقم ١٨ بتاريخ ٣٠ يوليو/تموز ١٩٨٠م الخاص بالمملكة الأردنية الهاشمية والمتعلق بنقل الأعضاءالبشرية فلا يخضع للتبويب المتعلق بتخصيص باب للحديث عن النقل بين الأحياء وباب للحديث عن المانحين الأموات.

وفي هذا المبحث يستعرض المؤلف الاحتياطات الخاصة بالمتبرع الحي والاحتياطات بالمتبرع الميت، كما يعرف الموت وتحديد لحظة الوفاة.

ويرى د. سحبان أن القوانين الوضعية الخاصة بهذا المجال متهيبة من الموضوع، وتحاول إعطاء الضمانات كافة للمتبرعين «الرضا الصريح» مع وجود نصوص تتجه صوب توسيع دائرة المتبرعين عن طريق العمل بقاعدة «الرضا المفترض».

المبحث الثالث: موقف الشريعة الإسلامية من التعويض الإنساني

يرى المؤلف أنه ليس سهلاً توضيح موقف الشريعة الإسلامية في هذا الشأن لكون القضية من الأمور المستحدثة التي لا يمكن إيجاد موقف شرعي ومحدد وصريح لها؛ فمعظم المالكية والحنفية والظاهرية يرون عدم جواز الانتفاع بأجزاء جسم الإنسان الميت منعًا من انتهاك حرمة الآدمي لقول الرسول صلى الله عليه وسلم «كسر عظم الميت ككسره حيًا» حديث نبوي مروي عن عائشة رضي الله عنها في سنن أبي داوود في كتاب الجنائز رقم (٣٠٧٨). بينما يرى جمهور الفقهاء (بعض الحنفية،

وبعض المالكية والشافعية والحنابلة والزيدية) جواز الانتفاع بأجزاء الآدمي الميتة، وقد عللوا ذلك بأن حرمة الآدمي الحي أعظم من حرمة الميت.

القرائن المانعة
لزرع الأعضاء البشرية

أورد المؤلف عدة آيات قرآنية دالة على هذا المنع. ومن بينها: *وصوركم فأحسن صوركم*. **غافر: ٦٤**، وكل تبرع قد يشكل تشويهاً لهذه الصورة التي أحسن الله خلقها.

جواز الانتفاع بالأعضاء البشرية

أتى المؤلف بآيات قرآنية، من بينها: *فصّلَ لكم ما حرَّم عليكم إلا ما اضْطُرِرْتُم إليه*. **الأنعام: ١١٩**. والضرورة أن يبلغ الإنسان حداً إن لم يتناول الممنوع هلك أو قارب الهلاك (السيوطي الأشباه ص: ٨٥).

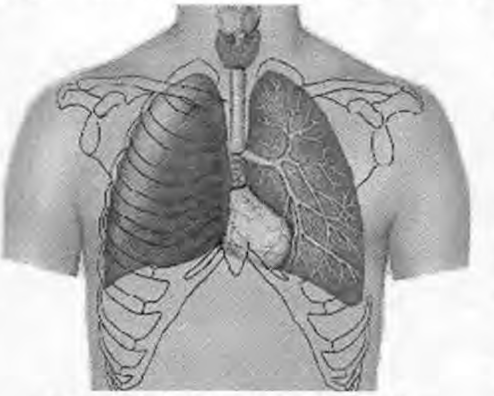
وهناك تحليل فقهي محايد بين القبول وعدمه وله أتباع، وقد جاء الكاتب بشهادات هذا التيار.

أما عن التحليل الفقهي غير المجوّز للانتفاع من الأعضاء البشرية فأورد الكاتب عدة أسئلة تتعلق بمسؤولية الإنسان عن جسده، هل هو مسؤول عن سلامته؟ هل له الحق الكامل في التصرف في أعضاء جسده؟ في حياته وبعد مماته؟ ومدى تدخل القانون الوضعي والسماوي لحماية الإنسان من نفسه؟ ويعتمد هذا التيار الفقهي المعارض على الآيات القرآنية من خلال قوله تعالى: *فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ الله، ومن يتخذ الشيطانَ وليًا من دون الله فقد خَسِر خُسْرانًا مُبينًا*. **النساء: ١١٩**، وبناء على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن هذا الإنسان بنيان الله ملعون من هدم بُنيانه».

حرمة الميت: وفي هذه الفقرة يؤكد المؤلف الاتجاه المعارض للزرع من الميت اعتماداً على نصوص فقهية وأحاديث نبوية من بينها كما رواه ابن أبي شيبة ص١٥٦: «أذى المؤمن في موته كأذاه في حياته».

الاتجاه المجيز للتعويض الإنساني: وهو يعتمد على القاعدة الشرعية المستنبطة من النص القرآني التي يعتمد عليها الفقهاء المعاصرون، المجيزون وهي الضرورات تبيح المحظورات استنادا إلى الآية: *فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه. إن الله غفور رحيم*. **البقرة: ١٧٣**..

وقد ختم المؤلف هذا المبحث بإعطاء نظريته في هذا الموضوع تحت عنوان: الترجيح الشخصي في المسألة: اعتمد فيه المؤلف على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رواه عبادة بن الصامت قال: «من تصرف من جسده بشيء كفر الله تعالى عنه بقدره من ذنوبه»، وفي رواية أخرى: «من جرح في جسده جراحة فتصدق بها، كفّر الله عزّ وجلّ عنه بمثل ما تصدق به». مع ضرورة أخذ الاحتياط والحيطة استناداً إلى قوله تعالى: *ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة*. **البقرة: ١٩٥**. كما اعتمد على روح الآية: *فكأنما أحيا الناس جميعًا*. **المائدة: ٣٢**.



هل يحق للإنسان التصرف في أعضاء جسده؟

أي أن من أنقذ نفساً بشرية مشرفة على الهلاك فكأنما أحيا الناس جميعاً. وحرمة الحي أعظم من حرمة الميت.

وختم الكاتب هذا المبحث بقرارات مجمع الفقه الإسلامي في مؤتمره الرابع المنعقد بجدة بالمملكة العربية السعودية بتاريخ ١١ فبراير/شباط ١٩٨٨م حول إجازة زرع أعضاء الجسد وتحريم نقل أعضاء أخرى.

أما الحالات غير المذكورة فتبقى محل نظر، ويجب طرحها للدراسة في الدورات القادمة للمجمع.

المبحث الرابع:
موقف الشريعة الإسلامية من موت الدماغ

وهنا يعرف الكاتب «الموت» فقهيًا: بأنه انقطاع الحياة عن البدن انقطاعًا تامًا كليًا وكاملاً. واشترط الفقهاء لذلك اليقين، ولهذا اعترضوا على مفهوم «موت الدماغ» أخذًا بقاعدة «اليقين لا يزول بالشك».

أما مفهوم الموت من الوجهة الطبية فيعرف بواحد من شرطين: إما بحدوث توقف لا رجعة فيه على القلب والتنفس، وإما بتوقف جميع وظائف الدماغ ككل توقفًا نهائيًا لا عودة منه.

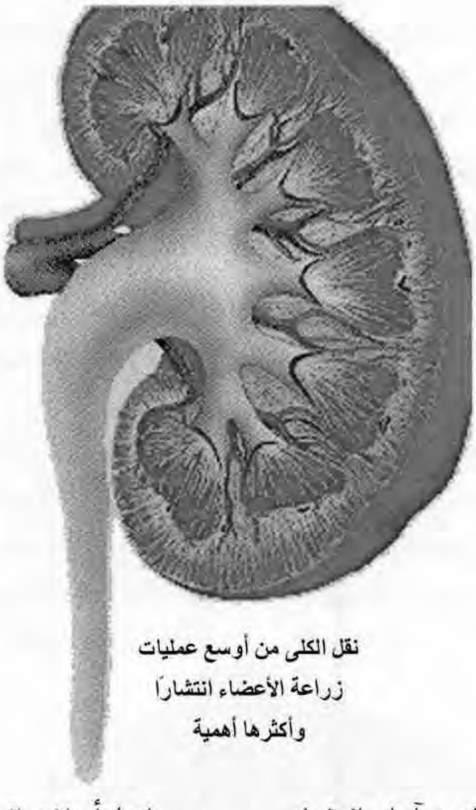
وفي الباب الثالث بيّن التعريف الطبي والفقهي لحقيقة الموت آراء العلماء والفقهاء والأطباء المختصين في هذا المجال، ويخلص المؤلف في آخر المبحث المذكور أن الوفاة شرعًا تتأكد بإحدى العلامتين:

- إذا توقف القلب والتنفس.
- إذا تعطلت جميع وظائف الدماغ، وأخذ هذا الأخير في التحلل.

المبحث الخامس والأخير:
في انتظار صدور قانون خاص بزرع الأعضاء

في هذا المبحث ألح الكاتب على ضرورة إصدار قوانين خاصة بالنقل لحماية هذا الموضوع من النصب والاحتيال والاتجار في الأعضاء البشرية، وللحيلولة دون جعل جنوب العالم قبلة المشترين من شماله.

وحول القانون المغربي الخاص بنقل الأعضاء البشرية وزرعها، أشار الكاتب إلى أنه سيصدر قريبًا وأنه يتسم بالحيطة والحذر والاحتياط، وأنه تأخر في الصدور على الرغم من كون المغرب يعرف عمليات زرع الأعضاء، ولاسيما زراعة الكلى.



نقل الكلى من أوسع عمليات زراعة الأعضاء انتشارًا وأكثرها أهمية

وعن الأمور التي يجب على هذا القانون مراعاتها يقول المؤلف:

- يجب أن يكون نص القانون مطابقًا لروح عقيدتنا الإسلامية.
- أخذ الاحتياطات اللازمة للحد من كل تلاعب أو مضاربة في ميدان زرع الأعضاء.
- تحديد الوفاة حقيقة.

ويقول المؤلف عن التفاعل المجتمعي مع النص، أي: جعل النص سهلاً مع المتبرع الحي، أي: عدم تعقيد مسطرة المنح أو التبرع. والشيء نفسه بالنسبة إلى المتبرع الميت (الموافقة في حياته) أو إذن العائلة في حالة عدم التمكن من معرفة موقف المانح قبل وفاته.

كما يتحدث د. سحبان عن المسطرة القضائية في (ف١٤) والمسطرة الطبية في (ف١٨) ومسطرة التفاوض مع العائلة في (ف١٩).

وفي الأخير أورد المؤلف فقرة يدعو فيها إلى مواكبة التقدم العلمي وشروطه ومحاربة المرض وحماية العاملين في ميدان زرع الأعضاء البشرية مانحين وأطباء، مع ضرورة العمل بالرضا الصريح لا الرضا المفترض المومأ إليه في مشروع النص (ف١٦).

ومن الصفحة ١٤٢ إلى ١٥٢ ملحق عن نص مشروع القانون المغربي المتعلق بنقل الأعضاء البشرية وزرعها مترجمًا من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية قام بها المؤلف بلغة رصينة وجيدة.

والخلاصة: أن المؤلف قد وفق في هذا الموضوع السهل المتنع آملين أن يتناول هذا الموضوع بالدراسة من طرف المتخصصين المسلمين لاحقًا.

دوهه يادوهه

مراجعة: **عبدالتواب يوسف**
القاهرة - مصر

هذا كتاب جميل حقًا، يمثل بالنسبة إلى الرسامة هلا بنت خالد، خطوة متقدمة في رسومها للأطفال، ولكتابتها أيضاً..

كتاب «دوهه» لسن ما قبل المدرسة فكرة بديعة بحق، وإن كان هناك من سبقها إليها: فرانك بوم في أمريكا، وهو صاحب سلسلة ساحر أوز الشهيرة التي كتب منها تسعة عشر كتاباً، وفي العربية أصدرت شخصيًا سلسلة بعنوان «غنوه وحدوته» في خمسة عناوين، ترجمت فيها أغنياتنا الشعبية الشهيرة إلى قصص درامية، ونشرت مع كل أغنية الكلمات والنوتة الموسيقية، ومن بين هذه العناوين: «يا طالع الشجرة»، و«بابا جاي إمتى؟» «أنا الغراب النوحي» «يا ليل ياعين ماعرفش أكدب شفت الضفدعة شايلة مركب» و«علي عليوه ضرب الزميرة».. فالفكرة المشتركة بين هذه الأعمال و «دوهه يادوهه» هي استثمار الأدب الشعبي، وعرضه على الأطفال وتحبيبه إليهم.. خاصة في السن المبكرة، وهذا الكتاب بالذات يصلح لمن هم قبل الست سنوات، بل ربما قبل سن الثلاث سنوات.. ذلك أن الصغير قادر على ترديد هذه الأغنية البسيطة الجميلة العذبة، ويحفظها عن ظهر قلب.. وها هو ذا يجدها في كتاب غاية في الأناقة والجمال، ويفتح عينيه على رسوم بديعة وألوان جذابة.. إنه كتاب يثقف عينيه، وأيضاً أذنيه في هذه السن المبكرة.. (هناك خمسة عناوين جديدة لي في الخط نفسه تمت كتابتها ورسمها وهي تحت الطبع، وكلها أغنيات وحكايات تدور حول اسم «علي» في أغانينا).

وباستطاعتنا أن نقف عند الغلاف، وعند كل صفحة لكي نحلل رسومها، ونكشف عن أوجه الجمال في هذه اللوحات.. ومن المؤكد أننا سوف نكون أمام معرض رسوم، لم تُعلق على الجدران، لكنها سوف تعلق بذِهن الصغير وتنبه عينيه وحواسه على مدى الجمال الذي يمكن أن يكمن في الرسوم واللوحات، وتعالوا بنا نجرب هذا مع اللوحة الأولى التي هي بعرض الصفحتين، وتحمل الكلمتين «دوهه» يا «دوهه».



دوهه يا دوهه

هلا بنت خالد

الرياض:

مطابع الفرزدق، ط، ١

١٤٢١هـ.

نحن أمام لوحة، يغطي الليل المساحة الأكبر منها، ذلك أن الجزء العلوي منها يمثل السماء وقد تناثرت نجومها.. والزرقة دكناء إلى حد ما، وتخف كلما نزلنا بأعيننا إلى ما تحت.. ووسط الزرقة يرقد الوليد، يتركز عليه البصر، إذ يشدنا وجهه الهادئ البريء، في نومه العميق، وقد زهت ألوان الغطاء بشكل جذاب مناسب، وهي ألوان ليست بصارخة أو صاخبة، وليس أحلى من عينيه مع أنهما مغلقتان، وفمه مع أنه مقفل، ووجهه يشع صفاءً وبهاءً ورواءً، ولا نظن أنفسنا نتجاوز الحدود إذا شبهناه بالملائكة الذين لم تحظ أعيننا برؤيتهم وان حاولنا دائمًا أن نتخيلهم، كما أننا رأيناهم في لوحات عالمية كثيرة

وشهيرة، وبيننا تيار قوي يحرّم علينا أن نرسمهم، ونحترم وجهة نظره، لكن ها هي ذي رسامة لا تخرج عن هذا السياق وترسم لنا ملائكية الطفولة.

ولنا أن نتصور أمّاً عربية، تمسك بالكتاب، وتفتحه على هاتين الصفحتين ليشاهدهما طفلها، وتترنم بالكلمتين وترددهما، وسؤال:

- هل يمكن للطفل أن ينسى هذه اللحظة مدى العمر؟

ان متعتها ستبقى ما بقي، وعلى مدى الحياة، وهو يضفر حنان الأم بالإيقاعات الشعبية، وهذه اللوحة البديعة، ويتعلم كيف يألف الرسوم، والكتب.. إننا نخلق بذلك علاقة إيجابية بالغة الأهمية بين الصغير والكتاب في سن مبكرة، وهو هدف غاية في الخطورة، بالنسبة إلى أجيال جديدة، يلقى الكتاب معها منافسة شديدة حادة من جانب «اللُّعب» و«اللعب» و«الأتاري»، والعلاقات الاجتماعية متمثلة في الأقارب والأصحاب، بجانب التلفزيون، و.. و.. لذلك فإن ربطه بالكتاب هنا رسالة ومسؤولية وواجب نراه عظيماً، فإن الله حين أراد أن يهدي البشرية بعث إليها بالكتب، وخاتمها قرآننا الكريم، وكانت أولى آياته «اقرأ»، ويؤلمنا أن «أمة اقرأ لا تقرأ»..

ولن نمضي مع اللوحات نحللها واحدة بعد الأخرى.. بل إننا على ثقة من أن نقاد الفن التشكيلي أقدر منا بلا شك على أداء هذه المهمة، بل إن الأم ذاتها أو الأب، إذا ما تملى في الرسوم فسوف يجد فيها مواطن جمال أعتقد عن يقين أنها يمكن أن تفوتنا، لكن كلمة أو كلمتين عما نراه ونشاهده لن تكون مزعجة.. خاصة ونحن نربط الكلمات بالرسوم، ونتوقف عند صفحتي «والكعبة»، و«بنوها» ونجد أنفسنا هنا في حاجة إلى أن نحني الرأس إجلالاً؛ لأن هنا محاولة من «السيناريو» - أي تتابع الصور والرسوم متناغمة مع الكلمات - لكي نرسب في أعماق صغير، قد لا يتجاوز عمره السنتين، العقيدة والإيمان، وهو لابد أن يطرح علينا ألف سؤال وسؤال عنها، حول البناء، والمسجد الحرام، والطائفين، والحمام، و...

والصفحتان التاليتان فيهما إضافة وتأكيد، إذ هما عن بئر زمزم.. وقد يسأل الصغير: أين الكعبة؟ أين زمزم؟.. وتجيء الإجابة في صفحتين تاليتين: «بابا سافر» و«مكة»... وبابا قديماً كان يذهب إليها راكباً جمله أو ناقته.. وعصر السيارات والطائرات يجب ألا ينسينا التراث والتاريخ، وملاحظة صغيرة لا يمكن أن تفوت قارئ هذه اللوحة «مكة»، ونعني بها هذه المئذنة الباسقة، بعيداً، في الطرف الأيسر.. وأيضاً هذه السماء الساخنة، الضاربة باللون الأحمر!



غلاف النسخة الإنجليزية

ونمضي مع الصفحات التي تحكي لنا ما نسميه «القصة أو الحكاية المدورة»، كل شيء يسلمنا إلى آخر يتصل به، ويرتبط: الكعكة التي جاءت في الزنبيل وضعت في المخزن، وهو يحتاج إلى مفتاح، سنجده عند النجار الذي يريد له ثمناً، هو الفلوس.. والفلوس عند العروس: كم سيطرب الصغير عند سماع موسيقى الكلمات هنا! والعروس تتطلع لأن يكون لها أولاد.. والقارئ لصور الكتاب - ولداً أو بنتاً - هو من «الأولاد».. الذين يحتاجون إلى الحليب الذي هو الغذاء الكامل للرضع، وبه عناصر أخرى كثيرة يحتاج إليها الأطفال للنمو.. ويطل علينا السؤال:

- من أين يأتي الحليب؟

هو لا يأتي - يا صغيري - من السوبر ماركت، بل أصلاً وأساساً هو يأتي من البقرة.. وفي هذه السن المبكرة قد لا يكون الصغير قد رأى بقرة. فقد تحولت حتى قرانا إلى مدن.. ترى من يحمل طفله من المدينة

إلى المزرعة والريف؟!.. مَن من صغارنا يرى البقرة وهي تأكل الحشيش؟!.. هم في هذه السن لا يعرفون غير حشيش ملاعب كرة القدم، وربما هو «ترتان» وليس بحشيش طبيعي، مما تبغيه البقرة، ولا تجده إلا فوق الجبل.. وهو لن ينمو إلا إذا جاءه المطر، وهنا يأتي سؤال خطير بل ومدو:

ـ من أين المطر؟

والحكاية الشعبية أوعى من أن تقول أنه يأتي من السحاب بل تعلن في إيمان:

ـ «المطر عند ربنا»

وتعلو الصلاة والدعاء يا مطرة حطي حطي..

(وفي التراث الشعبي العربي في مصر: «يامطرة رخي رخي») وتأتي المفاجأة المرحة الضاحكة التي تجعل الصغير يقهقه ضاحكاً في كل مرة تصل به الحكاية إلى هذا المدى..

ـ على قريعة بنت أختي (وفي مصر قرعة بنت أختي)، وفي اللوحة التي تحمل فيها بنت الأخت الولد الذي جاءت به، لا نرى شعرها، ونرى عبدالصمد من دون شعر..

الولد اسمه عبدالصمد..

بسم الله الرحمن الرحيم «قل هو الله أحد. الله الصمد.»

ما من ختام أروع ولا أبدع من هذه النهاية التي وصلت إليها «الأغنية/ الحكاية» التي أبدعها شعبنا، وتحمل في طياتها كل ما يبغيه الطفل، وما نبغيه له، اهتدت إليه الفنانة المبدعة بحسها الإيماني، وقادها إليه أدبنا الشعبي وتراثنا الغنائي، وصاغته في سيناريو متكامل، تلاحمت فيه الكلمات مع اللوحات في تناغم وتضافر رائعين.

قد يتصور بعض الناس أننا نجامل هذه الرسامة، لكننا ـ بحق ـ لم نفعل شيئاً من هذا القبيل، فقط قرأنا الكتاب بطريقة عقلانية وفنية، خاصة و(الأغنية/الحكاية) بين أيدي الناس منذ عشرات السنين، لماذا لم يتوجه إليها أحد ويعالجها بهذا الأسلوب؟!.. لماذا لم تفهم من قبل بهذه الطريقة؟

الرسامة هنا وضعت يدها على أثر شعبي قديم، لم تؤلفه، ولم تضف إلى كلماته شيئاً، لكنها أضافت إليه ما جعله ينبض بالحياة، ويشع بها ويمتلئ. بل أصبح يمثل قيمة أدبية وفنية رفيعة المستوى، عالية القدر..

وقد يجد بعضنا أنفسهم على غير هذا الرأي، وربما اتخذوا منحى آخر، إلا أننا ـ ولنا خبرات سابقة أشرنا إليها من قبل ـ نشهد الله أنه ما من مجاملة، وإنما هي



من الرسومات الواردة في الكتاب

محاولة للإضاءة، يعلم الله أنه ما من مقابل لها من جانب الناشر، أو من جانبها.. لقد انفعلنا بهذا العمل، والذين يسلمون لنا بجانب من الريادة في ثقافة الأطفال وأدبهم يعرفون يقيناً «أن الرائد لا يكذب أهله»..

وإذا ما كانت لنا من نصيحة للرسامة المبدعة «هلا بنت خالد» فهي:

ـ على ضيقنا بالنصائح وفي مقدمتها هذه النصيحة ذاتها التي نسديها، لأن الفنان لا يطيقها ـ نقول: ليتها تتخصص في الكتابة للسن المبكرة، لأنها تتفوق فيها على نفسها، لا مقارنة قط بين كتابها «التعليمي» عن الأسنان وكتابها «دوهه يادوهه» الفني الرائع.

تعقيباً على «القاتل المتسلل»


القاتل المتسلل!

خالد حسن

تلقيت ببالغ الشكر والتقدير خطابكم الكريم الذي عبرتم فيه عن أسفكم لعدم مناسبة مقالتي وعنوانها «التربية الإسلامية.. الجوهر والمضمون» للنشر في مجلة «الفيصل» الفيحاء. لقد شعرت وأنا أقرأ الخطاب بسعادة كبيرة لذلك الاهتمام الذي توليه مجلة الفيصل الكريمة للتواصل الدائم والبناء مع كتابها وقرائها الكرام.

وانطلاقا من هذا التواصل فإنني أطمع من مجلة الفيصل أن تبعث لي بالعدد ٢٨٧ الذي فاتني اقتناؤه، لأنني حريص على متابعة أعداد المجلة، وذلك لما تحويه من معلومات نفيسة وأخبار جديدة وتحقيقات رائعة.

ولقد تضاعفت سعادتي عندما فوجئت بتفضل مجلة الفيصل بنشر مقالتي (القاتل المتسلل) في باب بيئة بالعدد ٢٨٩ لشهر سبتمبر/أكتوبر ٢٠٠٠م.

وأحب أن أبدي إعجابي الشديد بالمجهود الذي بذل في إخراج مقالتي بهذه الصورة الرائعة، فجزاكم الله عني كل الخير. وأحب أن أشير إلى أنه قد ورد بعض الأخطاء المطبعية في المقالة وهي موضحة في الجدول المرفق.

وفي نهاية رسالتي هذه لا يسعني إلا أن أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان لمجلة (الفيصل) على ثقتها الغالية، وإتاحتها الفرصة لكي أنال شرف النشر على صفحاتها العظيمة الجميلة التي أكن لها كل الحب والتقدير..

وفقكم الله وسدد خطاكم وإلى الأمام دوماً.

خالد حسن علي

١٨ ش أبو عجيلة - السراي - الإسكندرية - مصر

التحرير:

نشكر لك اهتمامك بمجلتك «الفيصل»، وتدقيقك في مقالاتها وإرسالك لنا قائمة ببعض ما رأيته من أخطاء طباعية، بينما هي في الواقع تصحيح لما ورد في مقالتك من أخطاء لغوية ونحوية، وتعميماً للفائدة نوضح لك وللأخوة القراء ذلك:

١- الفعل قسَمَ وما يتفرع منه كانقسم واقتسم وتقسّم لا يتعدى بحرف الجر، بل يتعدى بنفسه. ارجع إلى لسان العرب (قسم) يقول: «قسمت الشيء بين الشركاء، وأعطيت كل شريك مقسمه وقسمه.... وقسم الشيء يقسمه قسماً فانقسم وقسّمه: جزّأه... وقاسمته المال. وقسمهم الدهر يقسمهم فتقسّموا أي فرّقهم فتفرقوا، وقسّمهم فرّقهم قسماً هنا وقسماً هنا....» وفي الحديث: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين.

موضع الخطأ	بيان الخطأ	التصحيح
ص ٧٤ - السطر ١٢	وتنقسم المبيدات ثلاث مجموعات	وتنقسم المبيدات (إلى) ثلاث مجموعات
ص ٧٥ - السطر ١	ويشهد العالم بأسره تسابقاً حاداً حامية الوطيس	ويشهد العالم بأسره (مباراة) حامية الوطيس
ص ٧٥ - السطر ٢٦	ويؤكد ذلك دراسة أجريت عام ١٩٧٠م، وجدت تركيزات عالية	ويؤكد ذلك دراسة أجريت عام ١٩٧٠م، (حيث) وجدت تركيزات عالية
ص ٧٧ - السطر ٧	كذلك أشار البحث إلى وجود بقايا المبيدات الحشرية المستعملة في أثناء تربية الدجاج مرتفعة في الدهون	كذلك أشار البحث إلى وجود بقايا المبيدات الحشرية المستعملة في أثناء تربية الدجاج (بنسبة) مرتفعة في الدهون
ص ٧٧ - السطر ٣٥	وياللأسف الشديد لا يوجد حصر	وللأسف الشديد لا يوجد حصر
ص ٧٨ - السطر ٣	ودخل به العالم في حرب عالمية ضد عدد من الآفات والحشرات	ودخل به العالم في حرب عالمية ضد (العديد) من الآفات والحشرات
ص ٧٩ - السطر ٢٧	لذا فقد قام كثير من الدول	لذا فقد (قامت) كثير من الدول
ص ٧٩ - السطر ٢٤	فقدان التوازن الطبيعي بين الآفات والأعداء الطبيعية لها	فقدان التوازن الطبيعي بين الآفات والأعداء (الطبيعيين) لها
ص ٨٠ - السطر ٢٨	غسل الفواكه والخضراوات بالماء جيداً وفترة طويلة.	غسل الفواكه والخضراوات بالماء جيدا (ولفترة) طويلة

وفي المعجم الوسيط: «القَسْمُ: (مصدر) يقال: هذا ينقسم قسمين [يراد به المصدر]، وقسمين [يراد به النصيب أو الجزء من الشيء المقسوم]. فالصواب: تنقسم المبيدات ثلاث مجموعات وليس إلى ثلاث مجموعات.

٢. استعملت حيث في غير موضعها، لأن حيث للمكان اتفاقًا (انظر مغني اللبيب ١/١٤٠ (حيث). وحذفها أولى من ذكرها، وهو الصواب، فتبقى العبارة مستقيمة وصحيحة.

٣. استعملت كلمة مباراة في قولك: «يشهد العالم بأسره مباراة حامية الوطيس...» خطأ لأن معنى المباراة في اللغة: باراه في الأمر: عارضه فيه، وفعل مثل فعله. وكلمة المباراة التي تعني المنافسة بين فريقين أو فردين كلمة محدثة وضعها مجمع اللغة العربية. وليس كما استعملتها في مقالك. انظر لسان العرب (بري) والمعجم الوسيط (برى)، وكلمة تسابق هي الكلمة الصحيحة في ذلك الموضع. أما الخطأ الطباعي الذي يمكن أن نشير إليه فهو كلمة «حامية» التي كان ينبغي أن تكون «حامي» لأنها صفة.

٤. استعملت كلمة «للأسف» بدون ياء التعجب، وهذا لا يجوز، فكلمة للأسف لا تستعمل إلا مع «يا» فتصبح يا للأسف، لأن هناك مواضع لا يصح فيها حذف الحرف (يا) من أشهرها المنادى المتعجب منه. انظر «معجم الأخطاء الشائعة، تأليف محمد العدناني ص ٢٧٦ رقم ١١٨١».

٥. كلمة عديد معناها في اللغة: النظير، والذي يعد من أهلك وليس معهم. يقال فلان في عديد بني فلان أي يعدّ فيهم، والعدد الكثير، والحصة والكثرة... لسان العرب (عدد) والمعجم الوسيط (عدد) والاستعمال الصحيح بدل كلمة عديد هو عدد أو كثير. وانظر معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة للعدناني ص ٥٠٢.

٦. استعمالك كلمة «قامت كثير من الدول»، خطأ لأن فاعل قامت مذكر والصواب أن تقول: قام كثير من الدول. ليتطابق الفعل مع فاعله المذكر.

٧. قلت : فقدان التوازن الطبيعي بين الآفات والأعداء الطبيعيين لها. والصواب. الآفات والأعداء الطبيعية؛ لأن الآفات والأعداء لا تعقل فلذلك تعامل معاملة مالا يعقل، أضف إلى ذلك أن كلمة أعداء جمع تكسير وكل جمع مؤنث يجوز أن تعامل معاملة المؤنث.

٨. قلت: غسل الفواكه والخضراوات بالماء جيدًا ولفترة طويلة. والصواب فترة طويلة بلا لام لأن فترة ظرف زمان منصوب ولا حاجة إلى دخول اللام عليه. كما نقول عشيةً وبرهةً وهنيهةً وغيرها.

تعقيبًا على مفهوم الحداثة


في مفهوم الحداثة

طالعت في العدد ٢٩٠ مقال «مفهوم الحداثة» للأستاذ شلتاغ عبود، وأرجو أن أضيف شيئًا إلى ما جاء فيه.

إذا كان القول بأن الحداثة فكر أوربي نمت في حقبة تاريخية معينة.. وحملت مفهومًا أوربيًا يعبر عن ثقافة الغرب فقد عدها بعضهم في عالمنا العربي مشروعًا ثقافيًا بمسمى التنوير، حتى أصبح هذا التنوير كلمة تتردد يظن أنها أكثر قدرة على قيادة العالم ثقافيًا، خاصة بعد تفوق الغرب سياسيًا وتكنولوجيًا وعسكريًا.

وفي رأيي أن: الحداثة أو مسمى التنوير يحمل غطاء ثقافيًا يضعف من حركة الثقافة العربية.. لأن هذه الحداثة تمثل ثقافة الوافد المحتل، وهي تفتقد في الوقت ذاته إلى الأصالة.

وهذه الحداثة أصبح يروِّج لها بالدعاية والإعلان بوسائل مختلفة منها مثلاً الفيلم السينمائي الذي يغزو القنوات الفضائية.. وهو فيلم يقدم عالم الخيال والمغامرات التي لا تحمل للمشاهد سوى العواطف المبتذلة.

لذلك هناك خطورة على العقل العربي من فكر الحداثة.. وينبغي أن ينذر ويحذر منه لأن للأمة العربية ثقافتها والتي تنطلق من دين الإسلام.. دين التفكير والاعتبار.. دين الحرية والاختيار.. دين المناقشة والجدال الهادف.. دين القلم والقراءة.. دين العلم والحكمة.. دين البلاغ والكلمة الطيبة.

وإذا كان الإسلام دين يدعو إلى التفكير الإيجابي والموضوعية الواقعية.. منطقًا وفكرًا وسلوكًا؛ فإن ضعف الحاضر الثقافي العربي يحتاج إلى يقظة في ظل التطور التقاني (التكنولوجي)، ومما ينبغي عمله:

- التخطيط ودراسة الواقع الثقافي العربي، وتشخيص نقاط القوة والضعف، وحجم الخسائر التي لحقت بالمجتمع العربي حضاريًا بسبب ضعف دور الثقافة في الحركة، وتحجيم الفكر، ونقص المعرفة، وفساد منهج التفكير، والعجز عن امتلاك آليات التنمية العصرية حتى أصبحت الأمة العربية كأنها تعيش زمنًا لا تعرف فيه خصوصيتها.

والحداثة تحاول بوصفها مذهبًا فكريًا تذويب الشخصية العربية وتحويلها إلى كيان عاجز لا يرى ذاته. ومن طبيعة الحياة أن الصراع بين البشر منذ بدء الخليقة واقع وثابت، ويعبر عن تصادم في القيم والعادات والتقاليد والمصالح، ووجود رغبة في الاستئثار على حساب الآخر.

- دراسة علاقة الإسلام بالغرب في القرون الوسطى عندما كان الأوربيون يعانون من حركة الإصلاح الديني من جهة، ومن تمزق دولهم ودويلاتهم وضعفها وتعددها من جهة أخرى، مما أدى إلى تخوفهم من جعلهم

جزءاً من الدولة الإسلامية، بينما كان للإسلام حضارة راسخة في الأندلس وصقلية.. وما كان للإنسانية أن تعرف طريق التقدم والحضارة والعمران إلا من خلال ما تركه علماء المسلمين.

ثم جاءت مرحلة اختلال الموازين في الدولة الإسلامية وما اعتراها من ضعف وتأسيس النهضة الأوربية الحديثة.

وقد شكلت الغزوات الصليبية إضعافاً للأمة وثرواتها وعقيدتها.. وحدث التحول الخطير من أمة علم إلى أمة معدمة حتى أصبحت اليوم توصف بأنها جزء من العالم النامي.. تستورد أكثر مما تنتج.

وإذا وازنا بين الإسلام وقوانين الغرب نجد أن الإسلام ينظر إلى المنفعة العامة والعدل والمساواة.. ولا عزلة فيه بين الدنيا والدين. لكن الغرب عزل الدنيا عن الدين، وجعل القوانين الوضعية أساساً لتنظيم المجتمع وتسيير شؤون الحياة.

وفي الإسلام قواعد للعدالة الاجتماعية لا عوج فيها أو اضطراب، وهدفه تحقيق وحدة متكاملة في الكون والحياة والإنسان. لكن الغرب افتقد سمة العدالة الاجتماعية وجعل الإنسان أسير المادة والشهوة، فانتشرت فيه اليوم الجرائم الاجتماعية والخلقية، والتعامل بنظام الربا والاحتكار والاستغلال، وكل هدف المرابي الحصول على أكبر فائدة مالية. في حين أن الإسلام يكره أن يكون المال دولة بين الأغنياء في الأمة.

ـ لم يواجه الغرب خطورة فكر الاستشراق؛ والباحثون في شؤون الاستشراق يطالعون كل ما يتعلق بالتراث الإسلامي من جوانبه الدينية واللغوية والتاريخية كافة، والأدب والفلسفة والفن.

وقام المستشرقون أيضاً بدراسة القرآن الكريم والسنة المطهرة، وسيرة الخلفاء الراشدين، وتعاليم الإسلام وآدابه ومذاهبه ودرسوا تاريخ سكان البلاد التي فتحها المسلمون وأحوالها الاجتماعية والسياسية والإدارية.

ولفكر الاستشراق كتب ومناهج وشمول ما بين نقد وتقريظ، وإعجاب وهجوم، وله أقلام وأدباء يسعون إلى خدمة مصالح بلدانهم.. ولهذا نرى طعناً في بعض تعاليم الإسلام، وتحريفاً للتاريخ الإسلامي، وتشويهاً لمبادئ الإسلام وثقافته، وإبرازاً لمعلومات خاطئة عنه وعن أهله.. وهذا الطعن هدفه إنقاص الدور الذي أداه ويؤديه الإسلام في تاريخ الثقافة الإنسانية.

وبعض المستشرقين ينظرون إلى الإسلام على أنه عدو الغرب.. أو العدو البديل للحضارة الغربية، بدعوى أن الإسلام: لا يقبل التعددية، ولا يلتزم الحقوق والواجبات...إلخ.

وكلها شعارات تتحرك بتضليل فكري، وزيف اجتماعي، والشعارات لا تحقق للإنسانية إنسانيتها، لأن التعصب والدمار والهلاك نمت من أفكار الغرب الاستعمارية، وسجل الفكر المادي دائم الانتهاك لحقوق الإنسان. فكيف يتحدث فكر الاستشراق عما يسمى نقاط ضعف في الإسلام، والإسلام يمتلك كل التوجهات الحضارية برؤية موضوعية، وهو يمتلك منطلقات وتوجهات، وهناك ترابط وثيق بينها؛ لأن شريعة الإسلام تغطي امتداد الزمان واتساع آفاق المكان عن وعي بالمرحلة والحضارة الإنسانية.

والأمة في ماضيها المجيد لم تكن تقلد الآخر، لكن نمت حالة من الضعف لغياب الرؤية الجادة لبعض المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتعليمية والتربوية. ولن ينهض العقل العربي إلا بتحقيق التواصل بين ماضيه وحاضره من أجل المستقبل الذي حققه الآخر بعلومه وابتكاراته. والعقل الإنساني المتطور هو الذي يمتلك خصائص الحركة الإيجابية، لأن التجديد في الفكر والحركة بحاجة إلى نظر وإطار فكري وعملي وحركة علمية تشمل شتى مجالات الحياة.. وتجديد العقل العربي يجب أن ينطلق من الإسلام كقاعدة تأسيسية، لأنه يرسم الحدود التي يجب البحث في داخلها وهو يرفض التخلف والفقر والتبعية والظلم والاستغلال؛ لأنه يمتلك قيماً حضارية رفيعة.

وإذا كان التراث العربي ضخماً امتدت آثاره عصوراً طويلة، فهل يقف المجتمع العربي والإسلامي عند حدود الإعجاب بالتراث والوقوف والجمود؟ أم يتحرك نحو الاطلاع بفهم والتزود بخيرات التراث وربطه بالعصر وكل أمور الحياة ومستجداتها، والتعمق في العلوم الحديثة واللحاق بركب الحضارة ليكون المجتمع العربي والإسلامي مشاركاً في الحضارة العالمية ليعدل من انحرافات أو اعوجاجات تلك الحضارة لفائدة خير الإنسان؟ إنه ليس هناك تعارض بين التراث والمعاصرة مادام التراث يعلي شأن القيم الأخلاقية والعلمية والفنية والجمالية الرفيعة.

وفي عالمنا العربي والإسلامي أسئلة حائرة، وحقائق غائبة هي التي أضعفت الحركة، وعلى الأمة أن تنظر إلى نقاط منها:

ـ مقاومة أنصار البدع والتضليل والجمود الفكري.

ـ مواصلة الجهاد العلمي من أجل نهضة العالم الإسلامي وتعزيز مكانته التاريخية في شتى المحافل الدولية وتطهيره مما علق به من شبهات وافتراءات من أفكار المستشرقين.

ـ الإسلام ينادي في كل النصوص القرآنية والسنة المطهرة بالعلم وأهميته في حياة البشرية.. ودوره في اكتشاف أسرار الكون وعجائبه.

ـ تحقيق شخصية العقل المسلم من أجل خدمة قضايا الأمة خاصة في مجالات التربية والتعليم والثقافة.

ـ امتلاك سبل البحث والتحليل بحوار صريح لتلافي أسباب تخلف الحاضر، لأن الأمة تمتلك وحدة الهدف والمضمون.

ـ التحاور بين بلدان الأمة من أجل الانفتاح والتغيير والتجديد والإصلاح في كل المؤسسات مع تكامل سياستها لمصلحة المجموع الإسلامي.

ـ امتلاك روح الحوار الشامل خاصة في مجال الديمقراطية أو الشورى الإسلامية، إن جاز التعبير، من أجل امتصاص كل التوترات الراهنة، وتطوير روح المسؤولية العامة، وإرساء مبادئ التضامن الإسلامي.

ـ امتلاك القوة من أجل المحافظة على الأمن القومي العربي والإسلامي خاصة في ظل تطوير صناعة الأسلحة، وأساليب إدارة الصراع العالمي ووسائلها، والعلاقات الدولية، ولاسيما أن خصوم الأمة العربية والإسلامية يستخدمون القوة العسكرية لكسر إرادة الأمة وفرض الشروط عليها.

ـ امتلاك القوة الاقتصادية لمواجهة تكتلات عالم اليوم، وهي تكتلات لا ترى غير مصالحها، والاقتصاد والتكنولوجيا هما أسلحة العصر وعماد المستقبل؛ لذلك يسعى الآخر لرسم سياسات وخطط تضعف من حركة الأمة.

ـ على بلدان الأمة أن تقوم بقراءة جادة لمتغيرات العصر تحقق وحدة الأمة، وتتكيف مع الواقع المعيشي.

يحيى السيد النجار
مصر ـ دمياط ـ شارع الجلاء ـ محل أبو حجازي للصحف
الرمز البريدي ٣٤١١١

الملف الثقافي

انطلاق فعاليات الجنادرية (١٦)

رحيل الشيخ ابن عثيمين

إعلان أسماء الفائزين بجائزة الملك فيصل العالمية

فرناند ليجيه والفن الإفريقي

افتتاح معرض القاهرة الدولي للكتاب

محنة «الآداب» اللبنانية



خاتمة المطاف: المصطلح الطبي عند العرب

انطلاق فعاليات الجنادرية (١٦)


الأمير عبدالله بن عبد العزيز

نيابة عن خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز افتتح صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني في ١٢ شوال الموافق ١٧ يناير/ تشرين الأول الماضي فعاليات المهرجان الوطني للتراث والثقافة «الجنادرية» في دورته السادسة عشرة.

ويتضمن المهرجان عدداً كبيراً من الفعاليات الثقافية المنوعة التي تضم الأوبريت والندوات والمحاضرات والأمسيات الشعرية والعروض المسرحية والفنون التشكيلية وغيرها.

ويتضمن اليوم الأول للمهرجان سباق الهجن الرئيس ثم الحفل الخطابي وإلقاء شعرياً من الدكتور أحمد السالم من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ثم قصيدة للشاعر الشعبي خلف بن هذال العتيبي ثم أوبريتاً غنائياً شارك فيه أول مرة فنانون من دول مجلس التعاون الخليجي بالإضافة إلى الفنانين السعوديين، وكتب كلمات الأوبريت الشاعر مساعد الرشيدي ولحنه الفنان السعودي رابح صقر.

ويبدأ النشاط الثقافي في يوم الخميس (١٣ شوال) بحفل خطابي يتضمن قصيدة عن المناسبة للشاعر محمد هاشم رشيد، ثم الندوة التكريمية للأستاذ عبدالكريم الجهيمان الشخصية الثقافية التي كرمها المهرجان هذا العام.

ومن المحاضرات التي يشتمل عليها المهرجان محاضرة بعنوان «الحوار العربي - العربي» للدكتور أسامة الباز المستشار السياسي للرئيس المصري، ومحاضرة بعنوان «مستقبل المملكة بعد جيل» بمشاركة كل من وزير الحج إياد مدني، ووزير العمل والشؤون الاجتماعية د. علي النملة، والدكتور حمود البدر الأمين العام لمجلس الشورى، والدكتور صالح العذل رئيس مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية، ود. إحسان بو حليقة، ومحاضرة «الحركة الفكرية في جنوب المملكة» للدكتور عبدالله أبو داهش، وندوة: «الحوار الإسلامي - الإسلامي» لكل من د. عبدالله العبيد، ود. عبدالعزيز عثمان التويجري، ود. عطا الله المهاجراني، وحسين شحادة.

ويشتمل المهرجان على عدد من الأمسيات الشعرية منها: أمسية شعرية فصحى لكل من الشعراء: أحمد الصالح، إسماعيل عقاب، وعبد الرفيع جواهري، ووليد قنباز.

ومن عناوين المحاضرات الأخرى: «الإنسان والمجتمع في الرؤية الإسلامية مقارناً بالأفكار العولمية الجديدة» لكل من د. محمد عمارة، ود. سعيد بن سعيد، ود. عصام كوثر، ومحاضرة «الإسلام وإفريقية» للأستاذ أحمد ليمو، و«مستقبل الاقتصاديات الإسلامية في عصر الاقتصاد العالمي الجديد» بمشاركة كل من: د. عارف حسن، ود. محمد عمر شابرا، ود. أحمد محمد علي، ود. عباس ميراخور، و«الشورى في النظام الإسلامي ومقارنتها بالنظم الغربية الأخرى» لمحمد بن جبير رئيس مجلس الشورى، ومحاضرة عن «العلاقات الدولية وقضايا الحرب والسلام في الرؤية الإسلامية مقارنة بالأوضاع الدولية الراهنة والنظر في إمكانية تطوير الأمم المتحدة» بمشاركة كل من: د. عدنان الوزان، والأستاذ فهمي هويدي، ود. الأخضر الإبراهيمي، ود. أحمد كمال أبو المجد، ود. هيثم الكيلاني، و«رعاية الموهوبين في العالم العربي التحدي والتطلعات» لكل من: د. عبدالله النافع، و د. فتحي جروان، ود. عبدالله الأحمر، و«الشورى في التاريخ الإسلامي وتطبيقاتها في المملكة» لكل من: د. بندر الحجار، ود. صالح بن حميد، ود. عبدالرحمن الأنصاري، ود. صالح المالك، ود. عبدالرحمن الجعفري.

وأمسية شعرية فصحى أخرى للشعراء فاروق جويدة، وإبراهيم الحضراني، ود. صالح المالك، ومحمد بن علي العامري.

ويشتمل النشاط الثقافي النسائي لهذا العام على ندوة بعنوان: «الإنسان والمجتمع في الرؤية الإسلامية مقارناً بالأفكار العولمية الجديدة» بمشاركة كل من: الأميرة الجوهرة بنت فيصل بن تركي، والدكتورة حصة الزيد، والدكتورة عزة الراشد، والدكتورة أفراح الحميضي، وتديرها د. رقية المحارب، و«دور المرأة السعودية في التنمية الاجتماعية والاقتصادية» للأميرة الجوهرة بنت فهد بن محمد بن عبدالرحمن، وتديرها الأستاذة جواهر عبدالعال، و«تمثيل المرأة المسلمة في المؤتمرات الدولية، ولا سيما الخاصة

بالطفل والمرأة والأسرة: ضرورته وعوائقه ونتائجه»، والإدارة للدكتورة منيرة عبدالعزيز، وبمشاركة كل من د.وفاء العساف، وإيمان السعدون، ود.نوال المسيري، وهناك أمسية نسائية أدبية تديرها د.موضي السبيعي بمشاركة كل من خديجة الصبان، ورسمية العيباني، وإنصاف بخاري، وندى القاضي.

ويطرح معرض الفن التشكيلي المصاحب لمهرجان هذا العام قضية القدس والانتفاضة الفلسطينية والمقدسات الإسلامية، كما أن هناك خمسة عشر عرضاً مسرحياً من مختلف مناطق المملكة.

رحيل الشيخ ابن عثيمين



الشيخ ابن عثيمين

فقدت المملكة العربية السعودية والأمة الإسلامية يوم الأربعاء ١٥ من شوال ١٤٢١هـ الموافق ١٠ يناير ٢٠٠١م، فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين عضو هيئة كبار العلماء وإمام وخطيب الجامع الكبير بعنيزة، الذي توفي بمستشفى الملك فيصل التخصصي بجدة، عن عمر ناهز ٧٥ عاماً بعد معاناة طويلة مع مرض السرطان، وقد صُلي عليه في المسجد الحرام، ودفن في مدافن العدل بمكة المكرمة.

ولد الشيخ عام ١٣٤٧هـ، وقرأ القرآن على جده لأمه الشيخ عبدالرحمن السليمان الدامغ، ثم التحق بمدرسة تعلم فيها الكتابة والفقه والحساب وبعض فروع الأدب، ودرس في الجامع الكبير - الذي أصبح إمامه فيما بعد - على الشيخ محمد بن عبدالعزيز المطوع، كما درس على الشيخ عبدالرحيم بن علي بن عودان حال توليه قضاء عنيزة، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي، والشيخ علي بن حمد الصالحي، وتوج دراسته على يد شيخين جليلين هما الشيخ عبدالرحمن بن سعدي وقد لازمه كثيراً، والشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز رحمهم الله. وحصل على شهادة الثانوية من المعهد العلمي بالرياض سنة ١٣٧٤هـ، وواصل دراسته منتسباً في كلية الشريعة.

تولى الشيخ إضافة إلى إمامة وخطابة الجامع الكبير في عنيزة التدريس في المعهد العلمي، ومكتبة عنيزة الوطنية، وفي كلية الشريعة وأصول الدين، وإلقاء درس دوري طيلة ٣٥ عاماً في المسجد الحرام ضمن الدروس التي تنظمها إدارة الوعظ والتدريس بالحرم المكي لأعضاء هيئة كبار العلماء واللجنة الدائمة للإفتاء. وأسس جمعية تحفيظ القرآن الكريم بعنيزة عام ١٤٠٥هـ وتولى رئاستها، وقد فاز بجائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام سنة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

وقد تجاوز عدد مؤلفات الشيخ ٥٠ مؤلفًا ما بين كتاب ورسالة، تعد مراجع في الفقه وأصوله والمصطلح ومن أبرزها: «فتح رب البرية بتلخيص الحموية»، و«تفسير آيات الأحكام»، و«الوصول في علم الأصول»، و«مجالس رمضان»، و«الأضحية والزكاة»، و«المنهج لمريد الحج والعمرة»، و«تسهيل الفرائض»، و«شرح لمعة الاعتقاد»، و«شرح الواسطية»، و«عقيدة أهل السنة والجماعة»، و«القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى»، و«نيل الأرب من قواعد ابن رجب»، و«الضياء اللامع من الخطب الجوامع»، و«رسالة في كفر تارك الصلاة»، و«رسالة في سجود السهو»، و«رسالة في وجوب زكاة الحلي»، إضافة إلى الفتاوى.

وكان ابن عثيمين يسير على منهج شيخه عبدالرحمن بن ناصر السعدي الذي يتبنى آراء شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ويرجحهما، فلم يكن جامداً على مذهب بعينه؛ بل كان متجرداً للحق.

وعرف أيضًا بالورع والزهد في الدنيا، وحب الخير، والعمل لمصلحة المسلمين والنصح لهم، وقربه من الشباب وحثهم على الأخذ بمعطيات التقنية الحديثة في العلم والمعرفة والدعوة إلى الله.

وقد حظي الشيخ ابن عثيمين بحب الناس واحترامهم، ويذكر بهذا الصدد أنه لم تكد الدقائق الأولى تمر على وفاة الشيخ في جدة؛ حتى وصل الخبر إلى المصلين في المسجد النبوي الشريف في أثناء بدء التفافهم حول حلقة الشيخ أبي بكر الجزائري العلمية، وفور وصول الخبر إلى مسامع الشيخ الجزائري - الذي كان يتابع حالة الشيخ ابن عثيمين - لهج يدعو له بالرحمة والمغفرة في دعاء التف حوله المصلون الذين انتهوا في الحال من صلاة المغرب، وتواصل الدعاء من الجميع حتى ذرفت الدموع، وما هي إلا لحظات حتى انتشر الخبر في أرجاء المدينة المنورة كافة.

إعلان أسماء الفائزين
بجائزة الملك فيصل العالمية


الأمير خالد الفيصل

أعلن صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل بن عبدالعزيز أمير منطقة عسير ورئيس هيئة جائزة الملك فيصل العالمية والمدير العام لمؤسسة الملك فيصل الخيرية أسماء الفائزين بجائزة الملك فيصل العالمية لهذا العام (١٤٢١هـ/٢٠٠١م) بفروعها الأربعة، مساء الثلاثاء ١٦ رمضان الماضي (١٢ ديسمبر/كانون الأول)، وقد حجبت جائزة الدراسات الإسلامية للمرة السادسة منذ تأسيس الجائزة وكان موضوعها الدراسات التي عنيت بكتب الفتاوى «النوازل» لعدم أهلية الترشيحات للحصول عليها.

وقد رحب صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل في مستهل كلمته بالحضور من أصحاب السمو الملكي الأمراء والمعالي الوزراء وكبار المسؤولين والمدعوين، كما رحب سموه برئيس وأعضاء مجلس الشعب الصومالي الذين حضروا هذه المناسبة، وقدم سموه شكره لخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز، وسمو ولي العهد، وسمو النائب الثاني لدعمهم المستمر ورعايتهم المتواصلة والكبيرة لمؤسسة الملك فيصل الخيرية ولهيئة جائزة الملك فيصل العالمية، ولجميع الأعمال الخيرية التي تقوم بها هذه المؤسسة وفروعها، كما شكر جميع أعضاء لجان الاختيار الذين اجتمعوا مؤخراً في الرياض لاختيار الفائزين بجائزة الملك فيصل العالمية لهذا العام.

بعد ذلك تلا الدكتور عبدالله العثيمين الأمين العام للجائزة تقرير الأمانة العامة للجائزة وأسماء الفائزين.

وقد نالت جائزة فرع خدمة الإسلام «الهيئة العليا لجمع التبرعات لمسلمي البوسنة والهرسك في المملكة العربية السعودية التي أنشئت بأمر ملكي كريم سنة ١٤١٢هـ نتيجة للمأساة الكبيرة التي حلت بالمسلمين في تلك البلاد، وأسندت رئاستها إلى صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز أمير منطقة الرياض.

وتناصف جائزة الأدب العربي وموضوعها «الدراسات التي تناولت فنون النثر الأدبي الحديث» كل من الأستاذ الدكتور منصور إبراهيم الحازمي السعودي الجنسية والأستاذ الدكتور إبراهيم عبدالرحيم السعافين الأردني الجنسية.

وفاز بجائزة فرع الطب وموضوعها «زراعة الأعضاء» كل من الأستاذ الدكتور سير روي يورك كالن البريطاني الجنسية، أستاذ الجراحة، غير المتفرغ بجامعة كمبردج، والأستاذ الدكتور نورمان إدوارد شموي الأمريكي الجنسية، أستاذ جراحة الصدر بجامعة ستانفورد، والأستاذ الدكتور توماس إيرل ستارزل الأمريكي الجنسية أستاذ الجراحة بكلية الطب بجامعة بتسبيرج.

وتناصف الأستاذ الدكتور ساجيف جون الكندي الجنسية، الأستاذ في قسم الفيزياء بجامعة تورونتو، والأستاذ الدكتور تشن ننغ يانغ الأمريكي الجنسية، أستاذ كرسي ألبرت أينشتاين في جامعة نيويورك بستوني بروك، جائزة العلوم وموضوعها «الفيزياء»

ثم أعلنت موضوعات الجائزة للسنة القادمة (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م)، فكانت كالآتي: الدراسات الإسلامية: «الدراسات التي عنيت بمقاصد الشريعة»، والأدب العربي: «الدراسات التي تناولت الأدب العربي الفلسطيني الحديث في تاريخه أو كتبه أو رجاله أو قضاياه»، والطب: «الخلل الوظيفي لقصور القلب المزمن»، والعلوم: (الرياضيات).

عقب ذلك عقد صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل مؤتمراً صحفياً أجاب فيه عن أسئلة الصحفيين مؤكداً أن المؤسسة والجائزة دائماً تضعان جميع المعلومات أمام الجهات الإعلامية كافة في العالم العربي وأنحاء العالم للتعريف بها وبنشاطاتها وإنجازاتها، واستبعد سموه إمكان إنشاء قناة تلفازية للمؤسسة للتكلفة العالية لمثل هذه القناة، ولكن يمكن الاستعاضة عن ذلك بتعاون المؤسسة مع بعض القنوات لتبث المؤسسة من خلالها نشاطاتها.

واستبعد سموه كذلك قيام حفل بمناسبة مرور ٢٥ عاماً على تأسيس المؤسسة الذي يوافق العام القادم، وقال سموه: إنه في كل عام تقيم المؤسسة احتفالاً لها من خلال الجائزة.

انطلاق الجامعة العربية المفتوحة



الأمير طلال بن عبد العزيز

وقع صاحب السمو الملكي الأمير طلال بن عبدالعزيز رئيس برنامج الخليج العربي لدعم منظمات الأمم المتحدة الإنمائية (أجفند) ورئيس الجامعة العربية المفتوحة يوم الثلاثاء ٩ يناير الماضي في الكويت مذكرة تفاهم مع وزير التربية والتعليم العالي الكويتي الدكتور يوسف الإبراهيم، بشأن الحقوق والتسهيلات والامتيازات التي تقدمها الكويت للجامعة المفتوحة التي أعلنت في ديسمبر / كانون الأول الماضي ٢٠٠٠م الكويت مقراً لها، ويتوقع أن تبدأ الدراسة في الجامعة العربية المفتوحة في أكتوبر/ تشرين المقبل، وتبلغ تكلفتها في مرحلتها الأولى ٣٢ مليون دولار، وسيضطلع برنامج الخليج العربي بمهمة تمويل الجامعة إلى جانب مساعدات فنية يتلقاها البرنامج من منظمات دولية في مقدمتها البنك الدولي، وتم ضمن الهيكل التنظيمي للجامعة وضع نظام صندوق لمساعدة الطلبة غير القادرين.

كما يوقع الأمير طلال مذكرة تفاهم مع السيرجون دانيال رئيس الجامعة البريطانية المفتوحة ورئيس مجلس إدارة الجامعة المفتوحة العالمية. وذلك لدعم مجالات التعاون الأكاديمي والتشغيلي بين الجامعة العربية المفتوحة والجامعة البريطانية المفتوحة التي بموجبها ستستفيد الجامعة العربية من المناهج والمواد والحقوق الفكرية الخاصة بالجامعة البريطانية المفتوحة، إضافة إلى اعتماد الأخيرة الدرجات العلمية والشهادات التي تصدرها الجامعة العربية المفتوحة، من خلال برنامج مقنن للاعتماد يتضمن الإشراف على تنفيذ البرامج الأكاديمية وتقويمها. يذكر أن الجامعة ستبدأ مرحلتها الأولى بأربعة تخصصات هي: إدارة الأعمال بفروعها المختلفة، وعلوم الحاسب الآلي، وتقنية المعلومات، واللغة الإنجليزية، وبرامج إعداد المعلمين، وتتنوع البرامج التي تقدمها الجامعة ضمن هذه التخصصات لتشمل البرامج التي تؤدي إلى الحصول على درجة البكالوريوس، إضافة إلى برامج التأهيل والتدريب، وتقوم الجامعة بتقديم برامج التعليم المستمر في التخصصات المختلفة وفق دراسة الحاجات المستجدة لمتطلبات سوق العمل في الدول العربية.

الجهيمان: الشخصية الثقافية للجنادرية

أعلن صاحب السمو الملكي الأمير متعب بن عبدالله بن عبدالعزيز نائب رئيس اللجنة العليا للمهرجان في مؤتمر صحفي عقده في ١٤ شوال الماضي بمناسبة انطلاق الدورة السادسة عشرة للجنادرية أن الأستاذ الأديب عبدالكريم الجهيمان هو الشخصية الثقافية المختارة في هذا العام.

ويعد الجهيمان بذلك الشخصية الثقافية السادسة التي يتم تكريمها في الجنادرية منذ بدء هذا التقليد في سنة ١٤١٦هـ، إذ سبق تكريم كل من الأساتذة حمد الجاسر، ومحمد بن أحمد العقيلي، وحسين عرب، ومحمد حسن فقي، ويحيى المعلمي.



عبدالكريم الجهيمان

والأديب عبدالكريم الجهيمان من مواليد شقراء، ومع أنه لا يعلم تاريخ ميلاده تحديداً إلى أنه يرجح هو نفسه أن يكون قد ولد سنة ١٣٣٣هـ، ويروي في كتابه «مذكرات وذكريات» أن له ابن خالة يصر على أنهما من مواليد سنة ١٣٣٠هـ، ويلومه على إخفائه الحقيقة، ورده: «أن هذا ليس كذباً.. ولا ضرر فيه على أحد فهو كذب أبيض إذا كان في الكذب شيء أبيض».

وبعد أن درس في كُتَّاب القرية، ذهب إلى الرياض للدراسة في أحد مساجدها كما جرت العادة في ذلك الزمان، فتعلم النحو وعلم الفرائض وعلم الفقه وحفظ الأجرومية في النحو والرحبية في علم الفرائض وآداب المشي إلى الصلاة، وسافر إلى مكة المكرمة للاستزادة من العلم، فعمل في قوة الهجانة بمكة لتوفير متطلبات الدراسة، وواصل القراءة وطلب العلم على بعض المشايخ في الحرم المكي، وعند افتتاح المعهد العلمي السعودي كان من ضمن الدفعة الأولى التي اختيرت للالتحاق به، وتخرج فيه سنة ١٣٥١هـ (١٩٣١م) بعد ثلاث سنوات من الدراسة، وفي السنة نفسها رافق الشيخ محمد بن عثمان الشاوي في تربة مدة سنة، وعمل بعد ذلك مدرساً في مدارس المعلى بمكة المكرمة في سنة ١٣٥٣هـ؛ وبعد سنة انتقل للعمل في المدرسة الفيصلية في حارة الشبيكة في مكة المكرمة، والتحق بعد ذلك للعمل في مدرسة تحضير البعثات والمعهد العلمي السعودي.

وبعد أن ترك مكة جاء إلى الدوادمي فعمل بالتجارة، ثم انتقل إلى الخرج لإدارة المدرسة التي أنشأها الوزير عبدالله السليمان

في أواخر سنوات الحرب العالمية الثانية (١٣٦٢هـ)، ثم عمل في السنة التي تليها فترة قصيرة في مدرسة أنجال سمو ولي العهد آنذاك الأمير سعود. وسافر إلى مصر ولبنان وفرنسا وهولندا وإيطاليا وسويسرا وبعض الدول الأخرى، وكان لذلك أثر كبير في فتح مداركه، وتولى إدارة شركة للطباعة أنشأها الأستاذ عبدالله الملحوق بالمنطقة الشرقية باسم «شركة الخط للطبع والنشر»، وصدرت عنها «أخبار الظهران»، فكانت أول جريدة تصدر في المنطقة الشرقية، وكانت تطبع في البداية في لبنان، ثم بدأت تطبع في الدمام، وتولى الجهيمان رئاسة تحريرها مدة ثلاث سنوات، ثم جاء إلى الرياض فعمل مديراً للتفتيش الإداري بوزارة المعارف في سنة ١٣٧٧هـ، إلى جانب الكتابة في صحيفة «اليمامة»، وجمع الجهيمان ماكتبه في اليمامة في كتاب بعنوان «أين الطريق»؟.

وبعد ترك «اليمامة» بدأ يكتب في صحيفة «القصيم»، وفي سنة ١٣٨١هـ أعير للعمل في وزارة المالية، وشارك في إصدار مجلة لها باسم «المالية والاقتصاد».

وبعد أن أحيل إلى التقاعد انصرف إلى الكتابة والتأليف، وأبدى اهتماماً كبيراً بالتراث، فشرع في جمع الأمثال والأساطير الشعبية، وعن أسباب هذا الاهتمام يقول: «أكثر ما دفعني إلى هذا الصنيع أن حياتنا بدأت تتغير.. وأن مجتمعنا بدأ في تطور جديد، وأن هذه الأجيال بدأت تجهل عن ماضينا الشيء الكثير.. فرأيت من الخير لبلادي أن أسجل هذه الدراسة التي إن أُهملت في الوقت الحاضر فسوف تذهب في طوايا النسيان».

ومما ألفه: «دخان ولهب»، و«أين الطريق»، و«آراء فرد من الشعب»، و«أساطير شعبية من قلب جزيرة العرب»، ويقع في خمسة مجلدات، وترجمت إلى اللغة الروسية، و«مكتبة الطفل في الجزيرة العربية»، و«مكتبة أشبال العرب» وهي من سلسلة من قصص الأطفال، و«الأمثال الشعبية في قلب جزيرة العرب» في عشرة مجلدات، و«ذكريات باريس»، و«دورة مع الشمس»، وهما من أدب الرحلات، و«أحاديث وأحداث»، ورسالة صغيرة باسم «محاورة بين لحية ومحلوقها»، و«مذكرات وذكريات من حياتي»، وهو سيرة ذاتية للأديب، و«رسائل لها تاريخ من شخصيات بارزة في المجتمع وتعتبر جزءاً من تاريخ بلادي»، ويجمع رسائل مرسلة إليه في بداية حياته العملية قبل ستين عاماً، وتحت الطبع ديوان بعنوان «خفقات قلب».

وألف الجهيمان كثيراً من المقررات الدراسية منفرداً ومشاركاً للأستاذ عمر عبدالجبار في الفقه والحديث والمطالعة والتهذيب وغيرها، ويمارس حالياً الكتابة في الصحف والمجلات وله زاوية بعنوان «أحاديث وأحداث» بالملحق الثقافي لصحيفة «الجزيرة». وقد رشح الأديب عبدالكريم الجهيمان الباحث ناصر الحميدي لإعداد وكتابة نبذة من سيرته الذاتية وتقديمها في الأمسية الثقافية التي تقام تكريماً له.

دورة عن تزوير المخطوطات



غلاف النشرة التعريفية

ينظم معهد الفيصل لتنمية الموارد البشرية التابع لمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية دورة تخصصية عن التزوير في المخطوطات والوثائق، وذلك في الفترة من ٢ ذي القعدة الجاري إلى ٢٠ من الشهر نفسه.

وتهدف الدورة إلى كشف المزورين وطرائق التزوير والأساليب التي يتبعونها، والكيفية التي تُخرج عليها المخطوطات المزورة، وتزويد المتدربين بالمهارات اللازمة للتعرف إلى المخطوطات المزورة، وإطلاع المتدربين على بعض التجهيزات الحديثة التي تساعد على كشف التزوير.

وتعرّف الدورة بالورق وأنواعه وتطوره التاريخي، والأحبار وأنواعها وطرائق تركيبها، وأنواع الخطوط وخصائص كل منها.

كما تتناول الدورة التزوير في الرقوق والمواد التي يصنع منها، وطرائق تزويرها، وأشكال التزوير في المخطوطات وكيفية اكتشافها، والتزوير في الأدبيات المكتوبة، والتزوير في العصر الحديث وأدواته، وأسباب رواج تجارة المخطوطات حالياً.

ويأتي عقد هذه الدورة للتنبيه على ما للتزوير من خطر على تراث الأمة من المخطوطات والوثائق، وما يتعرض له هذا التراث من هجمة شرسة بدوافع كثيرة منها ما هو عقائدي، الهدف منه الطعن في الإسلام وتشويه صورته البهية، ومنها ما هو مادي يتمثل فيما يقوم به ضعاف النفوس من الورّاقين وأدعياء العلم وتجار الكتب من تزوير؛ طلباً للكسب المادي غير المشروع، ومنها ما هو أدبي كأن ينتحل أحد الكُتّاب بعض ما

جاء في كتاب لمؤلف آخر وينسبه إلى نفسه، أو أن يقلد أحد النساخ كتابة خطاط مشهور ثم يبيع ما كتبه بثمن باهظ بدعوى انتسابه إلى ذلك الخطاط المشهور، وغير ذلك من أنواع الانتحال والسرقة الأدبية.

ويقوم بتناول هذه الموضوعات أساتذة متخصصون من أمثال الأستاذ الدكتور قاسم السامرائي، والأستاذ الدكتور عبدالستار الحلوجي، والأستاذ الدكتور عباس صالح طاشكندي، وغيرهم.

وقد التحق بهذه الدورة عدد كبير من المتدربين من المملكة العربية السعودية، وباقي دول مجلس التعاون الخليجي.

في سبيل حفظ التراث العربي وتداوله



عباس طاشكندي

كلفت الهيئة العربية المشتركة للتراث التابعة لجامعة الدول العربية عدداً من المختصين للبدء في اتخاذ خطوات جادة وعملية لإنشاء شبكة عربية لمعلومات التراث المخطوط بهدف الحفاظ على التراث العربي المخطوط، وتمكين الباحثين من تداوله آليّا، وتنظيم عمل المراكز العلمية البحثية المعنية بجمع التراث وحفظه والتنسيق فيما بينها. وجاءت أولى خطوات الهيئة في مخاطبة بعض المراكز البحثية ومراكز حفظ التراث في الوطن العربي، تدعوها للمشاركة في هذا العمل حسب نظام وخطة تنفيذيين موحدين؛ تلافياً للتكرار.

وقد بادرت بعض المراكز العلمية العربية إلى إجابة دعوة الهيئة العربية المشتركة لإنشاء شبكة عربية لمعلومات التراث المخطوط، وعلى رأس تلك المراكز مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض، ومركز جمعة الماجد للتراث والمخطوطات في دبي.

وفي حديث لجريدة الوطن السعودية مع الأستاذ الدكتور عباس طاشكندي - أستاذ علم المكتبات والمعلومات وعميد شؤون المكتبات بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة، وأحد الأعضاء المكلفين بالهيئة العربية المشتركة للتراث - ذكر أن جدوى إنشاء الشبكة العربية لمعلومات التراث المخطوط مرهونة باعتماد ثلاث مراحل: الأولى تتمثل في التخطيط لوضع خطة شاملة تستهدف تعرف حجم التراث العربي المخطوط المتوافر حول العالم وتقويمه (صناعة وتأليفاً)، بينما تهتم المرحلة الثانية بوضع برامج التنسيق والتعاون بين المراكز العربية التي تضم مجموعات من التراث العربي من خلال برامج حقيقية تتولى وضعها جهة مركزية، وتهتم المرحلة الثالثة بتداول النصوص آليّا واستثمار هذا التداول ماديّا؛ مما يتيح إمكانات التطوير المستمر لهذه الشبكة.

وفاة أمين عزالدين

توفي مع مطلع عام ٢٠٠١م المفكر والمؤرخ البارز للحركة العمالية المصرية أمين عزالدين عن عمر يناهز ٧٨ عاماً، وهوأحد أبرز القيادات الشعبية والعمالية، وقد أمضى عمره في خدمة الحركة العمالية المصرية. تولى عزالدين مواقع قيادية مختلفة في مصلحة العمل والضمان الاجتماعي، وكذلك التنظيمات السياسية، كما سبق له العمل في مكتب الشؤون العربية برئاسة الجمهورية، وأسهم في صياغة التشريعات العمالية حتى عام ١٩٧٠م، ووضع الأسس التي قام عليها اتحاد عمال مصر، وقد حصل أمين عزالدين على ليسانس الآداب من جامعة القاهرة، وعلى الماجستير من جامعة أكسفورد البريطانية في الدراسات العمالية، وألف عدداً من الكتب يأتي في مقدمتها «تاريخ الطبقة العاملة المصرية» وذلك في ثلاثة ٣ أجزاء.

برج أيوبي جديد

كشفت الآليات والحفارات «مصادفة» في أواخر عام ٢٠٠٠م عن برج أثري، بينما كانت تعمل في حفر نفق للمشاة وبناء جسر للسيارات في المدخل الشمالي للعاصمة السورية دمشق، وقامت على الفور مديرية الآثار العامة بالتنسيق مع محافظة مدينة دمشق ورئاسة مجلس الوزراء بالعمل على إظهار هذا البرج والمحافظة عليه.

وكشف الدكتور ميشال مقدسي مدير التنقيب في مديرية الآثار العامة السورية أن البرج يعود إلى العهد الأيوبي (عام ٦٢٣هـ) فترة حكم الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل. وهو يمثل منشأة ضخمة بتحصينات كبيرة، يبلغ طول واجهتها نحو ٢٠ متراً، وعرضها يصل إلى ١٦ متراً، والبرج محصن بشكل ممتاز ويوجد أمامه خندق عريض يتجاوز عرضه ١٥ متراً. وهو من الناحية المعمارية: برج مستطيل الشكل له قاعدة عريضة ومؤسس على تربة حرة قاسية جداً، وتصل ارتفاعات مداميكه إلى نحو ٩٠ سم، كما أنه من الحجارة البيضاء المشذبة بشكل جيد مرتبط بالسور.

وعن مدى الاستفادة السياحية من البرج مع بناء الجسر والنفق قال الدكتور مقدسي: جرى العمل على المحافظة عليه بشكل كامل مع السور، وسيغطى البرج ويستحدث درج لدخوله وزيارته، إلى جانب إنارته بشكل تراثي جميل، وسيصبح مكاناً مهماً لجذب السياح، وسيُنجز هذا المشروع خلال السنتين المقبلتين، ومن ثم سيكون هذا البرج نقطة زيارة للسياح، حيث سيزار مع ما يجاوره من أوابد أثرية خاصة باب شرقي وكنيسة حنانيا، وسيكون موقع البرج تحت ممر (رصيف) المشاة وبجانب نفق السيارات الذي يسير بجانبه؛ بحيث يشكل منظراً جميلاً للعابر بسيارته بجانبه، إذ سيلاحظ ويشاهد البرج وهو يعبر النفق بالسيارة.

الواجهة الشرقية



معبد بارثينون

تطالب اليونان بريطانيا منذ سنوات باستعادة الواجهة الشرقية لمعبد «بارثينون» الذي شُيِّد في القرن الخامس قبل الميلاد لآلهة الحكمة أثينا، وتؤكد أنها انتُزعت في عام ١٨٠١م على يدي اللورد توماس بروس ألجين الذي كان سفيراً لبريطانيا لدى الباب العالي، ولكن بريطانيا التي تحتفظ بالمسروقات في متحفها في لندن ترفض إعادتها، وتقول: إن الأجزاء المنحوتة من الواجهة الشرقية للمعبد تم شراؤها «بصورة شرعية» من الإمبراطورية العثمانية التي كانت تحتل المنطقة آنذاك.

وقد تشكلت لجنة دولية لإعادة منحوتات بارثينون يتولى أمانة سرها الكندي ستيف أشتون الذي طالب الحكومة البريطانية بشكل رسمي في منتصف يناير/كانون الثاني الحالي باستعادة المنحوتات المرمرية، وأكد القول: «سننجح، وفي عام ٢٠٠٤م عندما تنظم الألعاب الأولمبية في أثينا، ستكون هذه المنحوتات قد عادت إليها».

كارثة المخطوطات العراقية

يشهد العراق كارثة حضارية لم تُعرف من قبل، إذ بدأت مخطوطاتها العربية والإسلامية النادرة بالظهور في دمشق وعمان في محلات بيع الانتيكات والحلي القديمة - إثر عمليات تهريب واسع النطاق - ومنها تنتقل إلى أوربا على أيدي تجار أوربيين، كما تباع أيضاً إلى تجار يهود.

صرح بذلك لصحيفة الشرق الأوسط - في عددها رقم ٨٠٧٦ الصادر في السابع من يناير عام ٢٠٠١م - الخبير بشؤون المخطوطات العربية والإسلامية باسم السيد علي المقيم حالياً في دمشق مؤكداً أن مخطوطات نادرة تخص تاريخ العراق في العهد الملكي، ونوادر بالخط الكوفي، وأجزاء من القرآن الكريم يعود تاريخها إلى أكثر من ألف سنة، ومخطوطات أخرى تختص بالفقه والنحو، ومخطوطات تبحث في الجغرافيا والفلك والرياضيات كانت محفوظة في «دار صدام للمخطوطات» التابعة لوزارة الثقافة والإعلام العراقية، وفي مكتبات مدينة النجف، وفي مكتبة جامع الخلاني، وجامع الأصفية، وفي مسجد الحضرة القادرية، ومكتبة الشيخ عبدالقادر الجيلاني - اختفت بشكل غريب، وظهر قسم منها في عمان ودمشق واسطنبول، حيث تباع للمتاحف والمكتبات الغربية وللمهتمين بالمخطوطات الإسلامية والعربية.

وتابع السيد علي: «إنه خلال وجوده في عمان، وقبل مغادرته للاستقرار في دمشق فوجئ بمن يعرض عليه بعض المخطوطات الإسلامية المهمة المهربة من العراق بقصد تقويمها وبيعها في أوروبا، ولدى تعمقه في البحث هناك وجد أن بعض المحلات المتخصصة في بيع الأنتيكات والحلي القديمة تعرض بعض المخطوطات الإسلامية التي يعود تاريخها إلى أكثر من ألف سنة، إلى جانب مخطوطات وآثار ذهبية وفضية عبرية جرى تهريبها من كنس يهودية ببغداد والبصرة وبيعت لتاجر إسرائيلي يتردد عادة على محلات الأنتيكات في عمان، وعد ذلك خسارة؛ إذ إن هذه الآثار والمخطوطات هي جزء من تاريخ العراق والعرب والمسلمين».

المومياء ليست لرمسيس

أعلن بعض الباحثين في جامعة إيموري مطلع عام ٢٠٠١م - بعد دراستهم لعشر مومياوات أثرية محفوظة في متحف إيموري باستخدام الأشعة المقطعية للكشف عن أسرارها - أن إحدى هذه المومياوات هي للملك رمسيس الأول مؤسس الأسرة

اللبنانية ورئيس تحرير مجلة «الثقافة النفسية» بورقة تحت عنوان «اللغة العربية واللغات الأخرى» ذكر فيها أن التراث اللغوي عند العرب يحفل بالكثير من المفكرين والفلاسفة واللغويين الذين اهتموا بملاحقة العلاقة بين اللغة والذات، وبين المعنى واللفظ، وبين اللسان والفكر، وكانوا ينطلقون في ذلك من النص القرآني الكريم الذي يرون فيه أساس البيان، ومنبع البلاغة. كما شدد على أن الترجمة تعد عملية معقدة لا ترتبط بالكلمة ومقابلاتها فحسب، وإنما ترتبط بالخطاب وبعملية التواصل.

وانتقد حركة الترجمة العربية لاهتمامها بترجمة العلوم الإنسانية والإنتاج الأدبي أكثر من ترجمة العلوم الأساسية، كما أن المحاولات التي بُذلت لتحويل هذه الحركة في الاتجاه العلمي اقتصرت على مسألة المصطلح، وكأن هذه المشكلة تنحصر في إطار اللغة العربية وفي غياب المفردات العملية المناسبة.

آثار «الجوف ـ حضرموت»



يوسف محمد عبدالله

صرح الدكتور يوسف محمد عبدالله رئيس الهيئة العامة للآثار والمتاحف والمخطوطات في اليمن أن البعثة الأثرية الفرنسية ـ اليمنية المشتركة المكلفة بالتنقيب عن الآثار في اليمن قد كشفت عن مواقع أثرية وتاريخية جديدة تتعلق بتاريخ مدينة الشحر بوادي حضرموت، وازدهارها بوصفها ميناء تجارياً نشيطاً إبان العصر الإسلامي، إضافة إلى مجموعة من اللقى والقطع الأثرية التي يرجح أنها تعود إلى ما قبل دخول الإسلام إلى اليمن، وهي تتضمن أدلة جيولوجية وتاريخية على العلاقات والصلات التي كانت قائمة بين الممالك اليمنية القديمة في الجنوب الشرقي والشمال الشرقي من البلاد.

وأوضح أن البعثة عثرت في نهاية موسمها الخامس للتنقيب على موقع مهم يعود إلى الفترة الإسلامية يتكون من: بقايا مبان وطبقات متراكمة، ولقى فخارية ومعدنية وزجاجية، تكشف مجتمعة عن قدم مدينة الشحر وعراقتها قبل الإسلام وبعده. وأشار إلى أن البعثة تُعد لإجراء تنقيبات بحرية في السواحل المحاذية لمدينة الشحر.

وذكر الدكتور يوسف أن بعثة فرنسية جيولوجية، عثرت في



صورة أرشيفية لمومياء

الفرعونية التاسعة عشرة. وقد رد الدكتور زاهي حواس مدير آثار الجيزة على هذا الزعم مؤكداً أن المومياء الموجودة في متحف ايموري في مدينة أتلانتا الأميركية، لا يمكن أن تكون المومياء الخاصة بالملك رمسيس الأول أو أي من ملوك الأسرة التاسعة عشرة.

وقال الدكتور حواس: إن الأسباب التي أدت إلى هذا الاعتقاد ليست كافية، ومن بينها أنهم وجدوا أن أذرع المومياء موضوعة بشكل متقاطع على الصدر، وهو المتبع في النظام الملكي مشيراً إلى انه يمكن تقليد هذا الشكل في العصور المتأخرة، كما أنهم يعتقدون أن المومياء تشبه مومياء ابنة الملك سيتي الأول.

وأضاف أن المومياء ترجع إلى العصر المتأخر مشيراً إلى أن هذه المومياء ليست للملك رمسيس الأول؛ التي كان من المفترض أن تكون داخل الخبيئة الملكية التي عثرت عليها عائلة عبدالرسول عام ١٨٨١م في الأقصر، ولكن لم يتم العثور عليها. وكان قد تم بيع المومياوات المكتشفة في الخبيئة إلى متحف إيموري في أتلانتا.

ندوة «الترجمة والثقافة العربية»



بسام بركة

اختتمت في التاسع من يناير/ كانون الثاني الجاري فعاليات ندوة «الترجمة والثقافة العربية» التي بدأت في الكويت بمشاركة عدد من الباحثين العرب، فقد قُدمت خلالها مجموعة من أوراق العمل والدراسات.

وقد تقدم الدكتور بسام بركة أستاذ الأدب الفرنسي والترجمة بالجامعة

مدينة مأرب بشرق اليمن على مجموعة من القطع واللقى الأثرية، تضم بقايا عظام وأواني فخارية، يرجح أنها تعود إلى العصر البرونزي، ويجري تحليلها حاليًا في المختبرات الفرنسية، وقد تسهم في دعم الفرضية التاريخية والجغرافية القائلة بتواصل وادي الجوف (شمال شرق اليمن) ووادي حضرموت (جنوب شرقه). وأن عمل هذه البعثة هو جزء من مشروع أثري كبير عنوانه «الجوف - حضرموت»؛ يرمي في محصلته النهائية إلى التوصل إلى شواهد جيولوجية على الصلات التي كانت قائمة بين حضارة وادي الجوف وحضارة وادي حضرموت، إذ يُعتقد تاريخيًا أن أودية مأرب والجوف وشبوة، كانت تصب منذ آلاف السنين في وادي حضرموت أكبر أودية اليمن.

ياسمينة خضراء: رجل لا امرأة!!

كشفت الكاتبة الجزائرية المعروفة باسم ياسمينة خضراء التي نُشرت لها كتب كثيرة تتناول فيها فظائع الحرب الأهلية التي تعصف بالجزائر، أنها رجل واسمه الحقيقي «محمد مولسهول»، وهو ضابط سابق في هيئة أركان الجيش الجزائري، حسب ما جاء في آخر رواية لها تصدر في ١٥ من الشهر الجاري في فرنسا بعنوان «الكاتب» باللغة الفرنسية.

وقد أثارت أول رواية لياسمينة خضراء بعنوان «موريتوري» عام ١٩٩٧م تساؤلات في فرنسا وأوروبا والعالم العربي؛ حتى إن بعض النقاد شككوا في أن يكون الكاتب امرأة بالفعل، لكن الكاتب أكد بعد سنتين أن ياسمينة خضراء هي في الواقع رجل.

وفي مقابلة مع صحيفة «لوموند» الفرنسية أوضح الكاتب أن زوجته هي التي أوصته بتقمص اسم مستعار حين قالت له: «أعطيتني اسمك لأحمله مدى الحياة، وها أنا أعطيك اسمي لتحمله إلى الأبد»، وياسمينة خضراء هو اسم الزوجة المركب.

ويرى الكاتب أن تدخل الجيش الجزائري لوقف العملية الانتخابية عام ١٩٩٢م «كان شيئًا جيداً»، و«لو تحرك الضباط الألمان لاتخاذ المبادرة نفسها عندما اعتلى هتلر السلطة في ألمانيا؛ لتفادوا وقوع محرقة اليهود».

وأكد الروائي «أن الكتب أنقذتني من الخضوع؛ كتبت ستة كتب خلال الحرب مكنتني من التغلب على الفظائع»، مشدداً على أنه يريد الاحتفاظ بالاسم المستعار «ياسمينة خضراء حتى النهاية».

وروى المؤلف في كتابه الأخير «الكاتب» كيف انخرط في الجيش؛ بينما كان حلمه الوحيد هو أن يصير كاتبًا، وقال في الرواية التي أهداها إلى مدرسة أشبال الثورة: «إن القراءة كانت السبيل الوحيد لدينا للتسلية»، وإنه لكثرة ما قرأ الكتاب الكلاسيكيين، مثل ألبير كامو، وجون شتاينبك، أصبح هو أيضًا كاتبًا.

الفدية والمتحف


لوحة «الباريسية»

اعتقلت شرطة ستوكهولم في الحادي عشر من يناير/ كانون الثاني الجاري أربعة سويديين يشتبه في تورطهم في سرقة ثلاث لوحات فنية تقدر قيمتها بنحو ٣٠ مليون دولار من المتحف القومي السويدي الشهر الماضي، وعلى الرغم من ذلك لم تعثر الشرطة على اللوحات التي لا يُعرف أمازالت في السويد أم لا؟ وتم توجيه التهمة إلى المشتبه فيهم على أساس كونهم شركاء في الجريمة، ومن الممكن مواصلة حملة الاعتقالات قريبًا.

وهذا الحادث يوصف بأنه أكبر سرقة فنية في تاريخ السويد، ويتلخص في أن ثلاثة مسلحين اقتحموا المتحف بينما كان يغلق أبوابه وقتلوا الحراس غير المسلحين والزوار بمسدسات وأسلحة آلية، وهربوا باللوحات الثلاث الصغيرة في قارب سريع كان ينتظرهم على مقربة من موقع الحادث.

والأعمال الثلاثة التي تبلغ قيمة كل منها نحو عشرة ملايين دولار هي: «لوحة شخصية» للفنان الهولندي رامبرانت، و«محادثة» و«الباريسية» للفنان التأثيري الفرنسي رينوار.

وتلقت شرطة ستوكهولم في التاسع من يناير/ كانون الثاني الجاري عرضًا ممن يُعتقد أنهم سارقو اللوحات أنفسهم؛ لدفع فدية مقابل استردادها، ولكن تم رفض هذا العرض الذي وصف بأنه استفزازي.

التراث الشعبي في دول الخليج

أقام مركز التراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية بالتعاون مع المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في إطار

مهرجان القرين الثقافي السابع في الكويت خلال يومي (١٥ و١٦) من يناير/ كانون الثاني الجاري ندوة علمية حول تجربة المركز الميدانية، كما ناقشت الندوة ما قام به المركز من أعمال ميدانية في دولة الكويت.

وشارك عدد كبير من الدارسين والباحثين والمشرفين العلميين والمتخصصين في مجال التراث الشعبي في هذه الندوة التي قصدت إلى الوقوف على ما تم إنجازه، واستعراض التجارب وتطوير العمل الميداني من خلال اكتشاف المعوقات وتدارس ما يطرأ على المجتمع الخليجي من تغيير.

وقُدمت في الندوة مجموعة من الأوراق هي: «مركز التراث الشعبي: رؤية مستقبلية» لآمنة راشد الحمدان، و«مشروع عادات وتقاليد دورة الحياة: الأهمية والعقبات والتوظيف» لدلال الزبن، و«عادات وتقاليد دورة الحياة وآفاق توظيفها» للدكتور محمود عودة، و«مشروع جمع الحكاية الشعبية: الأهمية والعقبات» للدكتورة كافية رمضان، و«الخلفية التاريخية لأعمال التراث الشعبي في دولة الكويت» لصفوت كمال.

معرض الفروسية العالمي



محبرة مزخرفة
القرن السابع الهجري

افتتح معرض الفروسية الأول الذي نظمته مكتبة الملك عبدالعزيز العامة برعاية صاحب السمو الأمير فيصل بن عبدالله بن محمد آل سعود وكيل الحرس الوطني بالقطاع الغربي ورئيس اللجنة المنظمة للمعرض. جاء تنظيم المعرض في الفترة من ١٦ حتى ٢٥ من يناير/ كانون الثاني الحالي، بمناسبة تدشين كتاب «فروسية» باللغتين العربية والإنجليزية، وزيارة رؤساء متاحف العالم للملكة العربية السعودية والاطلاع على أبرز المواقع الأثرية والمنشآت الثقافية والعلمية بالرياض.

وكان الهدف من المعرض إبراز العلاقات الوطيدة بين الإنسان والحصان، تلك العلاقة التي كانت محوراً لتطور الحضارة الإنسانية وانطلاقاتها إلى الكثير من حضارات العالم أجمع.

وقد ضم المعرض ٤٠ قطعة من نوادر القطع المعروضة في أكبر المتاحف العالمية في «بريطانيا، وسويسرا، وفرنسا، والنمسا»، وشهد حضور أبرز الشخصيات العربية والعالمية من مديري أشهر المتاحف العالمية والمتخصصين في الحصان، وصاحبه عقد ندوة دولية على هامش فعالياته، وكذا إصدار كتاب وثائقي يضم بحوث الأساتذة وخبراء الفروسية.

كهف ساراماجو



ساراماجو

صدرت مؤخراً رواية جديدة بعنوان «الكهف» للكاتب البرتغالي خوسيه ساراماجو الفائز بجائزة نوبل في الأدب عام ١٩٩٨م، وهي أول أعماله بعد فوزه بالجائزة.

وقد صدر لساراماجو المولود عام ١٩٢٢م أكثر من ٢٠ عملاً أدبيًا بين القصة والرواية والقصيدة. وأول ما صدر من أعماله روايته الأولى «أرض الخطيئة» في عام ١٩٤٧م، وأشهر أعماله: رواية «الدليل»، وروايته الملحمية «لنفنتا دودو تشاو»، ورواية «بالتازا ودبليميوندا»، و «سنة موت ريكاردوس»، و«تاريخ حصار لشبونة»، ورواية «ميموريال دوكونفينتو» المترجمة إلى الفرنسية تحت عنوان «الأكتع».

ويتميز ساراماجو بتهكم مشابه لتهكم فولتير، كما يتميز نثره بمزيج من توماس بيرنهارد وغابرييل غارسيا ماركيز؛ فهو يمتلك نثراً مبتكراً متدفقًا يتحرر فيه سيل الجملة باستخدام علامات قطع محدودة، حتى تخاله شلالاً لا يكاد يقف.

العويس في ذكراه الأولى



سلطان العويس

نظمت مؤسسة العويس الثقافية في يومي التاسع والعاشر من يناير/ كانون الثاني الجاري احتفالاً ثقافيًا في دبي بمناسبة الذكرى الأولى لوفاة الشاعر سلطان بن علي العويس.

وأقيم على هامش الاحتفال معرض تشكيلي باسم «بصائر شعر ولون» ضم لوحات لستة عشر فنانًا تشكيليًا من شتى المدارس الفنية من تعبيرية وحروفية وتجريدية وكلاسيكية، ومن

الفنانين المشاركين في هذا المعرض: نجاة مكي، وطلال معلا، وصلاح الدين شيرزاد، وتاج السر حسن، وندوة ثقافية حول إبداع العويس ساهم فيها ١٢ باحثًا، وتحدث عن العويس مجموعة من أصدقائه.

وأصدرت مؤسسة العويس بهذه المناسبة ثلاثة إصدارات جديدة تتناول حياة العويس وإبداعه، وهي: «أبحاث ووثائق عن الشاعر سلطان بن علي العويس» نظمتها مجموعة البحث والدراسات الإماراتية المغربية في جامعة محمد بن عبدالله بمدينة فاس المغربية بين يومي (٢٥ ـ ٢٧) من أبريل/ نيسان الماضي، و«سلطان العويس محارة الزمن الجميل» لأحمد الزين، والجزء الأول من «مجموعة الدراسات والبحوث المشاركة باحتفالية الذكرى السنوية الأولى لرحيل سلطان العويس».

الكويت عاصمة للثقافة العربية


محمد الرميحي

تحت رعاية أمير دولة الكويت الشيخ جابر الأحمد الصباح افتتح ولي العهد الشيخ سعد العبدالله الصباح مساء السبت السادس من يناير/كانون الثاني الجاري فعاليات الاحتفال باختيار الكويت عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠١م. وقد حضر الاحتفال عدد كبير من المسؤولين الكويتيين إضافة إلى حشد كبير من الضيوف العرب.

وأعلن الدكتور محمد الرميحي رئيس المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب أن الاحتفالات الثقافية في هذا العام ستكون عامرة بعمل ثقافي جاد ودؤوب، بما في ذلك مشروعات للبنى التحتية وبرامج تنفيذية ونشاطات ثقافية وفنية متنوعة، ودعا إلى التعاون «من أجل إشاعة ثقافة تنمي الوعي بالمخاطر الكامنة والفرص المتاحة والتحديات الكبيرة».

وستشمل الأنشطة، التي تستمر على مدار العام، معارض فنية وإصدارات جديدة، وعدداً من المهرجانات والأسابيع الثقافية، إضافة إلى الندوات والمؤتمرات. وسيتم خلال هذه الاحتفالات أيضًا الاهتمام بمشاريع البنية الثقافية التحتية، كمشروع مبنى مكتبة الكويت الوطنية، ومشروع المجمع الثقافي، وترميم عدد من المعالم الكويتية وصيانتها مثل القبة السماوية، ومتاحف فيلكا، والمساجد التاريخية، وبيت ديكسون، والقصر الأحمر، والمدرسة القبلية.

أما في المجال الثقافي فسوف ينفذ عدد من المشروعات الثقافية منها استكمال تحقيق كتاب «تاج العروس»، ووضع سلسلة «عالم المعرفة» على أقراص مدمجة، وإقامة معرض دائم للكتاب، وغير ذلك من المشروعات الثقافية المهمة.

معرض القاهرة الدولي للكتاب


سمير سرحان

تنظم الهيئة المصرية العامة للكتاب معرض القاهرة الدولي للكتاب في دورته الـ ٣٣ في الفترة من ٢٤ يناير/كانون الثاني وحتى السادس من فبراير/شباط القادم «وقت مثول المجلة للطبع» وذلك تحت شعار «تحديث مصر» كعنوان رئيس للمعرض هذا العام.

وقد صرح الدكتور سمير سرحان رئيس مجلس إدارة الهيئة المصرية العامة للكتاب أن المعرض هذا العام يحظى بمشاركة ٨٥ دولة عربية وأجنبية، في مقدمتها إيران والسودان والعراق، بالإضافة إلى ١٤ منظمة عربية ودولية، أهمها الأمم المتحدة، وجامعة الدول العربية، ومنظمة اليونسكو، ومؤسسة البابطين الكويتية، ومؤسسة الفرقان السعودية، وأكاديمية الملك فهد للعلوم الإسلامية. وأضاف سرحان أنه سيشارك في دورة هذا العام ٢٧٦٥ ناشراً منهم ٥٧٨ مصرياً، و٣٩٤ عربياً، و١٧٩٣ أجنبياً يعرضون ٣٩٥٠٠٠٠ كتاب.

والمعروف أن هذا المعرض يقام بانتظام منذ عام ١٩٦٨م، ويعدّ ثاني أكبر معرض للكتب في العالم بعد معرض فرانكفورت الدولي، ولا يقتصر نشاطه فقط على طرح الكتب، بل يشمل مجالات أخرى منها: الندوات الثقافية، والمقهى الثقافي، والأمسيات الشعرية، والندوات الخاصة بالمرأة والطفل، والعروض المسرحية والفلكلورية والسينمائية.

عجوز الأوبرا

تشهد دار أوبرا لاسكالا الإيطالية الشهيرة حاليًا احتفالات إحياء الذكرى المئوية لوفاة المؤلف الموسيقي الإيطالي جوسيبي فردي مؤلف الأوبرا الشهيرة (عايدة) والملقب بـ «عجوز الأوبرا (١٨١٣ ـ ١٩٠١م)»، وستستمر هذه الاحتفالات مدة عام

كامل. وقد بدأ الاحتفال بعرض لأوبرا «لاترافياتا» القصة العاطفية التي يمتزج فيها الحب بالخيانة، وهي واحدة من عشرة أعمال أوبرالية ألفها فردي، وسيتم عرضها طوال هذا الموسم.



فردي

وقال المدير الموسيقي للأوبرا ريكاردو موتي: «نحن هنا ليس فقط لتقديم أعمال فردي ولكننا هنا أيضًا لنعيد التفكير فيه». بدأ حفل الافتتاح مقتصراً على الإيطاليين وحدهم، وقد شهده عدد من كبار الوزراء.

اكتشاف أثري في جبل خالد

اكتشفت البعثة الأثرية الأسترالية التي تعمل في موقع «جبل خالد» تحت إشراف المديرية العامة للآثار والمتاحف السورية بقايا كاملة لسوق تجاري كبير، يتألف من مبنى ضخم تحيط به مجموعة من الأبنية (دكاكين) مبنية من الحجر الكلسي مع أجزاء من أعمدة دائرية مضلعة وقواعد ضخمة تتميز بدقة في الصنع والتصميم، وفي الموقع نفسه اكتشفت البعثة أطلال معبد قديم. ويعود تاريخ هذه الآثار المكتشفة إلى العهد الهيليني.

ويعد «جبل خالد»، الذي يقع على الضفة اليمنى لنهر الفرات في شمال سورية على بعد ٨٠ كيلو متراً شرق مدينة حلب، من المواقع الأثرية الجديدة التي باشرت البعثة أعمال التنقيب فيها.

مدن تحت البحر!!

قرر المجلس الأعلى المصري للآثار إجراء مسح أثري تحت مياه البحر الأحمر بطول الشاطئ بين ميناء مرسى علم ومنطقة جواسيس لإعداد خريطة متكاملة تحدد المواقع التجارية ووسائل المواصلات القديمة والدول الأجنبية التي كانت لها علاقات تجارية مع مصر.

وقال الدكتور جاب الله علي جاب الله الأمين العام للمجلس: إن هناك بعثات ستقوم بحفائر في المنطقة ودراسة وتصوير الآثار المكتشفة في منطقة أم الفواخير ومنطقة القصير بالبحر الأحمر، وستجري عمليات المسح بالتعاون بين خبراء من المجلس وبعثة أثرية فرنسية إسبانية مشتركة. وقال إبراهيم درويش مدير عام إدارة الآثار الغارقة: إن هناك خطة لعمل مسح أثري لأكثر من ٤٠٠ كيلو متر بطول سواحل مصر على البحر الأحمر والبحر المتوسط، إذ يعتقد أن هناك ٢٢٠ مدينة غارقة على طول الساحل الشمالي من العجمي وحتى مدينة السلوم. وأضاف درويش أن البعثات التي تبحث عن المدن الغارقة ستستخدم أحدث أجهزة المسح بالموجات فوق الصوتية وأن هناك حفائر حول سفينة غارقة على عمق ٤٠ متراً بالقرب من جزيرة سعدنة بالبحر الأحمر، وهي تعود إلى العصر الإسلامي ومحملة بالفخار والبورسلين.

وتابع درويش «إذا كانت مصر تملك ثلث آثار العالم فوق الأرض فإنها تملك ثلثي آثار العالم تحت مياه البحر».

دليل المصطلحات الفقهية

صدر مؤخراً ضمن مطبوعات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (أيسيسكو) كتاب جديد بعنوان «دليل المصطلحات الفقهية» من تأليف محمد القدوري وبمشاركة الدكتور محمد المختار ولد أباه والدكتور الشاهد البوشيخي.

تعرض المؤلف في القسم الأول لتحديد مفهوم المعجم الفقهي، واستعرض أهم الموسوعات والمعجمات الفقهية التي ظهرت قديماً وحديثاً، كما أشار إلى أن الغاية التي وضعها نصب عينه هي أن يشتمل هذا المعجم على أهم المصطلحات الفقهية وأغلبها ولا سيما ما يتسم منها بنوع من الغموض أو الاختلاف في الفهم أو الجدة أو ما يسمى بالمصطلح المعرف.

تميز هذا المعجم أيضاً بجمع شتات بعض المصطلحات التي تكاد تختفي من المعجمات مع أنها متداولة في الفقه والعمل والقضاء، كما أن المؤلف لم يكتف في وضع مادة المعجم وترتيبها بما هو متداول في المعجمات والفهارس والموسوعات الفقهية المتخصصة، وإنما رجع إلى عدد من المصادر الفقهية للتنقيب عن المادة الصالحة للمعجم الذي توخى فيه على وجه الخصوص خدمة الفقه الإسلامي ورجاله.

قدم للمعجم، الذي صدر في ١٧٨ صفحة من القطع المتوسط، الدكتور عبدالعزيز بن عثمان التويجري المدير العام للمنظمة الإسلامية، والدكتور محمد التومي رئيس جامعة الزيتونة في تونس.

قتل الصحافة

أعلنت لجنة حماية الصحفيين أن ٢٤ صحفيًا قتلوا العام الماضي في أثناء قيامهم بعملهم في أنحاء مختلفة من العالم، وأن أعلى عدد للضحايا كان في كولومبيا وسيراليون وروسيا.

وقالت اللجنة التي مقرها نيويورك: إن عدد القتلى منخفض عن العام السابق الذي قتل فيه ٣٤ صحفيًا بينهم عشرة في سيراليون وحدها.

وفي عام ٢٠٠٠م قتل ثلاثة صحفيين في سيراليون التي تمزقها حرب أهلية هم: كورت شورك الصحفي بوكالة رويترز، وميجيل جيل مورينوديمورا الصحفي بشبكة تلفزيون أسوشييتد برس اللذان قتلا في كمين نصبه المتمردون، وساومان كونتيه وهو صحفي محلي قتل بالرصاص في أثناء تغطيته مظاهرة.

وقالت آن كوبر المديرة التنفيذية للجنة حماية الصحفيين: إنه على الرغم من أن معظم الوفيات حدثت في دول تعاني من حروب، إلا أن معظم القتلى لم يسقطوا في قتال، بل في حوادث قتل، وأضافت قائلة «لقد تم استهدافهم عن عمد لتصفيتهم بسبب ما يقومون به من تغطية أخبارية». وقالت اللجنة: إن ثلاثة صحفيين قتلوا في كولومبيا كلهم برصاص مسلحين، وأضافت أن ثلاثة صحفيين آخرين قتلوا في روسيا بينهم اثنان قتلا في الشيشان والآخر قتل في هجوم أمام مسكنه في موسكو.

فرناند ليجيه والفن الإفريقي


فرناند ليجيه

تتواصل حاليًا وحتى الرابع من مارس/ آذار القادم في متحف الفن والتاريخ بالعاصمة السويسرية جنيف فعاليات معرض «فرناند ليجيه والفن الإفريقي» الذي يضم مجموعة من لوحات فنية رسمها الفنان الفرنسي الراحل، وكان قد استلهمها من الفن الإفريقي - خلال الأعمال التي اشتراها أحد تجار الفن في عام ١٩١٤م - والذي أفتتن به كبار الرسامين الفرنسيين في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. كما يضم المعرض أعمال كل من الفنانين دوران، وفلامنك، وفليكس فينون وأندريه لون عن الفن الإفريقي البدائي.

وثائق إلكترونية

في خطوة تهدف إلى حفظ وثائق الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية المصرية وتسهيل عملية الاستفادة منها، قررت وزارة الثقافة المصرية وضع جميع وثائق الهيئة على أجهزة الكمبيوتر، وقد أعلن سمير غريب رئيس مجلس إدارة الدار أن لجنة حكومية تضم خبراء من دار الوثائق بوزارة الثقافة ومركز توثيق التراث الحضاري والطبيعي بوزارة الاتصالات والمعلومات ستعكف قريبًا على وضع التفاصيل الكاملة للمشروع، وأشار إلى أن البحث اليدوي في هذه الوثائق يشكل مشكلة كبيرة ويمثل خطرًا على هذه الوثائق لضخامتها وقدم أغلبها.

والجدير بالذكر أن الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية المصرية تضم كثيرًا من الوثائق التاريخية المهمة التي يعود أقدمها إلى العصر الفاطمي، ويقدر مجموع أطوالها بنحو ١٣ كيلو متر، كما تضم أيضًا الوثائق الخاصة بحكم أسرة محمد علي باشا حتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢م.

متحف المشاهير

تقرر إغلاق المتحف الموسيقي للمشاهير في نيويورك لإعادة تجديده، وهو واحد من أشهر المتاحف الثقافية في العالم وسيعاد افتتاحه خلال شهر مايو/أيار المقبل، وقد بلغت تكاليف تجديده مبلغ ٣٧ مليون دولار.

ويضم هذا المتحف الذي افتتح عام ١٩٦٧م مجموعة من أعمال الفنانين الموسيقيين، وأشهر الآلات المستخدمة، ومن بينها بعض الآلات التي كان يستخدمها المغني ألفيس بريسلي وقد وصل عدد الزائرين لهذا المعرض حتى الآن إلى خمسة ملايين زائر.

محنة الآداب


غلاف «الآداب»

يهدد خطر الإفلاس والتوقف عن الصدور المؤقت أو النهائي مجلة «الآداب» اللبنانية التي مضى على صدورها ثمانية وأربعون عامًا، وقد وجه رئيس تحريرها السابق سهيل إدريس والحالي ابنه سماح إدريس نداء استغاثة إلى القراء والأدباء والمثقفين والمسؤولين العرب في بيان بعنوان «نداء الآداب» جاء فيه: «لم يعد سرًا أن مجلة الآداب تواجه مشكلات مادية حقيقية تهددها بالتوقف النهائي أو الاحتجاب المؤقت أو الصدور غير المنتظم، حتى قبل أن تبلغ عامها الخمسين.

ولم تعد دار الآداب قادرة وحدها على القيام بكامل مصاريفها

في المستقبل ولم تنجح إدارة المجلة حتى الآن في إقناع الدول العربية بالاشتراك المباشر فيها، أو بطلب كميات محددة منها كي لا تتلف النسخ غير المبيعة أو تذهب بشكل غير شرعي إلى التجار الذين يجمعون الأعداد الإفرادية ليبيعوها لاحقاً إلى مؤسسات على شكل مجموعات. وفشلت حتى الآن في كسر الرقابات العربية عليها، التي قلصت سوق (الآداب) إلى بضع أسواق عربية. ورفضت (الآداب) وستواصل رفضها (إن استمرت على قيد الحياة) الانضواء تحت جناح أي سلطة عربية في مقابل استمرارها المادي». وناشد رئيسا التحرير الرأي العام دعم المجلة، عبر سبل عدة منها شراء مجموعة كاملة (١٩٥٣ - ٢٠٠٠م) والبالغة ٤٨ مجلداً، أو الاشتراك السنوي المباشر فيها، أو إرسال التبرعات، أو شراء كمية مقطوعة من النسخ دون مرتجع.

وكانت متاعب «الآداب» قد بدأت مع بداية الحرب اللبنانية إذ تعذر في ذلك الوقت صدورها بانتظام في مطلع كل شهر، ثم تعذر عليها لاحقاً الوصول إلى الأسواق العربية ومن ثم انقطع التواصل بينها وبين المثقفين والمفكرين العرب الذين كانت تنقل إبداعاتهم، فأصيبت بالضمور والهزال.

يذكر أن مجلة الفيصل كانت قد أشارت إلى هذا الموضوع في عددها رقم (٢٩١) وأشارت إلى رسالة الأديب مؤنس الرزاز الذي تشاءم من نجاح هذا النداء عطفاً على حالة العجز الذي يعيشه العرب على الأصعدة كافة!!.

إعادة آثار مسروقة

بعد متابعة استمرت أكثر من ٨ سنوات استطاع لبنان استرجاع بعض القطع الأثرية التي سرقت من مديرية الآثار في منطقة جبيل شمال لبنان في أثناء الأحداث في الثمانينيات.

وكان البروفسور رولف شتوكي قد تعرف إلى أربعة قطع من هذه الآثار ظهرت في أسواق زيورخ، حيث كانت معروضة للبيع في مؤسسة سوثبي، وتقدمت الحكومة اللبنانية بدعوى لدى القضاء السويسري لاسترداد هذه القطع، حتى نجحت في استرداد بعضها، كما استطاعت استرجاع قطع أخرى من مؤسسات في لندن وفيينا.

الانتفاضة

«الانتفاضة» هي أول صحيفة فلسطينية يومية مخصصة لشؤون انتفاضة الأقصى تصدر في مناطق السلطة الفلسطينية باللغة العربية وتقع في ثماني صفحات.



من الانتفاضة

وقد صرح صخر حبش المشرف على إصدار الصحيفة بقوله: «هذه هي التجربة الثانية لنا في هذا المجال، فقد أصدرنا في بيروت خلال تعرضها للحصار والقصف الإسرائيلي عام ١٩٨٢م صحيفة يومية تحمل اسم «المعركة»، وخصصت تلك الصحيفة لكل شؤون الحصار الإسرائيلي والمواجهات العسكرية.

وبعد اندلاع انتفاضة الأقصى، كررنا التجربة بإصدار صحيفة «الانتفاضة» وهي مخصصة لكل فعاليات الانتفاضة وأدبياتها، وتصدر هذه الصحيفة عن المثقفين العرب حتى يكون للمثقفين دور في الانتفاضة، وهناك عدد من الكتّاب الفلسطينيين والعرب الذين تنشر لهم صحيفة «الانتفاضة» المقالات والتحليلات السياسية مثل ممدوح عدوان وإلياس خوري وآخرين.

دفاع عن اللغة العربية

أعلن عدد من الكتاب والإذاعيين والصحافيين والشعراء والفنانين والشخصيات العامة في القاهرة تأسيس جمعية لحماة اللغة العربية، تعمل على الحفاظ عليها ووقف تراجعها أمام اللغات الأجنبية الأخرى. وأوضح صاحب فكرة الجمعية الإذاعي طاهر أبو زيد أن الجمعية سيرأسها الدكتور كمال بشر أستاذ اللغة العربية بكلية دار العلوم في جامعة القاهرة.

وأشار إلى غزو اللغات الأجنبية ولاسيما الإنجليزية التي تفشت بين المصريين، وأصبحت لغة الحوار والتعامل بين الكثيرين حتى في المسلسلات والإعلانات وأسماء المحلات والمشروعات التجارية التي تحمل ألفاظاً أجنبية يجب التصدي لها ومقاومتها.



الأنصاري، محمد جابر/ العرب والسياسة: أين الخلل؟ جذور العطل العميق.. بيروت: دار الساقي، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ٢٣٩ص

يتضمن هذا الكتاب طرحاً تحليليًا لتجليات الإشكالية السياسية عند العرب وأعراضها بين الماضي والحاضر (وذلك في الباب الأول).

وتحت عنوان «في الفصام السياسي - معالجات نظرية» يأتي الباب الثاني الذي يحاول معالجة الأسباب الموضوعية لهذا الفصام وذلك من خلال بُعد الفجوة الشاسعة بين التصور والواقع في ثقافة العرب والسياسة، وبُعد المفارقة بين التوحد والتعدد في الشخصية الجمعية العربية، وبُعد التجاذب القائم بين الاستبداد والمشاركة في تجاربهم السياسية.

أما الباب الثالث والأخير فيركز على حوانب بحثية تطبيقية تمثل نماذج لما يهدف إليه المشروع من مقاربة لخصوصيات التكوين السوسيولوجي السياسي العربي للإسهام في بلورة علم إجتماع سياسي عربي.



مرقس، سمير/ الحماية والعقاب: الغرب والمسألة الدينية في الشرق الأوسط: من قانون الرعاية المذهبية إلى قانون الحرية الدينية: دراسة خاصة عن الأقباط: التاريخ.. المواطنة.. الهموم.. المستقبل.. القاهرة: ميريت للنشر والمعلومات، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ٢٠٩ص.

تتناول هذه الدراسة العلاقة بين الغرب والمسألة الدينية في الشرق الأوسط: اهتم القسم الأول بشرح الجذور التاريخية لهذه العلاقة، والاستراتيجيات التي تبناها الغرب لتنفيذ ما وصفه المؤلف بالتجزئة الدينية.

أما القسم الثاني من الدراسة فيتناول مسيرة قانون التحرر من الاضطهاد الديني، وبداية هذا الموضوع ومَنْ أثاره؟ وجماعات الضغط التي دعمته، ومسيرته التشريعية وتفعيلات كثيرة اعتمد المؤلف فيها على الوثائق والمراجع.

وجاء القسم الثالث من الدراسة عن وضع الأقباط في مصر ودراسة شؤونهم من الناحية التاريخية؛ وذلك من العصر القبطي حتى العهد الحالي، ويناقش المؤلف مسألة المواطنة في مسارها التاريخي وإشكالياتها المعاصرة، وهموم الأقباط كأقلية في مصر، بعد ذلك ختم المؤلف دراسته بتقديم رؤية إستراتيجية لتدعيم المواطنة والاندماج في المجتمع. ودعا إلى الحوار الوطني من جميع أبعاده، ودراسة العنصر الخارجي في تأجيج المسألة الدينية، ووضع خطة إعلامية وتعليمية مدروسة تهدف إلى تجاوز هذه الإشكالية.

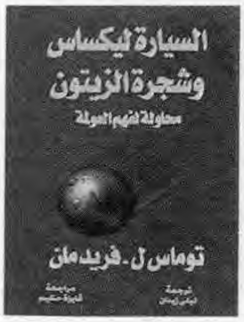


جولمان، دانييل/ الذكاء العاطفي: ترجمة: ليلى الجبالي.. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ٥٧٥ص، (سلسلة عالم المعرفة؛ ٢٦٢).

يقدم هذا الكتاب طريقًا جديداً للنظر في جذور أسباب أمراض الأسر والمجتمعات، ويدعو مؤلفه إلى ثقافة القلب والعقل معاً، وقام فيه برحلة تأمل علمي ثاقب في عواطف الإنسان تساعد على فهم معنى الذكاء، وكيفية ارتباطه بالعاطفة، وتطلع عبر صفحاته على مملكة المشاعر وتأثيرها في مسار حياتنا.

واعتمد المؤلف على الأبحاث الطبية والدراسات التي أجريت على الدماغ البشري ليخرج بآخر اكتشاف لتركيبة المخ العاطفية التي تفسر كيف تهيمن العاطفة على العقل المفكر؟ويتساءل المؤلف ما هذه المشاعر الإنسانية؟ وما مكانها من الدماغ؟ وهل ما ورثناه من طباع قدر محتوم؟، أم أن دوافع المخ العصبية دوائر مرنة يمكن أن تتعلم وتتغذى وتقوى.

كما اعتمد المؤلف على مسح بحثي متأمل يكشف كيف بات جيل الأطفال الحالي في العالم كله أكثر غضباً وجنوحًا وقلقًا واندفاعًا وعنفًا؟ وتأتي أهمية الكتاب من كونه يجيب عن سؤال مهم هو: هل الذكاء العاطفي يقدم علاجًا؟ ويتضمن الكتاب مقدمة وخمسة أقسام رئيسة، جاء القسم الأول بعنوان «المخ الانفعالي»، والثاني بعنوان «طبيعة الذكاء العاطفي»، والثالث «الذكاء العاطفي في التطبيق»، والرابع «الفرص المتاحة»، والخامس «محور الأمية العاطفية».



فريدمان، توماس.ل/ السيارة ليكساس وشجرة الزيتون: محاولة لفهم العولمة، ترجمة: ليلى زيدان.- القاهرة: الدار الدولية للنشر والتوزيع، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ٥٨٩ص.

يرمز فريدمان بالسيارة ليكساس إلى السرعة والتقدم والرفاهية وسعي الإنسان نحو التقدم والتحديث وهي التي تمثل الأسواق العالمية وتكنولوجيا الكمبيوتر والمؤسسات المالية.

وتعني شجرة الزيتون الجذور والأصالة والانتماء والتمسك بالأرض والعادات والتقاليد، كما تمثل دفء العائلة والاعتزاز بالنفس.

فالعولمة هي التكامل بين رأس المال والتكنولوجيا والمعلومات التي تتخطى الحدود بين دول العالم بطريقة تنشأ عنها سوق عالمية واحدة.

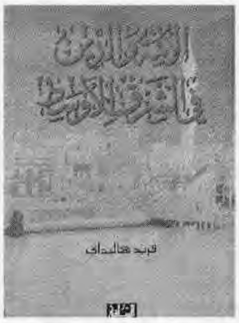
يتضمن هذا الكتاب أربعة أجزاء رئيسة وثمانية عشر فصلاً. جاء الجزء الأول عن فهم النظام الجديد الذي يؤثر في السياسات الداخلية والعلاقات الدولية، ويوضح فريدمان طريقة النظام الجديد من خلال قصص تنبض بالحياة مصوراً الصراع بين السيارة ليكساس وشجرة الزيتون تصويرًا جميلاً وجذاباً. وفي الجزء الثاني يشرح فريدمان كيفية تفاعل الدول والأمم والمجتمعات والأفراد مع العولمة. بينما جاء الجزء الثالث «الموقف المتشدد» من العولمة والذي يقف به أولئك الذين يشعرون بأنها تسحقهم، ويشرح لهم ما يجب فعله لكي يصبح النظام في حالة توازن. أما الجزء الرابع والأخير فيشرح الدور الذي تؤديه الولايات المتحدة وما يجب فعله لاستقرار هذا النظام الجديد.



الزهراني، موضي بنت حمدان/ طرق التعديل المناسبة للاضطرابات السلوكية للأطفال ذوي الظروف الخاصة.- الرياض: المؤلفة، ١٤٢١هـ/ ١٢٨ص.

اتفق التربويون وعلماء النفس على أهمية مرحلة الطفولة، لأنها تمثل حجر الزاوية في بناء الشخصية، فالطفل خلال السنوات الأولى من حياته يمر بعملية تربوية يكون لها أثر كبير في مستقبل أيامه. ولهذا عدت الطفولة الهدف الأساسي للرعاية الاجتماعية على المدى الطويل على أن تتخذ أسلوب التنشئة والتربية لا مجرد الإيواء فترة معينة، وقد سعت هذه المؤسسات إلى تعديل نظام الرعاية المتبع فيها في محاولة لجعله قريباً من الأسرة الطبيعية، وتقريب الطفل من الجو الأسري الطبيعي، ولكن مهما كان هذا النظام فإنه لن يشبع حاجات الطفل النفسية، لأنه نظام مؤسسي تنقصه الجوانب الاجتماعية والأسرية الحقيقية.

تنبع أهمية الدراسة من أنها (نظريًا) تلقي مزيداً من الضوء على سلوكيات الأطفال ذوي الظروف الخاصة (وهم الأطفال المولودون في المملكة العربية السعودية لأبوين غير معروفين، والذين لا تتوافر لهم الرعاية السليمة ويعيشون في دار الحضانة الاجتماعية بالرياض) وتهتم نتائجها بمحاولة الكشف عن أفضل أساليب التعديل السلوكي المقدمة لهؤلاء الأطفال، للوصول بجوانب نمو شخصياتهم المختلفة إلى أفضل المستويات. وقد تم تطبيق هذه الدراسة في دار الحضانة الاجتماعية بالرياض، وهي المؤسسة الوحيدة في مدينة الرياض التي ترعى الأطفال ذوي الظروف الخاصة.



هاليداي، فريد/ الأمة والدين في الشرق الأوسط، ترجمة: عبدالإله النعيمي، بيروت: دار الساقي، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م؛ ٢٥٤ص.

في هذا الكتاب يرى المؤلف أن منطقة الشرق الأوسط منطقة معقدة يتداخل فيها الدين والثقافة والسياسة في علاقة متينة.

فالكتاب مجموعة من المقالات تقدم تحليلاً عاماً للمنطقة وأمثلة على دولها. فيحاول الكاتب تفحص القومية «والإسلاموية» لإظهار صلتهما وعلاقتهما المستديمتين بالوضع والهوية العربيين الحاضرين.

وأعقب ذلك بنظرة أدق إلى الحركات الإسلامية في تركيا، وإيران، وتونس. واحتمال أن تفضي هذه الحركات إلى تفتيت العلمانية في تركيا، وتونس، ودعمهما للدولة الإسلامية في إيران، كما يبحث المؤلف في باقي الملكيات الثماني في العالم العربي. ويدقق في ظروف ظهورها وترسخها وديمومتها .

يتضمن الكتاب ثلاثة أقسام رئيسة تتوزع على أحد عشر فصلاً.



رزق هاني، وخالص جلبي/ الإيمان والتقدم العلمي- دمشق: دار الفكر المعاصر، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م، ٣٢٧ص (حوارات لقرن جديد).

بعد أن أصبح التطور العلمي مذهلاً في فروع المعرفة كافة، أصبح من الضروري أن نعرف ما هي القراءة العلمية لهذا الكون والحياة ومدى مقاربتهما للتأويل الديني. ففي هذا الكتاب يقدم الباحثان هاني رزق وخالص جلبي عرضاً شائقاً لآخر المستجدات العلمية في الحقول المختلفة، وتوصلا إلى نتائج متوافقة نتيجة لاختلاف التخصص.

فقد احتدم النقاش بينهما حول منهج البحث العلمي. مما أغنى هذه الحوارية في الموضوع وفي الشكل. وأضفى عليها ما يجعل مطالعتها مثيرة وشائقة.



الطابور، عبدالله علي/ التعليم التقليدي المطوع في الإمارات. ط٢.- العين: مركز زايد للتراث والتاريخ، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ٣٦٨ص.

صدر هذا الكتاب في طبعته الثانية (مزيدة ومنقحة)، تتبع فيه المؤلف مسيرة التعليم التقليدي المعروف بـ (المطوع) أو الكتاتيب في دولة الإمارات العربية منذ المطوع ومشايخ العلم حتى مطلع القرن العشرين عند افتتاح المدارس الحديثة التي أنشأها تجار اللؤلؤ على نفقتهم الخاصة.

أورد المؤلف صوراً فوتوغرافية لعدد من رواد النهضة التعليمية في دولة الإمارات المتحدة لأجيال مختلفة، وختم بعدد من الملاحق.



الصمادي، خليل محمود/ سلسلة فتيان لكن أبطال.- الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢١هـ، ٢٠مج في١.

«الفتية كثيرون في كل أمة، لكن الأبطال فيهم قلة، وفي الرعيل الأول لأمتنا الإسلامية فتيان عرفوا بالبطولة في حداثة سنهم، كانوا أقوى من الرجال ولم يبلغوا الحلم، عقلاء وماشابت رؤوسهم، تمثلوا الصدق سجية وسلوكاً». هذا بعض ما جاء في مقدمة الناشر الذي

هدف من نشره هذا الكتاب إلى تقديم القدوة الطيبة لفتيان هذا الجيل.

فالكتاب يقدم نماذج من سيرة هؤلاء الفتية من الرعيل الأول في صدر الإسلام بلغت عشرين شخصية بدأت بالرحمة المهداة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وشملت علي بن أبي طالب، والحسن والحسين، والزبير بن العوام، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن الزبير، وعبدالله بن جعفر، ومصعب بن عمير، وأسامة بن زيد، وزيد بن حارثة، وزيد بن أرقم، وزيد بن ثابت، وجابر بن عبدالله، وسلمة الأكوع، ورافع بن خديج، وسمرة بن جندب، وأبو سعيد الخدري، وعبدالله المزني، وسعيد بن العاص رضي الله عنهم جميعاً.

يورد المؤلف في نهاية كل جزء من أجزاء الكتاب العشرين بعض الأسئلة، كما أنه يقوم بشرح الكلمات الصعبة في هامش كل صفحة.



نمنكاني، عبداللطيف، وعبدالمجيد تركستاني/ الحسابات السريعة: طرق سهلة ومبتكرة لإجراء العمليات الحسابية.- جدة: المؤلف، ١٤٢٠هـ، ٣٩٦ص (سلسلة الرياضيات المبسطة؛ الكتاب الأول).

أصبح الاعتماد في الآونة الأخيرة على الآلات الحاسبة لإجراء جميع العمليات الحسابية من جمع وطرح وضرب وقسمة دون إعمال للذهن أو فهم للأسس التي تعمل بها هذه الحاسبات.

يهدف هذا الكتاب إلى تسهيل إجراء العمليات الحسابية بطريقة مسلية وسهلة من دون استخدام الآلة الحاسبة أو الورقة والقلم إلا في النادر، كما أنه ذاتي التعلم بمعنى أن القارئ لن يحتاج إلى مرشد أو معلم لتعلم كيفية إجراء العمليات الحسابية.

يوصي المؤلفان بحفظ ستة جداول للأعداد من الصفر إلى العدد ٩، جدول للجمع وجدولين للطرح وجدول للضرب وجدولين للقسمة، موضحين أن حفظ هذه الجداول سيسهل إجراء العمليات المختلفة ويزيد من صحتها.

احتوى الكتاب أيضًا على تراجم مختصرة لبعض علماء المسلمين الأوائل الذين أسهموا في إغناء علم الرياضيات بإضافة الكثير من الأفكار والأسس والحلول للمسائل الرياضية أمثال البيروني والكاشي وأبو كامل المصري وغيرهم.



ألكسان، جان/ هسيس الليل (قصص).- دمشق: اتحاد الكتّاب العرب، ٢٠٠٠م، ١١٩ص.

الكتاب مجموعة من القصص القصيرة بلغت ١٤ قصة جاءت تحت عدة عناوين منها «صهيل الأيام الخوالي»، و«عزّو القاق»، و«أجراس الموكب الفضي»، و«جنازة.. إلى القرية».

عالج المؤلف في بعضها شؤونًا عاطفية، وأخرى إنسانية أو عائلية، كما تطرق في بعضها إلى قضايا سياسية متداخلة، وغير ذلك من الهموم التي تتصل بالحياة العامة.



الدرعان، عبدالرحمن إسماعيل/ رائحة الطفولة.- الرياض: مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية، ١٤٢١هـ، ١١٨ص.

«أيقظته الجلبة في الخارج، ولما فتح عينيه لم يكن في وسعه التعرف إلى الوقت إلا بالطريقة التي يعوّل عليها العميان في التعرف إلى الأشياء، فمن خلال شحوب النافذة خمّن أنه المغيب.. وتراءت له أبواب الدكاكين تصطفق، والنساء الذاهلات يفتشن عن محارمهن في زحام الأسواق، والسلالم المعدنية النازلة

مثقلة بالركاب، شعر بالنقمة على تلك الأغنية الأثيرة التي من أجل سماعها دفع حريته ثمناً لآلة التسجيل المعطلة».

هذا مقطع من إحدى قصص هذه المجموعة التي تتكون من ١٣ قصة قصيرة، بدأت بـ «رائحة الطفولة» واختتمت بـ «رسالة».

افتتح القاص هذه المجموعة القصصية بمقطع شعري لقسطنطين كفافي من رباعيات الإسكندرية، أعقبه بـ «ضوء خافت» من نص «الجواشن» لقاسم حداد وأمين صالح، واختتمها بـ «أعتام» من النص ذاته.



المزيني، عبدالرحمن بن سليمان/ اتجاهات التأليف والنسخ في مجال الفقه وأصوله في القرنين السابع والثامن الهجريين مع التطبيق على عينة من المخطوطات المحفوظة في مكتبات المدينة المنورة. المدينة النبوية: دار المآثر، ١٤٢٠هـ، ٥٤٢ص.

قصد المؤلف من هذه الدراسة التعرف إلى حركة التأليف والنسخ واتجاهات علماء المسلمين وأهم مؤلفاتهم في الفقه وأصوله في القرنين السابع والثامن الهجريين، وكذلك التعرف إلى حركة المذاهب الفقهية وأشهر المؤلفين في الفترة نفسها. وقد اختار الباحث القرنين السابع والثامن الهجريين إذ اشتهر بين الناس أن هذين القرنين يعدان من عصور الانحطاط، وعليه فإن هذه الدراسة سوف تؤكد هذه الصفة أو تنفيها.

جاءت الدراسة في بابين، تناول الباحث في الباب الأول الإطار النظري للدراسة، وقسّمه ثلاثة فصول، عرض في الأول خطة الدراسة، وناقش في الثاني منهج البحث وأدوات جمع البيانات وتحليلها، وخصص الثالث للحديث عن واقع الحياة الاجتماعية والعلمية في زمن الدراسة.

وفي الباب الثاني تناول الباحث الإطار التطبيقي للدراسة، وذلك في ثلاثة فصول تناول الفصل الأول منها تحليل بيانات أصول الفقه، وحلل في الثاني بيانات الفقه والفرائض والمواريث، واختتمت الدراسة بفصل قصره على سرد نتائج الدراسة والتوصيات.



بيادر (ع ٣١، رمضان ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)

دورية فصلية ثقافية إبداعية تصدر عن نادي أبها الأدبي.

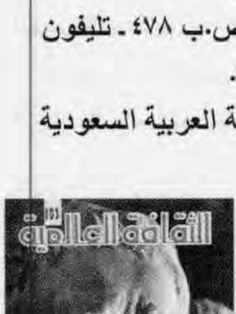
شهد هذا العدد تغييراً شاملاً ابتداءً من الغلاف ومروراً بالمادة والأبواب ومسمياتها وانتهاءً بالأسلوب والنشر، وقد حفلت الدورية (بدلاً من الملف) في ثوبها الجديد بكثير من الموضوعات. ففي باب «دراسات» كتب الدكتور غيثان بن علي جريس عن «بلاد تهامة والسراة منذ فجر الإسلام حتى السنة الثانية عشرة للهجرة» وتناول الدكتور صالح أبو عرّاد الشهري «العادات الصحية وأثرها في تربية الجسم»، وتناولت الدكتورة طريفة سعود الشويعر «سيكلوجية الحياة الزوجية»، وختم معصوم محمد خلف بموضوع «الخط العربي في رحاب المملكة».

وفي باب «شخصيات» كان ضيف العدد صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل أمير منطقة عسير الذي تناول عدداً من المسائل الثقافية والأدبية والفكرية. وبالإضافة إلى الأبواب الأخرى ضم العدد: «تشكيليات»، و«واحات»، و«سرديات»، و«بدايات»، و«قراءات».

العنوان:

نادي أبها الأدبي - أبها - ص.ب ٤٧٨ - تليفون ٠٧٢٢٤٤٢١٠.

فاكس: ٠٧٢٢٦٢١٦٥ - المملكة العربية السعودية



الثقافة العالمية (ع١٠٣، نوفمبر ٢٠٠٠م)

حفل هذا العدد الجديد من مجلة الثقافة العالمية بعدد من الموضوعات المترجمة بدأت بموضوع «القرن العشرين لم يأت بجديد» بقلم ألكسندر

آدلر، ترجمة نجوى حسن، و«العيش في عالم أكثر عنفًا» بقلم مايرا بونيفتش وأندرو موريسون، ترجمة أحمد محمود، و«هل حكم على أمريكا اللاتينية بالتخلف؟»، بقلم بيتر حاكم، ترجمة خالد الفيشاوي، وغير ذلك من الموضوعات.

وجاء ملف هذا العدد من الدورية عن الوجه القبيح للعولمة كشف بعض الأوجه السلبية لهذه القضية من خلال حوارات ومقالات ناقشت الموضوع من مختلف الزوايا.

العنوان:
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ مجلة الثقافة العالمية
ص.ب ٢٣٩٩٦ ـ الصفاة ـ الرمز البريدي ١٣١٠٠ ـ دولة الكويت.
فاكس: ٢٤٣١٢٢٩ ـ تلفون: ٢٤٣١٨٦٠



عالم المخطوطات والنوادر (مج٥، ع٢، رجب ـ ذو الحجة ١٤٢١هـ/أكتوبر ـ ٢٠٠٠ مارس ٢٠٠١م)

صدر هذا العدد من ملحق عالم المخطوطات والنوادر حافلاً بالكثير من الموضوعات التي تتعلق بعلم المخطوطات. ففي باب تحقيق المخطوطات كتب أحمد بن عبدالله الباتلي عن «انتقاء الحافظ أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي»، وأحمد علي محمد عن «رسالة لابن ناصر الدين الدمشقي فيها جواب سؤال ورد عليه من مدينة ماردين»، وهاشم فرحات سيد عن «سديد الصواب في إدراك تعريف الكتاب لمحمد القريني المحلي بن علي». وفي باب المراجعات جاء موضوع نصر الدين محمد صالح فرفور عن «مخطوطة قديمة وأصلية للمصحف الشريف»، وفي باب الفهارس تناول أحمد برهان الدين آل باش أعيان العباسي موضوع «مخطوطات المكتبة العباسية في البصرة وأسرة آل باش أعيان العباسيين»، وفي باب تنظيم الوثائق شرح عبدالغفور عبدالفتاح قاري «دورة حياة الوثائق»، وكانت المسكوكات هي آخر أبواب الملحق، وفيها تناول فرج أحمد يوسف موضوع «دينار نادر للحسن بن زيد العلوي».

العنوان:
ص.ب ٢٩٧٩٩ الرياض ١١٤٦٧، تلفون: ٤٧٦٥٤٢٢، فاكس: ٤٧٦٣٤٣٨
٥٩ شارع إبراهيم النويري ـ الملز.



أدماتو (ع٢، ربيع الثاني ١٤٢١هـ/يوليو، تموز ٢٠٠٠م) مجلة نصف سنوية محكمة تعنى بآثار الوطن العربي

صدر العدد الثاني من مجلة أدماتو حاويًا عددًا كبيرًا من البحوث الأثرية التي ضمتها عدة أبواب: ففي باب «الأبحاث» كتب الدكتوران زيدان كافي وعبدالناصر الهنداوي عن «الحصون والأبراج الأدومية»، وكتب الدكتور حمد بن صراي عن «موقع ميناء عمانا ودوره الحضاري والاقتصادي في منطقة الخليج العربي»، ثم الدكتور فواز حمد الخريشة عن «كتابة عربية بالخط الثمودي من الأردن».

وفي باب «نحو مصطلح آثاري موحد» كتب الدكتور عباس سيد أحمد محمد علي عن «الجذور التاريخية لإشكالية المصطلح الآثاري: حالة ما قبل التاريخ».

وشملت المجلة أيضًا عددًا من البحوث باللغة الإنجليزية بالإضافة إلى الأبواب الثابتة في أخبار المؤتمرات العلمية الخاصة بالآثار، وعرض الكتب والدوريات، كما وُثقت بحوث العدد بعدد من الرسومات والصور والخرائط، وجاءت صورة الغلاف لأرضية فيسفسائية تعود إلى الفترة البيزنطية، اكتشفت في منطقة جباليا بغزة.

العنوان:
ص.ب ١٠٠٧١ الرياض ١١٤٣٣ المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٠٣٦٧٨٠/ ٤٠٣٤٧٥١ (١) (٩٦٦+)
فاكس ٤٠٢٢٥٤٥ (١) (٩٦٦+)

المصطلح الطبي عند العرب

حسام جزماتي
حلب - سورية

لاشك أن المصطلح يعد ركنًا مهمًا من أركان أي علم، لذلك كان العرب مشغولين بتكوين المصطلح العلمي، منذ بدء تأسيسهم للحضارة العربية الإسلامية، وترجمتهم لعلوم من سبقهم من أمم.

لقد واجهتهم مسألة نقل اللغة العربية من لغة بداوة وغزو وغزل إلى لغة علم ومعرفة. لكنّ العقل العربي - كما يقول المستشرق إدوارد براون - «عقل نيِّرٌ وإيجابي، واللغة العربية لغةٌ تتسم بشدة الانفعال والقوة، وهي غنيةٌ بالفعل، وبما فيها من احتمالات كامنة. وكان العرب الأقدمون قومًا يتصفون بحدة الذهن، وقوة الملاحظة»(١). ومن هنا فقد استطاعوا إيجاد مصطلحات علمية عربية مقابلة لما كانوا يجدونه في الكتب التي ترجموها، وفي مجال الطب - كما في غيره من مجالات العلوم - تم ذلك عبر ثلاثة أساليب:

- في الأسلوب الأول أدخلوا إلى العربية التعابير اليونانية أو السريانية أو الفارسية كما هي دون تغيير. وقد سلكوا هذا النهج في أوائل ترجمتهم. فمثلاً عربوا الكلمة اليونانية SYNOKHOS (أي الحمى المتصلة التي لا تنقطع) بكلمة سونوخوس(٢).

- أما الأسلوب الثاني، وهو أكثر الأساليب شيوعًا؛ فكانت ترجمة الكلمات الأعجمية إلى ما يقابلها من العربية، فترجموا كلمة DIAGNOSIS بلفظة «تشخيص» وهي كلمة تعني أساسًا تعرف الشخص. وترجموا كلمة KARKINOS بكلمة «سرطان» وهو معناها الأصلي. وكذلك أسماء طبقات العين. وعددٌ كبيرٌ من أسماء الأمراض، استفادوا كثيرًا في ترجمتها من وجود صيغة «فُعال» التي تدلّ على المرض والألم، وعليها بنوا الصُداع، والزكام، والجُذام... إلخ(٣).



- وكان الأسلوب الثالث هو أسلوب التحديد الاصطلاحي، وهو استعمال الكلمات العربية القائمة فعلاً بمعنى أكثر تحديداً، بشكل تصبح فيه هذه الكلمة ذات معنى اصطلاحي.

فكلمة «كَلَف» مثلاً كانت أصلاً تعني اللون البني المحمر، لكن الأطباء العرب استعملوها لتدل على معنى الكلمة اليونانية EPHELIS وهي عدوى جلدية تتميز بلون أسود غير طبيعي. وكلمة «رمد» كانت تعني أصلاً التهاب العيون عامة، واستعملها الأطباء العرب في المعنى المحدد لكلمة OPHTHALMIA، وهو المرض المعروف اليوم بالتراخوما أو الرمد الحبيبي(٤).

ولشرح المصطلحات الطبية كان بعض الأطباء العرب يخصصون جزءًا من كتبهم الطبية، يوضحون فيه المصطلحات التي استخدموها. كما فعل الرازي (ت٣١٣هـ/٩٢٥م) في كتابه «الجامع»، والزهراوي (ت٤٢٧هـ/١٠٣٦م) في المقالة التاسعة والعشرين من كتابه «التصريف لمن عجز عن التأليف»، وابن الخطيب (ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م) في كتابه «الوصول لحفظ الصحة في الفصول»، إذ ختمه بمعجم يشرح المصطلحات الواردة فيه(٥). بينما عرَّف آخرون مصطلحاتهم عند ورودها في النص، كما فعل ابن سينا (ت٤٢٨هـ/١٠٣٧م) في كتابه «القانون في الطب».

لكن أطباء آخرين فضلوا وضع معجمات طبية متخصصة تشرح اصطلاحات الطب عمومًا، ويحفظ لنا الرازي اسم اثنين من هذه المعجمات، ويذكر البيروني (ت٤٤٠هـ/١٠٤٨م) اثنين آخرين. وقد اصطلح في أول

الأمر على تسمية هذا النوع من الكتب باسمها السرياني «يشقمشاهي» الذي يعني «شرح الأسماء»(٦).

ولعل أقدم ما بين أيدينا اليوم من معجمات الطب العربية هو كتاب «التنوير في الاصطلاحات الطبية» لأبي الحسن منصور بن نوح القَمْري (ت ٣٩٠هـ/١٠٠٠م)، وقد قسم كتابه عشرة أبواب في أسامي العلل والحميات وما في بدن الإنسان، وأسامي الطبائع والأشياء التي تستعمل في العلاجات، وأسامي الأطعمة والأشربة والأقرباذينات، وأسامي الأوزان والأكيال. يعرِّف كل ذلك بإيجاز ودقة ووضوح(٧).

ثم يأتي ابن هندو (ت ٤٢٣هـ/١٠٣٢م) في كتابه «مفتاح الطب» الذي جعله في اثني عشر فصلاً، الأولان منها للألفاظ المنطقية والفلسفية، والعشرة الباقية لألفاظ التشريح والأمراض وأسامي الأدوية والأغذية والأوزان(٨).

ثم عبيد الله بن جبرائيل بن بختيشوع (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م) في كتابه «الروضة الطبية» الذي يقسمه خمسين باباً في تعريف المصطلحات الطبية النظرية فقط(٩).

وفي مطلع القرن السابع الهجري (مطلع الثالث عشر الميلادي) كتب ابن الحشّاء كتابه «مفيد العلوم ومبيد الهموم»(١٠) الذي شرح فيه الاصطلاحات الطبية التي جاءت في كتاب الرازي «المنصوري» وعلّق عليها(١١).

وفي نهاية الثلث الأول من القرن الثامن الهجري (نهاية الثلث الأول من الرابع عشر الميلادي) كتب مسعود بن محمد السجزي كتابه «حقائق أسرار الطب»، وفي نهاية القرن التاسع الهجري (نهاية الخامس عشر الميلادي) كتب محمد بن يوسف الهروي معجمين طبيين أسماهما «جواهر اللغة»، و«بحر الجواهر في تحقيق المصطلحات الطبية»(١٢). وفي الربع الأول من القرن الحادي عشر الهجري (مطلع السابع عشر الميلادي) كتب مدين بن عبدالرحمن القوصوني كتابه «قاموس الأطباء وناموس الألباء»(١٣)، الذي شرح فيه المعنى الطبي، والأصل اللغوي لعدد كبير من الاصطلاحات الطبية. واعتمد فيه على كبار الأطباء، كابن سينا، إلى جانب أئمة اللغة، كابن منظور(١٤).

وسوى ذلك، وجدت الاصطلاحات الطبية مكانها إلى جانب مصطلحات أخرى من علوم مختلفة، في كتب الاصطلاحات العلمية العربية العامة، ككتاب «إحصاء العلوم» للفارابي (ت ٣٣٩هـ/٩٥٠م)، وكتاب «مفاتيح العلوم» للخوارزمي (ت ٩٩٦/٣٨٦م)، و«كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم» للتهانوي (ت١٢٧٩هـ/١٨٦٢م) و«أبجد العلوم» لصديق حسن خان (ت١٢٨٣هـ/١٨٦٦م)، و«جامع العلوم في اصطلاحات الفنون» الملقّب بـ: (دستور العلماء) للقاضي عبدالنبي الأحمدَ نَكْري.

وفضلاً عن هذا وذاك، كانت اصطلاحات «خلق الإنسان» (أسماء أعضائه التشريحية) موضوع عناية خاصة من اللغويين العرب فضمنوها معجمات المعاني الواسعة(١٥)، وألفوا فيها الكتب المستقلة، كما فعل قُطرُب والأصمعي وابن قتيبة وابن فارس والإسكافي وابن سيده وغيرهم(١٦).

المراجع

١. إدوار براون، الطب العربي، ترجمة أحمد شوقي حسن، القاهرة: الإدارة العامة للثقافة بوزارة التعليم العالي، سلسلة الألف كتاب (٦٣٠)، ١٩٦٦م، ص٤٧.
٢. مانفرد أولمان، الطب الإسلامي، ترجمة د. يوسف الكيلاني، الكويت: نشر مؤتمر الطب الإسلامي الأول، ١٩٨١م، ص ٦٨.
٣. إدوارد براون، ص٥٣ ـ ٥٤؛ مانفرد أولمان، ص٦٨ ـ ٧٠.
٤. أولمان، ص٧٠.
٥. د. نشأة الحمارنة، «المعجمات الطبية» دراسة منشورة في مجلة «مجمع اللغة العربية بدمشق» دمشق كانون الثاني/يناير ١٩٨٥م، المجلد الستون، الجزء الأول، ص١١٣، ١١٦.
٦. المرجع السابق، ص١١٢.
٧. المرجع السابق، ص١١٩ ـ ١٢٠؛ وبشأن تقويم كتاب التنوير تراجع الأقسام التالية لمقالة د. نشأة الحمارنة المذكورة في الأعداد ٣/٦٠؛ ٣/٦٢ من المجلة نفسها.
٨. ابن هندو، مفتاح الطب، منشور ضمن كتاب: «ابن هندو، سيرته، آراؤه الفلسفية، مؤلفاته»، تأليف د. سحبان خليفات، عمان: الجامعة الأردنية، ١٩٩٥م، ص٥٧١ ـ ٧٨٥.
٩. عبيدالله بن جبرائيل بن بختيشوع، «الروضة الطبية»، تحقيق بولس سباط، القاهرة: المطبعة الرحمانية، ١٩٢٧م.
١٠. طبع كتاب «مفيد العلوم» في الرباط عام ١٩٤١م، بتحقيق كولان ورنو.
١١. د. نشأة الحمارنة، مرجع سابق، ص ١١٦.
١٢. طبع هذا الكتاب في كلكوتا عام ١٨٣٠م.
١٣. نشر مجمع اللغة العربية بدمشق صورة عن مخطوطة هذا الكتاب عام ١٩٧٩م.
١٤. د. نشأة الحمارنة، مرجع سابق، ١١٦ ـ ١١٧.
١٥. د. وجيهة السطل، «التأليف في خلق الإنسان»، دمشق: دار الحكمة، د.ت، ص ١١٩ ـ ٢٧٦؛ محمد شحادة كرزون، «الألفاظ الطبية في كتب اللغة»، بحث منشور ضمن أعمال المؤتمر السنوي السابع لتاريخ العلوم عند العرب (١٩٨٢م). حلب: معهد التراث العلمي العربي، ١٩٨٦م، ص ١٩٩ ـ ٢٠٢.
١٦. د. وجيهة السطل، ص ٢٥.


نتقدم نحو المستقبل
بخطىً ثابتة
مطابع هلا
HALA PRINTING PRESS
هاتف : ٤٨٢ ١٣١٣



الشـركة الرائـدة فـي مجـال النقـل البـري تـوفـر خـدمـات متعـددة لكافـة الأغـراض ، لمسـة واحـدة فقـط وتحصـل علـى الخدمـة التـي تحتـاجهـا.

اتصل مجاناً على الرقم ٨٠٠ - ١٢٤ ٩٩٩٩



SAPTCO النقل الجماعي

صدر حديثاً من مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية

مطبوعات
مكتبة الملك فهد الوطنية
السلسلة الثالثة
(٤٣)

المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية

د. سهيل صابان



الريــــاض
١٤٢١هـ/٢٠٠٠م